مسافات في أوطان الآخرين

سمير عطا الله

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطاالله، سمير
مسافات في أوطان الآخرين./ سمير عطاالله . - الرياض، ١٤٢٩هـ.
٢٧٠ ص؛ ١٤× ٢١ سم.
ردمك: ٢ـ ٤٠٥ـ ٥٤ـ ٩٩٦٠ـ ٩٧٨
١ ـ القصص القصيرة العربية - لبنان أ ـ العنوان
ديوي ٨١٣,١٩٥٦٦ ١٤٢٩ / ٤٥٦
رقم الإيداع: ١٤٢٩ / ٤٥٦
ردمك: ٢ ـ ٤٠٥ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandi.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	11
صخور من شعر	17
هالو جو!	25
رجل يدعى «بلوت»!	31
متاحف	35
المعذرة من الملح	39
الأنهار... طرقات مسافرة	43
في انتظار غودو	47
كيفك يا شخص؟	57
الحي اللاتيني والخندق الغميق	61
رصيف طويل	71
حمارة سعيدة	75
حليب وشوكولاتة وموتارد	79
الشرق	83
أتذكّر...!	87
تصوّر!	91
بلاد السندباد	97
برامج للأطفال	101

obeikandl.com

حلم... ليلة كولا! 105
الجزّار 109
كلمات... كلمات... كلمات 133
التهاب الجيوب 137
سيدة في الصف الطويل 141
«وأخذ صورة كويس!» 145
معليش وأخواتها 149
غابة من البنفسج 153
إمارة الزرقتين 157
المكان حيث يكونون 161
عصير الحكمة 165
المهرجان 171
بطن الزجاجة 175
عربة اسمها الخوف 179
كوستا ديل سول 183
موقف واحد 187
أف! 191
درس في النقطة 195
شمّام هوا قطّاف ورد! 199
ضرب العمر 203
ماء وملح 207

obeikandl.com

بوف ـــــــ 211
التنين الجديد ـــــــ 215
بلاغ من النثر ـــــــ 219
لماذا تكتب؟ ـــــــ 223
كلام للسادة البنفسج ـــــــ 227
نجمة المساء ـــــــ 233
في بلاد شكسبير ـــــــ 237
جمع مؤنث سالم ـــــــ 241
زمن الحزن على البندقية ـــــــ 245
غداً تتعرّف إلى ريتشارد ـــــــ 249
الكون، وفقاً لنصري ـــــــ 259
اسمع يا نصري! ـــــــ 263
اسمع يا نصري! ـــــــ 265

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

الحكايات بعد المغامرات.

شاطئ الحكمة بعد موج الحرية.

لقد كان خَطّف لبنان منذ 1975 أوَّل ما كان عَبْر خَطّف صحافته. أضرب الراعي فتتبدّد نعاج القطيع. ومنذ ذلك الحين والصحافي اللبناني التائه ينقّل قلمه من بلد إلى بلد، يذوق حريات كثيرة، ولكنه لم يعد يذوق «تلك الحرية».

ماذا يكتب الصحافي اللبناني التائه اليوم بعد الحرب؟ يكتب أجمل كتاباته وأكثرها قوّة، ومع هذا تتراءى دائماً خلف كلماته أطلال أمومةٍ حُرم إيّاها، ولن تُعوَّض. ومن سطوره تفوح، ولو هاجتْ بالفرح وماجت، رائحةُ الموت.

فليست أرضاً ما فقد، بل حياة.

... ومع هذا يستمر. وعلى قلمه تنهض صحافة الآخرين، له أو عليه.

يستمر كروحٍ من وراء الموت. وحتى وراء الموت، هو أكثر روحاً من خانقيه.

والساعةُ ساعةُ الخانقين، يقولها دون أن يقولها القلم التائه، والسلطان سلطانُ الظلام.

obeikandl.com

نَجْمُ هذه المقالات هي الذاكرة. ذاكرة تَخزن بالعاطفة والخيال لا بالحفظ «العلمي». لذلك حين يروي سمير عطا الله ويستطرد، يفعل بتدفّق الجدول أو كزخّ المطر، بعشوائية الطبيعة وعفويتها، وليس بنظام البرنامج المنسَّق. كأنما المعلومات ذكريات شخصية، حتى ما لم يكن منها شخصياً البتّة.

يكتب سمير عطا الله المقال بديلاً من القصيدة. وقطفاً، بجزالة. بأسلوب متموّج يهدهد كالنسيم، يحمي قارئه (وكاتبه) بدفئه الرطب كما تحمي الأم جنينها بأحشائها.

والتفاوت موجود، ولعلّه أمر مألوف في الكتابة الصحافية.

كذلك عدو الغوص دائماً، والاكتفاء برشاقة التزلّج على الماء والجليد.

في الستّينيات، بداية الكاتب، كانت الصحافة اللبنانية في أوجها. يومها لم تكن هذه الصحافة قد أصبحت، بَعْدُ، هرباً من الموضوع ولا الكتابةُ فيها «حياداً» بين الحياة والموت. كانت الأقلام رايات، وصاحبُ القلم فارساً أو زعيماً، ملاكاً منقذاً أو مهلكاً، إنما دائماً بَطَل مغامرة. أما مغامرة سمير عطا الله، فكانت الخروج من فيء الذات إلى العالم وإعادة العالم إلى فيء الذات. وما كَتَبه، سياسةً وانطباعات وأدباً، هو حركةُ رواحٍ ومجيء بين الظل والضوء، بين ضباب الحلم ومشهد الحياة.

ردُّه على مشهد الحياة هو الحبّ، ثم الكتابة عن الحب. والسخرية، ثم الكتابة الساخرة. والتذكُّر، ثم كتابةُ الماضي.

فهذا المتشرد الدائم، الزئبقي المتنقل من مدينة إلى مدينة، متمسك مع ذلك بالجذور والأجداد، ملتفت بحنان إلى الوراء يعانقه بشغف، ولو عَرَفَهُ بعض معرفة، بل ولو لم يعرفه أحياناً إلاّ كما نعرف الطيف. ففي الحنين، أو الحلم الرجوعي، ليست المعرفة هي الجاذب بل ضباب العتاقة، هناك حيث كانت تتم قَبْلَنا عمليات التكوين، وعمليات العذاب والتمهيد، وما فيها من تضحية وفداء نتخيّلهما على غارب هوانا. وكما نشعر بعقدة التقصير تجاه السلَف، نشعر بعقدة التخلّف تجاه الخَلَف، عند أبواب القرن الحادي والعشرين.

ووراء مظاهر السخرية والوداعة يمتد عند سمير عطا الله جسر التواصل بين دورتي الماضي والمستقبل، الفولكلور والفضاء الخارجي، وتعود أشباح الأزمان الغابرة لتُبعث تحت قلمه نابضة في مناخ من السفور والباطنية، ينسجه طفل رَشَد ذات يوم رغماً عنه؛ لأن العالم زجره كثيراً على طفولته، فمضى يكاد لا يتوقف عن تذكير نفسه بأنه صار كبيراً.

والسيرُ في مقالاته كسيرٍ في منام لطيف. قصص التاريخ والأحداث هي هنا أجسام حيّة، تلمع ببريق الحضور الدائم في الزمن لا يغشاها سوى غبار ثلجِ الحفظ في الذاكرة، في إحساس الذاكرة.

❀❀❀

obeikandl.com

هل الماضي قبر؟ وماذا يميّز ماضي السَلَفيين عن ماضي «التقدميين»؟

سؤال قد يبدو بحثاً عن عذر. ولكنه مطروح. لقد ثار الشبّان قبل عقدين أو ثلاثة على الماضي وظنّوا أنهم دفنوه. وهاهم يصبحون بدورهم أهلَ تراث، يندبون ماضيهم أو يعيشون فيه كأنه هو الحقّ وسواه خيانة، وصاروا، كما يفعل سمير عطا الله أمام مشاهد بعض الكتابة الحديثة، يسخرون من التجديد الجديد ويعتبرون أصحابه أغبياء أو دجالين.

هل هو قانون الحياة أم أن الماضي هو بالفعل، هذه المرة أو ربما كل مرة، أجمل من الحاضر؟

إذا استثنينا إغراء القول إن الماضي هو دائماً أجمل من الحاضر على نحو ما أن البكاء على الأطلال أجمل من تشييد المنازل، وعلى غرار كون الأوراق الصفراء أجمل من الدفتر الأبيض، يبقى القول إن الماضي الأفضل من الحاضر هو الماضي الذي يدفع إلى صنع مستقبلٍ أفضل. هو الماضي المشير إلى المستقبل. هو الماضي الذي يعطيني الحوافز للمضيّ في اختراق جدراني. هو ينبوع الأحلام والرؤى. وهو الماضي الذي يجعلني، بإلهامه، أرى في الحاضر ما يمكن أن يكون زادي أو رفيقي، وربما رائدي، في مسيرة البحث لا عن الزمن الضائع، بل عن وحدة الأزمنة. ومهما غرقنا فيما يسمّيه بروست «قيامات الذاكرة»، فلا خوف من السقوط في الصَنَميّة ما دامت الذاكرة تُرسل إشعاعاتها في كل اتجاه، فوق جسر العبور من الوراء إلى الأمام، وهما في الحقيقة، متى ألقينا النظر ما وراء المرآة، وَهْمٌ شديد.

obeikandl.com

بهذا لا يعود الماضي إرهاباً بين إرهابات، بل يصبح جوهراً لا ينفد معدنه، وتصبح الحاجة إلى عصمته استغاثةً من واقع بائس، لا من حاضر مجهول يستعصي علينا فهمه أو يتخطّانا بزخم هجوميّته.

❀❀❀

كان الاستمرار في رواية الحكايات يعادل بالنسبة إلى شهرزاد الاستمرار في العيش. أحكي إذاً أعيش. أكتبُ إذاً أعيش. أتذكر وأروي، فيخلّصني ذلك من إعدام شهريار الحاضر، شهريار العمر، شهريار الحرب، شهريار كل انهيار.

ومن يُتْم الأمّ نهرب إلى حضانة الحب. ومن يُتْم الأوهام إلى حضن الأحلام. ومن يُتْم الوطن إلى بحر الغربة. ومن يُتْم العالم إلى ظلال البيت والأصدقاء، دفء الحماية من الخوف والتهديد ، وَباء هذا العصر.

لكنّ هذا الهارب ليس هائماً على وجهه، ليس ضائعاً. بل على العكس. ثمة فيه ما يبعث على الشعور بالطمأنينة. فثمة واشجة عميقة، كأنما، تربطه بعالم غائب، باطلنتيدما، لعلَّه بشر أو أرض، أو حيّز تاريخي أو فكرة...

ويسأله سائل: لو قُدّر لك أن تختار مهنة جديدة فماذا تختار؟ فيجيبه: أن أكون شاعراً.

مدركاً أو غير مدرك أن هذه الأمنية تَحقّقتْ له وقُضي الأمر.

أُنسي الحاج

obeikandl.com

obeikandl.com

صخور من شعر

في الطريق إلى نيس مررنا بطوق من المدن والأسماء والسهول. وكان كل اسم تقريباً يقفز من كتاب تاريخي أو من تاريخ فني. هنا، تقول اللافتة، دارت معركة «الصُوم»، ولكن ما إن تمضي قليلاً حتى تقول لافتة أخرى: هنا المناظر التي رسمها سيزان!

في فرنسا، الأرض تنتمي إلى الفنان. الدولة تفاخر بالرَّجل. وموظفو وزارة الأشغال يعملون على ما يبدو في الشعر والرفش معاً، إذ ثمة لافتة ثالثة عنوانها: مدينة مياهٍ وآثار! وكل اللوحات، أو اللافتات بُنِّية اللون، كأنك في الطريق من مونتريال إلى مدينة كيبيك، لابد من بيربينيان إلى نيس. ولست أدري من نقل عن الآخر، الفرنسيون هنا أم متحدروهم هناك، الذين لحقوا بجاك كارتييه إلى بلاد الثلج والسهول والحنين الدائم إلى كل ما هو فرنسي، ولو فقط من قبيل النكاية بالإنكليز.

وكان اللون الأزرق الهادئ هو الذي يطغى عادة على اللوحات العامة في فرنسا، وهو بالفعل لا يزال اللون الرئيس على الطرقات، وفي أضواء النيون التي تنعس عند محطات القطار، مثل سائقيه، ولكن أضيف إليه، من أجل التمييز، اللون الفستقي واللوحات البنية، لكن «بولون» ظلَّت مكتوبةً على الطريق بأحرف زرقاء ضخمة؛ لكي تذكرك بتلك الفصول العتيقة في روايات روكنبول.

والطريق إلى نيس من صنع الإنسان، أما ما حولها فمن معجزاته تعالى. وإنك لترى في لمسات خالق هذه الأكوان، شبهاً غريباً بين أودية الرون واللوار ورائحة الصنوبر في أحراج بكاسين، لكن حيث تنافس الإنسان مع الإنسان، تلاحظ أن الطريق في بكاسين باقية على ما هي من أيام الأتراك، طيّب الله ذكرهم، في حين أنها هنا لا ينقصها سوى الذهاب إلى مقر البلدية؛ لكي تعلن عرسها المدني على الطبيعة الأصلية.

وفي أحيان أخرى تبدو الطريق مثل شرفة أو حوض أزهار على شرفة نمسوية لكثرة ما زرع في وسطها من الدفلى، وما نما على جانبيها من الوزّال والطيّون. وإنك لتحب اللون الأصفر في الوزّال مع أنك تكرهه في الوجوه. أما الطيون فيذكرك بالعصافير الصغيرة التي أعطاها اسمه والتي اعتاد الصيادون في لبنان أن يهملوها عمداً؛ لأنها تعيش من هذه النبتة التي لا ثمرة لها، فلا تسمن ولا يطيب لحمها لأكلة العصافير.

ولم نشعر بالساعات الطويلة من الحدود الإسبانية ووادي البيرينيه إلى أعالي «سان بول ـ دي فانس». وقد كنا في بيربينيان ـ وهي بلدة صغيرة على حدود الإسبان تكاد، لو أن فيها مئذنة، تشبه طرابلس ـ في ضيافة بعض الأهل وانتقلنا إلى تلال سان بول إلى لدن، حيث بعض أصدقاء العمر. وعلى تلك التلة جعل صديقي - حفظه الله وعافاه - مستعمرة كاملة من الورد والكتب. وتشتري الناس عادة المكتبات؛ لكي تحوّلها إلى دكاكين.

obeikandl.com

أما هذا المفكر الرائع فكلما ازدادت ثروته اشترى قصوراً؛ لكي يحولها إلى مكتبات. وبسبب ظروفه استبدل الكتابة القليلة بالقراءة الكثيرة، وظل الكتاب سيد الأطياب على موائده وفي مضافاته، ولم يسمح للثروة بأن تحتل مكانه، بل أعطاها مكانها فقط، وأبقى لكل قيمة أخرى قيمتها.

وذات مرة أمضى جبران فترة من الوقت في «مارتا فانياز» أو «كروم مرتا»، فكتب إلى ماري هاكسل يصف لها أمتع لحظات العمر. وقد تذكرت هذه الرسالة في حدائق سان بول، كما خطر لي أن ماري هاكسل ظلت الشخصية الأكثر أهمية من جبران على الرغم من أنها لم تكتب. وإلى اليوم لا يزال الأخوان غونكور أكثر شهرة من الأدباء الذين يحملون جائزتهما الأدبية. ويقول سامرست موم إن الأخوين غونكور كانا أكثر أدباً من الأدباء، وإن في مؤلفاتهما ورسائلهما تاريخاً لإحدى أهم الحقبات الأدبية في فرنسا. والحقيقة أنهما عرفا سانت بوف وريتان وفلوبير وموباسان وأناتول فرانس، كما عاصرا بودلير وفيرلين ورامبو ومالارميه.

وتفاخر مدن فرنسا بانتمائها إلى الأدباء والرسامين. وسعيدة هي المدينة التي تحمل في مبانيها العامة رسماً أو حفراً لفنان ما. وتحاول كل فئة أو منطقة أن تنسب إلى نفسها فناناً ما. وفي هذا المجال تستطيع باريس أن تدّعي لنفسها كبار الأدباء والفنانين في العصور الحديثة. فالذي لم يولد هنا عاش فترة من حياته هنا أو على الأقل جاء إلى هنا؛ ليكتب. وفي بيربينيان كادت صاحبة إحدى المكتبات أن

تطردني؛ لأنني كنت أجهل أن سلفادور دالي من مقاطعة كاتلونيا. والكاتالان بالمناسبة، عرب مقنعون، بالرغم من أنهم الأكثر عنصرية في فرنسا، وبالرغم من أن «المسيو لوبان» هو الأكثر شعبية هنا. والفرق بين بيربينيان وباريس هو كالفرق بين «السان جورج» و«السان بلاش» في بيروت، كلاهما ينتمي إلى شاطئ واحد وزرقة متوسطية واحدة. ولكن هنا بريجيت وهنالك قرنفلة. وتمتلئ ساحات بيربينيان بالغجر والمتقاعدين الفقراء. والبيريهات الكحلية لا تزال تعيش هنا وفي كورسيكا فقط، بعدما انقرضت كأحد معالم فرنسا التقليدية. ولم تفلح الأغاني الكثيرة في إحياء هذا التراث، أو في إقناع حكومة ميتران بالعودة عن إلغاء القبعة العسكرية التقليدية (الكيبي) التي اشتهر بها رجال الفرقة الأجنبية. لقد تأمركت قبعات العسكر في فرنسا، كما تأمركت محلات «الكرواسان». وبعد موجة الأمركة تحاول فرنسا الآن مواجهة حملة اللبننة. أجل اللبننة. ففي الطب مثلاً يدرس الفرنسيون الآن تعبيراً علمياً رسمياً اسمه «الكرش اللبناني». أما التلفزيون فإنه عندما يتحدث عن مشكلات وقعت في باريس فهو يسمي عاصمته بكل بساطة: «بيروت الكبرى!».

... أيضاً قطعنا البيرينيه، جبال البيرينيه! من أوّلها إلى منتصفها، أي بعض مسيرة هنيبعل وبعض هضاب الأندلس. أما نحن، ففعلنا ذلك مثل جراميز الكشّاف عند رشيد شقير أو مثل تلاميذ الجغرافيا في الابتدائية: نخاف الشواهق، ونحن نقربها وتهبط في قلوبنا عندما تطل الأودية مثل كفٍّ أخضر سحيق.

obeikandl.com

كانت عن يميننا، هنا. فرنسا، وفي المقلب الآخر من هذه الجبال البيضاء أحياناً، الصلعاء أحياناً، الخضراء مثل البقاع أحياناً أخرى، كانت إسبانيا، التي تتقاسم الحدود مع جارتها الفرنسية طوال الدهر، وعلى طول الحدود، كأنك بين أميركا وكندا، أو بين الدنمارك والنروج، أو بين بريطانيا والبحر.

وتطل الصخور من فوق رأسك كأنها الأشباح في الليل، أو كأنها غيوم اتخذت أشكالاً بشرية مموّهة في صدر السماء، أو كأنك في راشانا.

وكلما أوغلت في السفوح تعاظم صوت الصمت وصدى البريّة.

وفجأة على مشارف «فوا» تطالعك راعية حمراء الوجه والوهج تجر خلفها قطيعاً من النعاج وتتقدمها كلاب صغيرة لا تنبح ولا تعض. وقد توقفنا هنا؛ لكي نستريح قليلاً فملأتنا غبطة البرية ولامستنا الأعشاب الكثّة من كل لون. إنها الأرض، القطعة الوحيدة من الكون، حيث تتعايش الأشياء، البحر والشاطئ، الصخر والعشب، اليباس والخضرة، وحيث بكل انتظام وروعة تمارس الفصول ديموقراطية الأشياء.

هنا يتزاوج التاريخ أيضاً كالفصول. وفي هذه المنطقة أقرّ أندريه مالرو للمرة الأولى في كتاباته بأن السعادة ممكنة حقاً: «بيوت بيضاء شبه خيالية، بيوت سلام، وبساتين برتقال تلمع في ظلمة الليل. بساتين من شعر شكسبير وأشجار سرو من جنان إيطاليا... آه إن السعادة ممكنة حقاً».

obeikandl.com

يقرّ مالرو في كتابه «الأمل». لكنه لا يلبث أن يستوقفنا فجأة، وكما بأمر عسكري، وكأنه يدري ما بنا وإلى أين نقصد، فيقول: «إن الفن لا شيء أمام الألم...».

في هذه الجبال الرائعة التي رآها مالرو، كما رآها سانت إكزوبري من فوق، ولد أكثر من رسّام تاريخي. بل هنا يصرخ الإنسان، كما يقول لنا مالرو: «أنا أيضاً أريد أن أكون رسّاماً».

لكنني لم أفعل؛ لأنني لو فعلت لظلت صرخة في الهواء، فالريشة عصية عليّ مثل دمع أبي فراس، غير أنه في إمكاني أن أهتف هنا عن حق: أنا أيضاً أريد أن أكون فلاحاً. أنا أيضاً أريد متعة هذا الهدوء الكوني، وشمس الخريف في قلب الصيف وصوت الينابيع تعزف منفردة لحن الخلود.

أي رسام يستطيع أن ينقل إلى اللوحة هذه الغبطة بالطبيعة؟ أية ريشة تستطيع أن تنقل قوس القزح الأرضي هذا؟ وأية محبرة تستطيع أن تروي حكاية الصخور النافرة من الجبال في صورة مشط أو درج روماني لا يزال يبحث عن مهندس؟

في مثل هذا الموقف، إذن، يكتب بول فاليري، بكل حسرة: «إننا نفتقد هذا السكون الجوري من أجل أعماق ذواتنا، هذا الانزواء السامي الذي يصحح أكثر العناصر دقة في أنفسنا. إن ثمة نسياناً مطلقاً تستحم به هذه الأشياء. لا هموم، لا غد، بل نوع من الراحة في أصفى معانيها يمنحنا بالتالي تلك الحرية الكلية».

obeikandl.com

«الريح تهب... لا بد أن نحاول أن نحيا»! هكذا يربط فاليري بين الطبيعة والإنسان، بل ها هي الطبيعة شريكته كأنما هو وحده فوق هذه الأرض «الهواء العظيم يفتح أوراق كتابي ثم يردها». وأمامه، أمام هذا الشاعر الرهيب تمتد الأشجار «محملة بآلاف الأذرع وآلاف الآفاق».

من يصنع مَن؟ الطبيعة أم الشاعر؟ بول فاليري، هذا القاموس ـ الكنز من الشعر والتعابير، أم هذه التلة البسيطة؟ فرنسا تصنع الكتَّاب أم كُتَّابها يصنعونها؟.

هناك غيرة حقيقية في بلاد الإنكليز من هذه الطبيعة التي منحت فرنسا أوسمة من درجة فاليري ومالرو وبودلير وكلوديل. ولكي تفهم هذا السر جيداً لا بد أن تقف هنا، على مظلات «فوا»، حيث تختلط السهول بالأودية والعصافير بالنحل والفراشات بالسكون.

كأنك يا عزيزي في هضاب الأمس، وكأن فيروز تغني لك، على الرغم هذا المهرجان من الرصاص الفرح، والقتل العذب والقنابل المتفجرة في عيون الأمهات، كأنها تغني لك، «سوقي القطيع إلى المراعي...».

وقد سألتني ميّ (زوجتي) ونحن نقف في هذا الذهول: هل هي «فوا» حقاً؟ هل حقاً ما نعجب أم هو الحنين إلى مثلها، فأعدت عليها قول عمر بن أبي ربيعة:

obeikandi.com

تقـــــول وليـــــدتي، لما رأتني

طربت وكنت قـد أقـعـرت حـيناً

أراك اليـوم قـد أحـدثت أمـراً

وهاج لك الهـــوى داء دفـــيناً

وكنت زعـــمت أنك ذو عـــزاء

إذا مـا شـئت فـارقت القـرينا

بربك هل أتاك لهـــا رســـول

فـشـاقك، أم لقـيت لهـا خـدينا؟

فـــقلت: شكا إليّ أخ مـــحب

كـبـعض زمـاننا إذ تعلمـينا

فـــقص عليّ مـــا يلقى بهند

فـذكَّـر بعض مـا كنا نسـينا

وذو الشـوق القـديم، وإن تعـزى

مـشـوق حين يلقى العـاشـقـينا

obeikandl.com

هالو جو!

يسخر البريطانيون في صحفهم وبرامجهم التلفزيونية من الفرنسيين؛ لأن سكان الشطر الآخر من المانش، في جملة أمور أخرى، يقبّلون بعضهم بعضاً. ويعانقون بعضهم بعضاً. الرجال طبعاً!

وقد عرض التلفزيون البريطاني أخيراً برنامجاً ثقافياً عن فرنسا تضمن مشاهد لآباء يعانقون أبناءهم، أو أصدقاء يتعانقون بعد طول غياب.

وحذر البرنامج مشاهديه الصغار من أن يتطلعوا إلى تلك المشاهد بنيّة سيئة، مؤكداً أنها عادات بشرية شائعة لدى الفرنسيين وأكلة لحوم البشر وبعض الفئات المتخلفة، الوارد ذكرها في علم الإنثروبولوجيا.

إلى هنا اعتبرت المسألة قضية شخصية بين الإنكليز والفرنسيين. أو بالأحرى بين الأنكلوساكسون والغوليين. باعتبار أن الأميركيين هم أيضاً ضد القبل بين الرجال، مهما تقاربوا... دماً أو وداً. ولكل امرئ من دهره ما تعوّد. فمن عاداتنا نحن العرب مثلاً أن الرجال يعانقون الرجال، لكنهم لا يقبلون النساء في العلن إلا في قصائد الأخطل الصغير، حيث تتحول القبلة دفعة واحدة إلى جحيم من القبل.

obeikandl.com

والقبلة عند العرب، ذكوراً بالطبع، لها أكثر من مغزى وأكثر من معنى وأكثر من رسالة. فهناك القبلة بالأنف، أو بالخشم، وهناك القبلة بالكتف، وهناك القبلة بالصدر، وهناك العناق. وكل واحدة من هذه القبل تحمل نوعاً أو بالأحرى درجة معينة من الولاء أو المحبة. وهناك فوق كل ذلك قبلة الطاعة، إذ ينحني الأبناء أمام آبائهم، مهما بلغوا من العمر، فيرفعون أيديهم إلى جباههم ويقبلونها بكل رضى.

وإذا تلاقى صديقان بعد غياب طويل من دون أن يقبّل أحدهما الآخر فُسّر ذلك على أنه جفاء مقصود. والسياسيون العرب يتعانقون، حتى وإن لم تكن هناك معرفة سابقة بينهم، دليلاً على الأخوّة!

والرئيس المصري الراحل أنور السادات طبق هذا المبدأ على هنري كيسينجر عندما عرّبه بالقبل والأخذ بالأحضان كما عرَّبه بالألقاب عندما سماه «عزيزي هنري». أما عزيزي هنري، فقد هوّد كل شيء. وعندما تحضر وصفاً إذاعياً لوصول ضيف رسمي تلاحظ أنه إذا كان عربياً أو فرنسياً أو لاتينياً قال المذيع واصفاً اللقاء بـ«إن الزعيمين يتعانقان بحرارة». أما إذا كان الضيف أميركياً أو بريطانياً فيقول «إنهما يتصافحان بحرارة». ولكي يعوض الأميركيون حرارة المصافحة وحدها أضافوا إليها الضغط على الكتف. فإذا صافحك صديق أميركي بعد غياب عشر سنوات وشد على كتفك مراراً قائلاً: «أوه بوي! أوه بوي!»، فهذا يعني منتهى السعادة باللقاء. أما الإنكليزي، فالتشديد على الود عنده شبيه بالتشديد اللغوي عند العرب، أي مَدة

في منتصف الكلمة، وضمتان في آخرها، أو بالأحرى شد مطول بكلتا اليدين. أما الضغط المتكرر على الكتف على الطريقة الأميركية فشيء لا يزال يُعامل بامتعاض على أساس أنه عادة الهنود الحمر.

وأذكر أن أحد المغتربين عاد من المهجر بعد غياب طويل وروى لنا، فيما روى، أن شقيقه تركه ذات مرة إلى مدينة أخرى. وبعد فراق دام نحو سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام، التقيا مصادفة في مدينة ديترويت، فصادف أن كان هو على رصيف وشقيقه على رصيف آخر، فرفع يده بالتحية من رصيف إلى آخر وهتف:

«هالو جو!»

ورحنا ننتظر بقية الحكاية. أي كيف قطع الطريق وسط أرتال السيارات ودهشة أهل ديترويت ـ الذين نصفهم بالمناسبة من أهل اليمن ـ لكي يعانق شقيقه، لكنه لم يضف شيئاً! وبعد انتظار طويل، سألناه: وماذا حدث بعد ذلك؟ فقال وكأنه أمر عادي: لا شيء. لقد مضى جو في طريقه ومضيت أنا إلى المحطة.

في أي حال لم يكن الجدل حول هذا الموضوع يعنيني كثيراً. فأنا أعانق بعض الأصدقاء، حتى وإن شاهدتهم أكثر من مرة في اليوم. فالعناق أحياناً هو تعبير كامل عن محبة أو امتنان أو عاطفة، وحيث يخفق الكلام ينجح العناق في بعض حالاته، وكأنه توقيع مقتضب لرسالة طويلة.

obeikandl.com

ويضحك منا البريطانيون عندما نسير في الشوارع، ساعداً في ساعد، لكنني أعتبر ذلك تقليداً يجب ألاّ نسقطه من أجل آداب الشوارع لدى الآخرين. وذات مرة كنت أسير في أحد شوارع مونتريال مع صديق عزيز، فزحلت قدمي على الجليد، وكدت أسقط بكل ثقلي... في خبر أبيض! فما كان من صديقي إلا أن أعانني على الاحتماء من السقوط. وكان أحد سائقي التاكسي ماراً من هناك فصرخ بنا بتهذيب سائق التاكسي: «أجل. أجل. اعتنِ به جيداً!».

وضحكنا، جورج هدهد وأنا، فنحن من بلد متخلف يسارع فيه الصديق إلى إعانة صديقه، خشية عليه من السقوط، ولسنا من مدينة يسقط فيها أصدقاؤنا، ولا نتطلع خوفاً من تعليقات سائقي التاكسي.

وظلّت المسألة بالنسبة إليّ مسألة عادات وتقاليد. وكل إنسان حرّ بتقاليده. لكن هذه العادات التي عمرها من عمر التاريخ تحوّلت فجأة إلى قضية شخصية في بيتي. فقد كنت أوصل ابني إلى الروضة في صباح أحد أيام الأسبوع الماضي، وقبل أن أسلّمه إلى معلّمته، قبّلته وقبلني. وهممت بالانصراف، بينما انخرط نصري في صفوف رفاقه الصغار، لكن معلّمته استوقفتني بتهذيب، قائلة لي إن نصري دخل عامه الثالث، وبالتالي فإن علم التربية يقضي بأنه لم يعد يجوز لي أن أقبّله...

وكان يمكن أن أمضي من دون أن أجيب!

لكنني توقّفت عند الآنسة الصغيرة وقلت لها: يا عزيزتي، لك أنتِ علم التربية، أما أنا فلي علم الحياة، وهذه الحياة التي أبدأها كل صباح بتقبيل ابني تتحوّل برميلاً من زبالة إذا لم أقبله، وإياك يا

صديقتي أن تصدقي أن نهار الإنسان يبدأ بقراءة «التايمز» مع فنجان قهوة. بل إنه يبدأ في اللحظة التي أقبّل قدم نصري. وإنني أتطلع بين أصابعه الطرية؛ لكي أرى ألوان الحياة وفسحة المدى، ثم أقبل قدمه الوحيدة وبوابة السعادة غير المسوّرة...

أما علم التربية، يا صديقتي، الذي يقول بأنه يجب ألا يقبّل الأب ابنه، فليسقط! ولتسقط كل النظريات التي وصلت إلينا بسبب بعض المباذل اليونانية. ولتسقط اليونان. ولتسقط فيدرا وأوديب والإسكندر المقدوني وجورج باباندريو وميلينا ميركوري وصديقي تيلي سافالس، والإكروبوليس وزويس وإسبارطة وساحة الدستور وكيرا يورغينا والرتسينا. وليسقط الدكتور سبوك الذي حرق كل نظرياته في تربية الأطفال بعد مرور خمسين عاماً عليها، وجاكلين كينيدي التي رفعت علمها على سارية يخت بحّار يوناني. وأنتِ. وهالو جو!.

obeikandl.com

obeikandl.com

رجل يدعى «بلوت»!

كنا نقرأ «الفيغارو» في السر أو «تحت الطاولة» كما يقول الإنكليز. فقد كانت «الفيغارو» يمينية، في حين كان دارجاً أن يكون المرء يسارياً أو في اليسار الوسط أو في وسط اليسار كما توصف حكومات إيطاليا التي تسعى إلى ثقة المجلس من الدورة الأولى. ولذلك كان لا بد من قراءة «لوموند» أو «الموند» كما يصفها الزملاء في حالة الخوشبوشية. وكنا في زمن نصدق فيه كل شيء، ونصفق للكِذبة في اليمين واليسار، ونبكي مع التماسيح من أي اتجاه؛ لأنها أخفت أنيابها عنا، لكن الفخار ما لبث أن اصطدم بالآنية فبان من خلف الزهور كما هو، تراباً مطبوخاً بالرماد مجبولاً بالرماد ووضاعة مغطاة بالزهور.

كنا نصدق كل شيء. وتروي لنا سيمون دي بوفوار في كتابها الأخير كيف شمّر سارتر عن ساعديه الضئيلين لكي يؤسس صحيفة «ليبراسيون» إبان حركة الطلاب في فرنسا. صحيفة صغيرة على جدار كبير. وفيلسوف عجوز مع فلاسفة التمرد. أما اليوم فإن «ليبراسيون» تنافس «المسيوهرسان»، صاحب «الفيغارو» وتلاحقه إلى ليون، المدينة الثانية في فرنسا؛ لأنه ذاهب إلى هناك لشراء صحيفة «البروغري». هي، تريد شراء الصحيفة! وليس ذلك عجباً، فإن ورثة ماو أنفسهم يشاهدون هذه الأيام عرضاً خاصاً «للروديو» في الغرب الأميركي، كأنما «المسيرة الطويلة» عبء يرمى على رصيف الطريق الطويل.

«تحت الطاولة» كنا نقرأ بيار دانينوس المضحك. وفي أي حال لم يكن ثمة ما يقرأ في «الفيغارو» أكثر من هذا الساخر البسيط الذي وضع «مذكرات الميجر طومسون في فرنسا». كنا نقرأه ونضحك إذ يسخر من الحياة اليومية ومن يوميات الناس العاديين. وذات مرة نشر كتاباً بعنوان «رجل ما، يدعى بلوت» رجلاً عادياً، متوسط العمر، وقد تراخى أمام ضغوط الحياة. فصارت له ذقن إضافية ورقبة ثانية وتدلى من وسطه «كرش» مترهل، وصارت له جبهة أعرض من النيل عند الروافد. وصار «المسيو بلوت» يهرب من آخر الشهر ويكره ذكر البنوك ويستعيذ بالله من ساعي البريد، وتعلم كيف ينام تحت سيارته؛ لكي يصلحها، وكيف يغسل وجهه من شحومها، واعتاد على أسئلة زوجته التي جوابها واحد:

«أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر

وحيداً، وما قولي كذا ومعي الصبر؟

وتحول «المسيو بلوت» إلى آلة بشرية في وجه العناصر. ينتظر مواعيد الإجازات مع معلمي المدارس ويقف في الصفوف الطويلة، مثل التلاميذ ويجيد (إلى حد ما) ترتيب الحقائب ويعرف كيف لا يتذمر، وكيف لا يسأل، وكيف يحني رأسه عندما لا يكون ذلك مطلوباً، ويفهم كل شيء في بورصة البطاطا والبندورة، ويتقن فن العثور على باقة من "الكزبرة" وسط أوقيانس من البقدونس.

obeikandi.com

و«المسيو بلوت» أخرق، يتعثر تقريباً بكل شيء، بالباب واللمبة والطريق والدرج. وينسى كثيراً ويسهو كثيراً ويشعر بالضجر مثل القسم الأعلى من شجر الحور، ويقال له دائماً «بدربك إلى المصبغة»، مع أن المصبغة ليست في دربه، أو «وأنت في طريقك عرّج على اللحام» مع أنه نباتي يحب البرغل واللوبياء والزيتون و«صبيع الببو يا خيار».

وعندما كان «المسيو بلوت» يذهب إلى البحر كان الأطفال يضحكون منه؛ لأنه لا يجيد السباحة، وكان الكبار ينظرون إليه باستغراب؛ لأنه يضع حول وسطه (تقريباً، لأن الوسط الحقيقي ضائع) دولاباً يقيه الغرق، وكان يقرأ الصحيفة التي لا يريد قراءتها مسايرة لجماهير السابحين والسابحات، وكان يتظاهر بالإصغاء إلى آخر الأغاني إكراماً لأهل الشط، أو أهل «الشطين وميّه» كما تقول الأغنية المصرية.

آه، كم كان «المسيو بلوت» مغفلاً ومضحكاً!

وقد كنا يومها في العشرينيات من العمر، نرى «المسيو بلوت» في شاشة الآخرين، والحياة كلها إجازة، فلا داعي إلى الانتظار، ولا زوجة تسأل ولا مصبغة بدربك ولا همّ ولا غم ولا كرش يتدلى مثل مسدس غاري كوبر في فيلم «عز الظهيرة»... أما آخر الشهر فمثل أوله فلا خوف من البلل، بل مجرد طريق متعرجة، متزوربة، تهرب فيها من الدائنين في الحمراء حتى يحط بك المطاف في واحة «الهورس شو».

ولذلك كنا نقرأ بيار دانينوس ونضحك معه من... الآخرين!

obeikandl.com

وعندما حزمنا حقائبنا أمس وأعددنا السيارة و«سيري فعين الله ترعاك» من أجل «عطلة الربيع» عند الصبي، تنبهت فجأة وأنا أمسح عرقي إلى أن أصبح جبيني بعرض ميل كامل وتحسست ذقني فإذا بها اثنتان، وأحصيت رقبتي، فإذا هي اثنتان وحاولت أن «أزرّر» سترتي فإذا الدنيا...

يا ساتر يا رب. ونظرت إلى سطح السيارة فاكتشفت أنني قد هيأت، بكل برودة، «دولاب» السباحة، أو العجل (بالجيم المصرية) أو «الشامبريار» كما كان يقول أهل الحيّ.

وأسندت نفسي قليلاً إلى السيارة وعدت عشرين عاماً إلى... «المسيو بلوت». وفيما أنا ساهم للحظة رشقتني زوجتي بالجزء الأول من أدوات السؤال: بماذا تفكر الآن؟ عجّل قبل ما «تعجق»... لكنني استمهلتها قليلاً وعدوت إلى المنزل، ووضعت تحت إبطي كتاباً أقرأه في الإجازة.

احذروا عنوانه.

obeikandi.com

متاحف

أتذكر، وأنا أنتقل من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد أن أكثر ما أهمله في الطريق هو المتاحف. ما أكثر ما أذهب إلى المطاعم وإلى المحطات وإلى الأرصفة وإلى الواجهات، لكنني تذكرت أمس في شيء من خجل الذات والشعور بالذنب أنني لم أذهب مرة واحدة إلى اللوفر (باريس) ولا إلى المتروبوليتان (نيويورك)! وفي لندن نقطن على رمية عين من «متحف الإنسان». لكنني أشتري الصحف والكستناء وعرانيس الذرة أمام بابه، ولا أفكر في الدخول إليه. وما لم أشاهده من متاحف معروضة على الطرقات فإني لم أشاهده أبداً، فترتمي عليك روما بأحضان الرخام، وتقف فلورنسا عند الجسور؛ لكي تقدمك إلى كنوزها، وأنت لا تعرف من متاحف هذا الكون سوى متحف بيروت.

لقد لُقنّا ألا نذهب إلى المتاحف، وبسبب اختلافنا على التاريخ تجنبنا الذهاب إلى حيث شواهده. وبدلاً من ذلك طربنا لعادة الذهاب إلى مطاعم السواحل والجبال، حيث تحمل الخلافات النظرية على حافة الكؤوس ومتون الطاولات.

الإنسان ليس كومة من الذكريات، إنه أيضاً كومة من العادات. فالحيوانات المفترسة تتصرف بالغريزة، أما المخلوقات الأليفة أمثالنا فتتصرف بحكم العادات. والعادة بنت التربية، وهي ليست طبيعة ثانية

كما قال دوق ولينغتون بل هي أقوى من الطبيعة عشرة أضعاف، كما أضاف يقول، وبالإذن طبعاً من زميلنا وشاعرنا العزيز خازن عبود الذي غلبت عليه عادة العمل في وكالات الأنباء حتى صار... «يضيف» و«يقول» حتى وهو يعقد من الشعر أرصعه.

حتى الأوطان يمسخها الصينيون كما مسخها ابن الرومي من قبل ليقولوا إنها شيء من العادات. فما هي الوطنية ـ يتساءل لي يوتانغ ـ سوى حب الأشياء الطيبة التي أكلناها صغاراً، أما ابن الرومي فقال:

وحبّب أوطان الرجال إليهم

مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم

عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه

لها جسد إن بان غودر هالكا

لا. هناك فرق بين لي يوتانغ وابن الرومي. فالأول يريد أن يقنعنا بأن الوطن في نهاية الأمر ليس سوى صحن من الحساء المطبوخ بشراب الصويا، أما الثاني فحوّله عادة من عادات النفس لا المآكل الطيبة وحدها.

في أي حال ليس من عاداتنا الذهاب إلى المتاحف. إلى تلك المعارض الدائمة التي يقيمها لنا التاريخ. نحن جعلنا المتحف الوحيد لدينا نقطة الخلاف والاقتسام. جعلناه مرمى للتسلية حين يكون

القنص البشري ممنوعاً بصورة مؤقتة. جعلناه ملتقى المتاجرة بالعبور بين الوطن والوطن. جعلناه علامة فارقة بين النصف والنصف الآخر. جعلناه محششة تضحك فيها الأشباح ويتسلى بها مزورو الموت والحياة.

لقد قررت، أخيراً، وبكل خجل واعتذار، أن أعوّد نفسي الذهاب إلى المتاحف. وعندما أجيء مدينة ما لا بد أن أقسم الوقت بين المطاعم ومتحفها. لابد من «الإصغاء إلى أصوات الصمت» كما قال لنا مالرو. فالدور الذي تلعبه المتاحف بيننا وبين التحف الفنية عظيم إلى درجة لا نستطيع أن نقول إنها غير موجودة. ويبدو في أية حال أن المتحف بحد ذاته كنادٍ فني.. لم يكن معروفاً في آسيا كلها، بل كان الشرقيون يفضلون ـ والكلام أيضاً لمالرو ـ المتاحف القائمة في العراء، لكن كيف يمكن أن نضع المونااليزا تحت المطر وكأنها تمثال روماني أو واحد من النواويس الفينيقية التي أخذ الفرنسيون أصولها من متحف بيروت وتركوا لنا النسخ نتبادل الرصاص من فوقها ومن تحتها.

طبعاً هناك من يقول: لماذا يذهب أهل الشرق إلى المتاحف والشرق متحف كبير مفتوح من بابل إلى البتراء إلى تدمر إلى بعلبك إلى صور إحدى أمهات التاريخ؟ نذهب ربما لأن المتاحف هذه الأيام لم تعد فقط بيتاً من بيوت التاريخ ولا قصراً من قصوره ولا أعمدة تنتصب كالشواهد الجامدة على أن الأجداد أكثر عطاء من الأحفاد، بل إن متاحف اليوم مزيج من معارض لصور المستقبل ومقدرة الإنسان

المعاصر وروعة العلم وتداخل الحداثة والروية الكونية الآتية برؤية الإنسان القديم الذي ترك لنا ما ترك فدمرنا ما دمرنا وأنقذ الطيبون منا ما أنقذوا.

لا. لابد من الذهاب إلى المتاحف بعد الآن، شرط أن تفعل ذلك قبل أطباق العشاء لا بعدها، وشرط ألا يكون المتحف متراساً بين المتاريس.

obeikandl.com

المعذرة من الملح

قرع بابنا قبل أيام مندوب «الشركة العربية للاستفتاء وإحصاء الأفكار والآراء» وقد دار بيننا الحوار الآتي:

□ هل أنت سعيد بقدوم العام الجديد؟

- على الحياد. ألا ترى أن ذيل العام القديم لا يزال هنا. وللأذيال عيون وآذان هذه الأيام.

□ هل لديك تمنيات للعام المقبل؟

- أخشى إن هو عرفها أن يفعل العكس.

□ هل حققت شيئاً في العام الماضي؟

- حاول الحسد أن يغريني فرفسته، وحاول الانتقام أن يندس في كتابي فمزقته، وحاولت النميمة أن تهمس في أذني فقطعتها.

□ ماذا قرأت؟

- أعدت قراءة ما أحب.

□ من أحببت؟

- ازددت حباً لمن أحب.

obeikandl.com

□ هل ستغير مفكرتك في العام الجديد؟

- أنا أعـتّق المفكرات في الخـوابي ولا أغـيـرها. مـفكرتي مـثل سنديانتي لا يسقط منها إلا الأوراق التي لا تقوى على كل هذا الهدوء، كل هذه الحميمية.

□ والشجرة، ألا تخطئ الشجرة أيضاً؟

- يجب أن تعرف الشجرة من الرياح، فعندما تسمع عواء في البرية قل هو الهواء. الشجر لا يعوي. الشجر مثل الكلمة، مثل الأم، مثل الجبين المرتفع، مثل الضمير النقي، أما الريح وحدها فهي قبض الريح.

□ لكن أرجوك الاختصار، إن أوراق الاستفتاء لا تسع التعابير الطويلة.

- هذا الكلام ليس للنقل في أي حال. الكلام الذي لا يفهم لا ينقل.

□ ماذا أخافك في العام الماضي؟

- أخـافه وحـده تعـالى، لـكنني أخـشى أمـوراً كـثيـرة، أخـشى الظلم والثعالب والأنفس المريضة ومصانع الكذب.

□ لكن يقال إن الكذب ملح الرجال.

- المعذرة من الملح.

□ لو قدر لك أن تختار مهنة جديدة فماذا تختار؟

- أن أكون شاعراً.

obeikandl.com

□ ماذا تتمنى لأصدقائك؟

– الصحة والسعادة والبنين.

□ وماذا تتمنى لأبنائك؟

– أصدقاء مثل أصدقائي.

□ وللآخرين؟

– أن يفهموا معنى الصداقة، فإذا فعلوا استراح العالم إلى الأبد.

□ هل أنت مهاجر؟

– أنا مقيم في الهجرة.

□ ماذا تمنحك الهجرة؟

– تجردني من أرضي وتمنّ علي بكرامتي. فلا وطن هي لأنها من دون أرض. ولا منفى هي لأنها ذات حرية.

□ كيف تحارب حنينك؟

– بقراءة الصحف!

□ هل أنت متفائل؟

– أنا في حالة سخرية دائمة من الذات فلمَ لا؟

□ لو أجبرت على أن «تنقل» إلى العالم الجديد ومعك القليل من عالمك. ماذا تأخذ معك؟

– أصدقائي وعائلتي وحنيني إلى عمتي؟

obeikandl.com

□ ماذا ستقول لابنك في العام الجديد؟

- أن يظل طيباً ولو غبياً، وأن يظل كريماً ولو خاسراً، وأن يظل وفياً مهما ضحك الآخرون، وأن يظل مترفعاً مهما تمرغ العصر، وأن يظل نقياً مهما صوروا له أن المثل متعبة.

□ طاب غباؤك يا صديقي. إنه غباء لذيذ في أي حال.

obeikandl.com

الأنهار. . . طرقات مسافرة

بين يدي كتاب (ألم يكونوا يكتبون هكذا ـ بين يدي ـ كأنما الكتاب احتضان؟) للأرجنتيني خورخي لويس بورخيس. وقد شعرت إذ اكتشفت أن له جديداً على رفوف المكتبة بما يشعره الأطفال عندما يمسكون بعصفور طائر في البساتين. وهذا الشعور بالفرح تحول بعد ذلك إلى شعور بالارتياح: ما زالت الكتب تفرحنا برغم نصائح الأصدقاء. وقد قال لي صديق مرة بكثير من الإشفاق: كفاك إضاعة للوقت، اذهب وفتش عن الخبز! وروى لي صديق آخر أنه بعث مرة بقصيدة إلى امرأة أحبها، فلم تكلف هذه نفسها أن تفتح المغلف وسارعت إلى رد القصيدة مع الشكر. وسألني صديقي ـ لا صديق الكتاب ـ ماذا أفعل؟ فقلت له: في المرة المقبلة أرسل لها علفاً. وسرّ للنكتة غير أني أوضحت أن لا علاقة لي بها وإنما هي من وحي «مجمع المسرات» الذي روى صاحبه أنه ألقى مرة قصيدة في جماعة متبلدة فلم تصفق له؛ لأنها لم تفهم الشعر، فتوقف وقال فيهم:

لو كان شعري شعيراً

لاستطيبته الحمير

لكن شعري شعور

هل للحمير شعور؟

obeikandl.com

فوقف السامعون دفعة واحدة وأخذوا يهتفون لعيون الشعر. غير أن بورخيس بعيد طبعاً عن هذه الأراجيز. إنه أحد شعراء هذا العصر، وكتابه الجديد «أطلس» فيه الكثير من غرابة هذا اللاتيني الذي أصيب بالعمى فقرر أن يجول حول العالم مسافراً لكي يرى الكون بأصابعه وظلمته. و«أطلس» شيء جديد في كتب السفر وأدب الرحلات.

وكثيراً ما يخيل لك أنك في بحر من المثيولوجيا الإغريقية لا في تعليق على صورة من الصور السياحية التي مررت بها المرات العشر. وها هو يتوقف في روما عند القيصر ليملي على رفيقته هذه السطور:

«هنا يرقد ما أبقت عليه الخناجر»

«هنا يرقد ذلك الشيء المسكين،»

«رجل ميت اسمه القيصر. لقد حفروا»

«أخاديداً في جسده بذلك المعدن الرهيب»

«... هنا يرقد أيضاً الآخر، الإمبراطور الحذر»

«الذي رفض أكاليل الغار لكي يظل حراً»

«في الزعامة على الأرض والبحار»

«... هنا يرقد أيضاً آخر آخر»

«السيد المقبل الذي سيكون العالم»

«ظله العظيم»

obeikandl.com

وفي قصيدة «عطايا» يقول:

«لقد أعطى أشياء أخرى أيضاً»

«ولكل منها اسمها»

«المربع، الفضاء، الهرم»

«رمال لا تحصى وأخشاب»

«ومن أجل أن يمشي البشر»

«أعطى أيضاً إطاراً جسدياً»

«ولقد استحق تذوق الزمان كل يوم»

«هذه هي قصتك، وهذه هي روايتي».

ثم يتوقف هذا المسافر البصير في مدينة «البندقية» لكي يقول:

«يلاحظ «غيبون» أن استقلال جمهورية البندقية القديمة قد أعلن بقوة السيف، لكنه بُرِّر بالقلم. يقول باسكال إن الأنهار طرقات عريضة تسافر: أما قنوات البندقية فإنها طرقات تسافر عليها الجندولات وهي ترتدي ثياب الحداد، جندولات مثل الكمنجة الباكية (...) إن البندقية مثل الغسق. والغسق في البندقية هادئ وخالد، ليس له ما قبله ولا ما بعده».

ومثل معظم كتاب هذا العصر لابد لبورخيس من أن يمر بفيتنام و... طبعاً يا سيدي، لبنان. فهو عندما يكتب عن «زقاق بوللينى» في مدينته وحبيبته بوينس آيرس نراه يعود إلى الزقاق من هذا المدخل:

obeikandl.com

«إننا نحن المعاصرين للمسدس والبندقية والأسلحة النووية الغامضة وللحروب العالمية الواسعة وللنزاعات في فيتنام ولبنان، لابد لنا أن نشعر بالحنين إلى تلك المعارك المتواضعة التي جرت في هذا المكان في أواخر القرن الماضي...».

وتحت عنوان «أحلام» يقول: «إن جسدي الحسي قد يكون في لوسيرن أو في كولورادو أو في القاهرة، ولكن عندما أستفيق كل صباح، عندما أستأنف مرة أخرى عادتي في أن أكون بورخيس، فإنني دائماً أخرج من حلم يحدث في بوينس آيرس (...) إنني لا أحلم أبداً بصيغة الحاضر بل إن كل أحلامي تحدث في بوينس آيرس الماضية، بالغاليريهات وبضوء الشمس يتسلل إلى المكتبة الوطنية في شارع مكسيكو. فهل يعني ذلك، ولو رغماً عني وخلف حدود إرادتي، أنني مجرد «بورتينو» أي من سلالة أولئك الذين بنوا الميناء في بوينس آيرس؟».

obeikandl.com

في انتظار غودو

كنا نأتي من بيروت إلى لندن أو باريس فقط؛ لكي نعود إلى شارع الحمراء، ونتحدث عن المسرحية التي شاهدناها بين «السان جرمان» و«الهاي ماركت». وغالباً ما كنا لا «نشاهد» أكثر من نقد للمسرحية في الصحف، ومع ذلك نروح ونتحدث في حلقاتنا عن «العمق» و«الأبعاد» و... طبعاً، العبث! أما العبث الحقيقي فكان نحن وعلاقتنا بالمسرح، وذقن المخرج منير أبو دبس، الذي جاء إلى باريس، وعاد منها بالمسرح الحديث، أو الجديد، أو الطليعي، مع أنه لم تكن في لبنان بعدُ خشبة قديمة واحدة، إلا مسرح أبو عبد البيروتي، رحمه الله.

والحقيقة أنه كان في لبنان مسرحيون قبل أن يكون هناك مسرح.

كان هناك نقاد يتجمعون على أنفسهم في المقاهي، ويشربون القهوة، ويدخنون «الغولواز» الأسود الكثيف ويمدون أيديهم في الهواء، أو في وجوه بعضهم البعض، ثم بطريقة مسرحية أخاذة، يرفعون برتولت بريشت على الأكتاف، أو يرمون جان بول سارتر على رصيف الحمراء، ثم يعودون إلى منازلهم؛ لكي يستنبطوا حديثاً لمسرحية اليوم التالي، تلك المسرحية التي لم تعرض.

وبينما كان الطليعيون يذهبون إلى باريس ليعودوا بخفي أيونيسكو وأرابال، كان شوشو العظيم ـ الذي لم يذهب إلى أبعد من باب إدريس ـ ينقل «الفودفيل» من فرنسا إلى بيروت ويعرّب موليير، وينشر في

سماء العاصمة ضحكات لا متناهية، ويوزع مجاناً أكياس الفرح على الناس الذين صفقوا له ولهند طاهر في مسرحية «من أجل قبعة مش إيطالية»، أو أولئك الذين طقت خواصرهم، وهم يصغون إليه ممثلاً «المريض رغماً عنه» فيتخلع من الخوف ويتناحل ضمن جسده الضئيل، لكنه لا يلبث أن يملأ الصالة بحنجرته العميقة، ثم بروحه العبقرية، ثم بذلك الحضور الكلي المتكامل، بحيث هتفنا من أعماقنا أخيراً: إن ثمة مسرحاً قد ولد لنا تكملة لمسرح الرحابنة، عبقر الكلمة البسيطة، والنوتا الشفافة، والالتزام العفوي، الخفيف الظل. أولئك الذين أعطونا «الشخص»، المسرحية التي انهالت على القضاء والكبت والمحسوبية، بينما القضاة في الصالة يصفقون، ورجال «المكتب الثاني» يرددون اللازمة مع الكورس.

في أي حال كنا نأتي إلى هنا، إلى أوروبا، فلا تتسنى لنا رؤية أكثر من مسرحية واحدة أو حتى أقل. أما الآن فها نحن نعيش على بعد صالة واحدة من أي مسرح، لكننا غارقون في الحديث عن «الهورس شو» وعندما يفيض بنا الحنين نتدرج إلى الحديث عن «بار الروكسي». أما إذا فقعت حنيناً مع الشباب في أمسية مطولة فإن الذكريات تتباسط حتى تصل «قهوة الحاج داود».

ومنذ أسابيع وأنا أعود إلى منزلنا مروراً بلافتة ضوئية كبيرة تعلن أنه تعرض هنا مسرحية «في انتظار غودو»، فلما التفت، تذكرت فجأة أنني لم أر في حياتي هذه المسرحية، مع أنها ترن في أذني وكأنها شيء مألوف. وعندما رحت أتأمل اللافتة الضوئية، اكتشفت أنني في الواقع لا أعرف «غودو» إلا من الزميل العزيز رفيق خوري

الذي استشهد في مقالاته بـ«لا عودة» غودو، أكثر مما استشهد الخطيب الشهير إلياس ربابي بسلفه ديموستين. ولست أدري ما علاقة رفيق خوري بغودو؟ لكن يخيّل إليّ أن القاسم المشترك بينهما هو المسرحي المثقف والمتكرس شكيب خوري الذي كان حظه من الوسامة أوفر من حظه في المسرح.

لقد دان المسرح في لبنان للذين وضعوه في متناول العاديين من خلق الله، أما المثقفون الحقيقيون ـ وأبو دبس بينهم ـ فقد أنشأوا مسرحاً رفيعاً، لكنه من دون جمهور. وحاول البعض الآخر أن يلتقط الاثنين معاً، أي النخبة والجمهور، فالتقط نصف هذا ونصف تلك. وأعني بهذا إلى حد كبير أستاذاً مثل أنطوان ملتقى أو ساحراً مثل ريمون جبارة. وهكذا ظلّت الخشبة تقهقه وتموج تحت أقدام الرحابنة وشوشو وأبو الحسن وكرباج.

ولعل الثقافة الفرنسية، أو التأثر بها، هو الذي أوجد هذه الثغرة بين رواد المسرح المعاصرين وجمهورهم المفقود. فقد ولد المسرح الجديد في بيروت في الوقت الذي كانت فرنسا تخرج من الموجة الوجودية في الفكر إلى «الموجة الجديدة» في السينما. وكان التجديد يومها، أو ما اتفق على تسميته التجديد، وقفاً على فرنسا وإيطاليا، مسرحاً ورسماً وسينما، لكنه شمل أميركا وبريطانيا شعراً ونثراً. غير أن المسرح الأنكلوساكسوني ظلّ كلاسيكياً إلى حد بعيد، أو ظلّ تجديده ضمن الكلاسيكية، في حين كان معظم المسرحيين اللبنانيين من ذوي الثقافة الفرنسية، وكذلك رعاة المسرح في لبنان، أي لجنة

مهرجانات بعلبك التي ارتكبت الخطأ الكبير عندما سمحت للفنيين بمسايرة أذواقها، بدلاً من أن تحاول الجمع بين «بورجوازية» أبو دبس مثلاً، الذي تكاد صالته لا تمتلئ في الليلة الأولى بسبب طبيعة العمل الذي كان يقدمه، ونبيه أبو الحسن الذي كان يملأ صالة الفينيسيا أكثر مما ملأت «منغالا ابنة الهند» صالة هوليوود في ساحة البرج.

هناك طبعاً هوة دائمة بين ما هو «شعبي» وما هو «نخبوي». وهذه الهوة قائمة في كل زمان وفي كل فن. لكن مصر لم تعانِ منها مثلاً. ولا سوريا. ولا أخيراً الكويت، حيث فرض عبد الحسين عبد الرضى ويوسف الصالح نفسيهما على المستوى العربي. فقد اختارت مصر منذ البداية المسرح الشعبي، أو الترفيهي إذا شئت، من أيام كشكش والريحاني ومحمد خيري إلى أيام محمد عوض وعبد المنعم مدبولي وعادل إمام. وهكذا فعلت المسارح الأقل نمواً في العراق وسوريا والكويت وغيرها، أما في لبنان فقد لعب الانفتاح الثقافي، بل التصارع الثقافي ـ وخصوصاً الامتداد نحو باريس كونها عاصمةً ثقافية بديلة ـ دوراً كبيراً في قيام أكثر من تيار مسرحي.

ولعلّ أبرز معالم هذه التيارات، مسرحية «في انتظار غودو» التي لم تمثل على خشبة، ولم تنقل إلى العربية، ولم يقدّر لها ما قدّر لمسرحيات بريشت على يد المخرج جلال خوري قبل أن ينتحي من اليسار إلى اليمين. ومع ذلك فهي الأكثر شهرة بفضل الزميل رفيق خوري، أو هكذا يخيّل إليّ...

❀❀❀

obeikandi.com

... من أسباب لجوء الكتاب إلى «في انتظار غودو» أنها كانت رمزاً للمسرح العبثي. للعبث. ذلك أن غودو في نهاية الأمر هو «الذي لا يأتي». هو المشكلة التي لا تُحل. هو الضد. هو اللاتجانس. هو اللاسؤال واللاجواب. هو اللاشيء. والمسرحية في الحقيقة ليست مسرحية من حيث الشكل، وإنما هي حالة بشرية. حوار مع الذات. ثرثرة بلا نهاية بين رجلين يجلسان تحت شجرة من أشجار الريف في انتظار «البطل»، لكن المسرحية تنتهي من دون بطل... إلا الحوار!

لذلك رافق «غودو» المقالات السياسية للزميل رفيق خوري ولا يزال! ولذلك «شاع» بين أهل المسرح في لبنان، وخصوصاً عند الشاعر عصام محفوظ الذي كان أول من أعطى المسرح «اللغة الثالثة»! أي أنه لم يذهب إلى «اللغة اللبنانية» كما بشّر في الناس سعيد عقل، لكنه في الوقت نفسه لم يبق المسرح رهناً لآهات الشنفرى و«ما بالكم تكأكأتم عليَّ». وقد كان عصام محفوظ في الستينيات وقفة مهمة في تطور المسرح اللبناني. بل أصبح هو «الكاتب» أو القاسم المشترك لمجموعة مسارح مليئة بالحياة، وليس فقط بمجموعة مسرحيات. غير أن محفوظ مثل أبو دبس، مثل ملتقى، مثل الشدراوي ـ العائد من موسكو بدلاً من باريس ـ مثل جلال خوري المهووس ببرتولت بريشت، مثل جبارة الفلاح العاقل المثقف الذي حاول أن يدجن مسرح النخبة من دون أن يبتذله، مثلهم جميعاً سقط في الحزن المسرحي أو بالأحرى اعتبر المسرح مرادفاً للحزن وحالة اللاانتماء التي سيطرت على أكثر

obeikandi.com

من جيل. ففي السابق كان صلاح كامل قد كتب رائعته «الهاوية» ومشى. فهو لم يكتفِ برمي مسرحه فقط في دنيا العبث، بل رمى نفسه أيضاً في متاهة اليأس الكبير.

وكان صلاح كامل، القومي الفكر والتطلع والمعاناة، نقيضاً للالتزام واللاانتماء في وقت واحد. كان ملتزماً إلى درجة أنه غيّر الاسم الأجنبي الذي أعطي له وكان عبثياً إلى درجة أنه أعلن يأسه من الكتابة نفسها فانزوى إلى ذاته الكبيرة وحيداً حتى الموت.

كان هناك جيل بكامله يبحث عن هوية بعد الحرب والاستقلال. وهو من دون شك جيل ضائع في الشعر والمسرح والنثر، أو هو جيل الضياع كما أطلق على نفسه، أو «الجيل المأساوي» كما لقب أيتس نفسه وأترابه في القرن التاسع عشر.

فإذا كان صلاح كامل قد كتب «الهاوية» في غمرة الموجة الوجودية التي عمّت العالم فإن صلاح لبكي الرومانسي كتب من قبله «سأم» في الشعر. وفؤاد كنعان ذلك الناثر الرائع ذو الكلمة المصقولة كالريح ذهب إلى أبعد من الاثنين لكي يكتب «قرف». ثم جاء جيل أنسي الحاج لكي يخلط بين التمرد والضجر فكانت «لن» ضمن حركة «شعر» التي ضمت أدونيس والبياتي في مسيرة أدبية تزعمها يوسف الخال، مثيرة للجدل لدى البعض، وللإعجاب والتأمل لدى البعض الآخر.

جيل الستينيات كان لا يزال يعاني التناقضات التي عاناها جيل الخمسينيات. وقد كان إلى حد ما أكثر فرحاً، وهو يبحث عن الذات، لكن الخلفية الحياتية والفكرية المضطربة كانت هي نفسها. فها نحن

obeikandl.com

أمـام جيل لـم ينزل من القـرية إلى المدينة فـحـسب بل من المدينة إلى أرصفة باريس وثمراتها المحرمة وموجاتها الفكرية التي لا تقف أمام قلاع الرمل.

لقد جاؤوا إلى أحضان كامو الذي كان قد كتب قبل سنين «أسطورة سيـزيف» مفتتحاً بذلك الطريق إلى خشبة كبيرة من الفكر العبثي في عالم بلا هدف وبلا مرساة.

ومن الغرابة أن باريس كانت وحدها مسرح العبثيين الذين جاؤوا، مصادفة طبعاً، من كل مكان فتحولوا فيها معابث: بيكيت الإيرلندي، إيونيسكو الروماني، اداموف الروسي وأرابال الإسباني. ولم يعد العبث مسـألة بل أصـبح مسـرحـاً بحد ذاته. وكمـا كان المسـرح الرومـانسي شاعرياً مليئاً بالأحلام والفصاحة صار المسرح العبثي مليئاً بـالغموض والسـخرية واللاشيء. وبعد «أسطورة سيزيف» كتب كامو «الغريب» أو بالأحرى «اللامنتمي» الذي سيظهر في شكل آخر بعد ذلك في كتابات كولن ولسن الذي اعتبر أن حـالة اللاانتماء ليست وليدة الحـرب وإنما تعود إلى دوستويفسكي ونيتشه، فيما رأى آخرون أن أول لامنتمٍ ظهر عند أندريه مـالرو في كتابه «إغراء الغرب» في العام 1925عندمـا قال: «في لب كل إنسان أوروبي عبث جوهري يسيطر على اللحظات الكبرى في حياته».

لكن ثمـة عبثـاً في قلب الإنسـان الشـرقي أيضـاً. والقلق الفكري أو الحياتي أو السياسي سوف يصبح ميزة مسرحية في بيروت مع بريق نضال الأشقـر وحِرَفية روجيـه عسـاف الذي يحمل المسرح الآن إلى القـرى كمـا في ريادات القرن التـاسع عـشـر، بل إن هذا القلق أو هذا

العبث سيظل ينتقل في الأجيال وقد أظلت الحرب، ومع الحرب تتهدم أعمدة المسرح فيخرج من بين أنقاضها عبقري شعبي مثل العظيم حسن علاء الدين (شوشو) وزياد الرحباني. وقد كان شوشو قريباً من البسطاء الأطفال يحاول أن يلامس الأمراض السياسية، أما زياد الرحباني فقد أمسك بجروح لبنان وعلقها على الصنارة، بحيث تنتهي المسرحية ولا تنتهي الجروح. وابتدع كل منهما شخصية تعيش في الذاكرة إلى الأبد، ولا تزال الضحكة ترن في كل صدى عندما يتذكر المرء ذلك البسطاوي الرائع، النادر، الذهبي، يرفع يده الناحلة في عرض المسرح ويصرخ بلهجة أزقّة بيروت: «يحنا (نحن) يمّا بنّا نكتب يا مطابع لحّقي».

❀❀❀

قبل المسرح، إذن، كان المسرحيون، كانت هناك الحركة المسرحية. كانت هناك رائحة المسرح. وقد كانت متواضعة، لكنها كانت في كل مكان: في القرى، وفي المدارس وفي المحاولات الصبيانية الصغيرة للوقوف على الخشبة، مثل يوسف بك وهبي صائحاً من تحت حاجبيه الكثيفين: «شرف البنت يا هانم زي عود الكبريت، ما يتولَّعشِ غير مرة واحدة!» وسوف يكرّر هذه الجملة، بعد سنين، شارل بواييه في رواية مارسيل بانيول الشهيرة «فاني» على رصيف الميناء في مرسيليا.

وأذكر أن لي من هذه الدنيا وقفة مسرحية أنا أيضاً. وكان ذلك طبعاً على مسرح المدرسة، وقد اخترت يومها لأداء الدور الثاني.. مثل رونالد ريغان، غير أن «البطل» كان ممثلاً رائعاً إلى درجة أنني كنت

أفقع الضحك فيضحك من العدوى بقية «الممثلين» ويضحك معنا الجمهور في حين أن المسرحية نواحة على وزن «دباحة» في أغنية العزيز فهد بلان.

وكان كل لبنان يستعير ثياب المسرح آنذاك من عند رجل واحد اسمه عيسى النحاس، الذي كانت لديه على ما يبدو كل ثياب القرون الغابرة من بلاطات فرنسا وبريطانيا وروايات شكسبير. لكن ابنته الفنانة أنطوانيت النحاس لم تكن في جدية المرحوم والدها عندما وقفت بدورها على المسرح، وبدلاً من صرخة شكسبير الشهيرة: أيها الأصدقاء يا أهل روما، وقفت على الخشبة لكي تغني:

«يا مون شير يا مون شير؟

Qu`est-ce que nous allons faire

بين التابئ والتابئ

انقطع فينا الأسانسير!».

أما «التابئ» فهو «الطابق» (أي الدور) وأما وقفة الأسانسور بين طابقين ففيها أحلى القبل كما كان يكرّر أستاذنا سعيد فريحة، الذي ساءه ذات مرة أن يهبط أسانسور الأغاني إلى درجة سمحت فيروز لنفسها بأن تغني «سمرا يا أم عيون وساع والتنورة النيلي، مطرح ضيّق ما بيساع راح حطك بعيني»!

obeikandl.com

وقد كتب جعبته تلك طبعاً قبل أن تغني المونولوجيست ولهلوبة المسارح أنطوانيت النحاس «بين التابئ والتابئ» أي بين طابقين. وعلى سيرة الطابقين، فقد ذهب أحد المسرحيين الناشئين مرة إلى ممول بيروتي، طالباً منه الإسهام في إنتاج عمل مسرحي، وسأله الثري ما اسم المسرحية؟ فقال كاتبنا إن عنوانها «حمار بطابقين»! فما كان من الثري الظريف إلا أن صرفه بقوله «روح... الله يعمر معك»!.

وكنت أنوي أن، أكمل هذه السلسلة؛ لكي أصل إلى «غودو». لكن غودو هو الغد الذي لا يأتي. ولذلك نمضي العمر في انتظاره. إننا نمضي حياتنا في الانتظار ولذا لا نعيشها بل نعيش عنها. وفي هذا المعنى فإن غودو هو كل ما يفصل الذات عن النفس، كل ما يفصل الإنسان عن الإنسان. إنه دائرة في الفراغ، والمسرحية تكرر نفسها إلى مالا نهاية. أو بالأحرى ثمة مخرج أيها السادة كما يقول سارتر.

ذلك أن فلاديمير وأسترغون ليسا أكيدين حتى من أنهما يمارسان الانتظار في المكان الصحيح وهما غير واثقين من: مَنْ غودو على وجه الضبط أو كيف هو شكله أو بماذا وعدهما حقاً؟

كنت أنوي أن أكمل هذه الذكريات عن مسرح كان ولم يكن. لكنها ذكريات لا نهاية لها.

openkandil.com

كيفك يا شخص؟

كان اليوناني كازانتزاكيس يقول إنني أعجب من هذه الآلة التي تأكل الفجل والسمك وتطلق الآهات والتنهيدات! وسوف تظل أحجية الإنسان الكبرى هي الإنسان، هذا الجنين الذي يتحول إلى رجل أو امرأة أو عبقري أو غبي أو إطفائي أو عضو في مجلس الشيوخ.

وكلما شرح لنا الفلاسفة والعلماء من نحن ازداد الأمر غموضاً.

فالحقيقة أننا بشر نحب الناي والتين المغلي والفيء في ظل الشمس لا في ظل الشتاء. لكن العلم يصر على أننا نتكون من مئة مليون خلية. خلايا عظام وخلايا دماء وخلايا جلد وكلها مرتبة ومنظمة؛ لكي تشكل أذرعة وسيقاناً وصلعة أين منها إعلانات «رينيو هير». وهذا المخلوق العجيب الذي فيه سرّ الكون الأعظم كل سره في عالم الأجنة. كل شيء فيه يتكون خلال سبعة أشهر. والعلي القدير يعرف أن هذا الجنين الذي في حجم السبابة سوف يكبر ذات يوم؛ لكي يصبح رجلاً، يترك العالم خلفه ويذهب إلى الغابة الإفريقية؛ لكي يساعد الناس على الشفاء من البرص والطاعون وذبابة «التسي التسي».

وهذا الجنين العجيب يصبح أكثر قوة منه حين لا يعود جنيناً. فإذا تعرض للصدمة لا يسقط بل ينفصل إلى جنين أو أكثر. أي توأمين أو ستة توائم. وكل قطعة من هذا الجنين تشفى وتتحول فيما بعد إلى

إنسان يبلغ سن الرشد ويذهب إلى الأوبرا ويقف في الصف عند محطة الباصات ويقف على خشبة المسرح ويصرخ مثل شوشو العظيم: «كيفك يا شخص؟».

إنه الشخص، لا رجل ولا امرأة بعد، لكنه لا يلبث أن يروح يتكون، خلية وراء خلية، مئة مليون مليون خلية، مثل اللوحة، مثل الشجرة، مثل نقطة مياه تسقط في المياه فتتسع وتكبر وتظل نقطة من المياه وسبحان الذي خلق، خلق الإنسان من علق.

يأكل الفجل ويرسل التنهدات. يأكل الضفادع ويكتب الشعر. يكون جنيناً ويصبح إنساناً، لاشيء آخر، وهاهو يعيش في الأنابيب، معلقاً في البرادات مثل أقراط الموز والسردين البرتغالي، لكن الله أعطاه هذه القوة العجيبة؛ ليظل صامداً حتى يخرج إلى الحياة، ويضيع في أسرارها ويردد مع إيليا أبو ماضي.

ويظل لا يدري كيف يصير الجنين رضيعاً والرضيع طفلاً والطفل شاباً والشاب زوجاً موظفاً عند شركة الكهرباء ومصلحة الغاز وبائع الفواكه وصاحب الكَراج وبائع الصحف في أي مكان وكل زمان. إن أعظم تحفة وضعت حتى الآن هي تحفة الخلق. وتحفة الخلق هي الإنسان وهو سرّ الكون. هذا المخلوق العجيب الذي يدعى غاندي في مكان ونابليون في مكان آخر وستالين، أو أحمد شوقي، أو مايكل أنجلو، أو كارم محمود.

obeikandi.com

يتكلم ألف لغة وكل مخلوق آخر من دون نطق. تغرد له العصافير وتنبت له الأزهار ويحلّي مياه المحيط ويتمشى في الفضاء كأنه في نزهة على الكورنيش. يجوع في أثيوبيا ويطعم فائض القمح للجرذان في الغرب الكندي. يعيش في العصر الحجري في أدغال البرازيل وأستراليا ويلعب أطفاله بالكمبيوتر في أحياء لندن ونيويورك. شر وخير ومافيا وجمعيات برّ وإحسان وإنسان.

وقد تعجب كازانتزاكيس حقاً من هذه الآلة التي تأكل الفجل والسمك وترسل الآهات والتنهدات. هذه المسيرة الرائعة التنظيم طوال سبعة أشهر، فإذا رأت النور قالت إنها ستؤلف حزباً اسمه الفوضى، وهكذا تصير هذه المئة مليون مليون خلية تظاهرة تكتب على جدران الشوارع وتقف في وجه خراطيم المياه وتتسلق جبال إيفرست؛ لكي تكتشف أن لا شيء فوقها ولا شيء عليها ولا شيء تحتها وتذهب إلى القطب المتجمد الشمالي على عربات تجرها الكلاب وتخترع التلفون الذي يربط الكرة الأرضية كما تربط باقة البقدونس على عربات سوق النورية.

عندما أقرأ في سيرة الرجال تختلط الدنيا عليّ، فالسؤال الوحيد الذي يظل من دون جواب، هو الإنسان. ولعل سره الأكبر في هذا السؤال الذي ولد معه. في هذه التناقضات الغريبة الهاربة من عالم الأجنة. حتى التوائم لا تلبث أن تختلف عندما ترى النور، عندما ترى الحياة. لكن متى تبدأ حياتها فعلاً؟ في أي شهر في أي يوم، في أي لحظة؟ ومتى يصبح هذا المخلوق العجيب، هو نفسه هذا الكائن

البسيط المعقد الباحث عن الأجرام الكبرى، الذي يلاحق عطارد والزُهرة والنجم المذنب بالمنظار، الذي يدفع الحشرات على المختبرات ويلقح الأشجار والنبات بغير جذوعها وفروعها، الذي منحه الله أن يعيش في عصر عاصي ومنصور وفيروز، الذي يعطي له أن يقرأ سعيد تقي الدين، الذي يعطي له أن يصافح الأيدي التي تواسي وتساعد وتعلم، الذي أُعطي صوت المياه وحناجر الرعيان ومشهد الربيع يتفتق في بساتين صيدا.

عجيبة هذه الآلة التي تأكل الفجل والسمك وترسل الآهات. عجيب هذا الجنين الذي من دون أن يدري يصبح امرأ القيس أو غاندي أو ستالين. هذه النقطة التي تصير مئة مليون مليون خلية تتوزع على السواعد والأيدي والأقدام. تتوزع بكل انتظام وكل دقة وكل عدل وكل توازن. إلا خلايا الشعر، تلك الملعونة التي تمارس علينا سوء التوزيع... وحسن التلميع!

الحي اللاتيني والخندق الغميق

مضت سنوات كثيرة الآن على رواية «الحي اللاتيني» وعلى الضجة الأدبية التي أثيرت حولها في ذلك الوقت. والواقع أنني لا أذكر تفاصيلها تماماً ولا يزال يُشكل عليّ الآن ماذا إذا كانت «الخندق الغميق» قصة أخرى من أعمال سهيل إدريس، أم أن أحد النقاد رأى في «الحي اللاتيني» مجرد انعكاس على الزجاج العاطفي بحي الخندق الغميق ولهجرة الدكتور إدريس إلى فرنسا والتجربة الإنسانية التي جعلته يعود منها بـ«الحي اللاتيني»، مؤلفه الشخصي الوحيد وسط مجلدات ضخمة من الأبحاث والترجمات وأعداد «الآداب».

لكن رواية «الحي اللاتيني» برغم تآكل الذاكرة، لا تغيب عن بالي كلما حملت في خزانة العقل والهوى ذلك العصر الذهبي في بيروت الشاعرة.

وقد استعدتها الآن بقوة عندما خطر لي أن أكتب قصة حقيقية حدثت معي في منتصف الستينيات. قصة فتاة عرفتها من بعيد وعشقتها من بعيد وكانت تحذرني من أن أقترب منها، فلم أذعن، فلما قاربتها ذات يوم تركت في قلبها خيبة أخرى وتركت في قلبي مأساة.

ولم أكتب هذا الفصل من قبل لشعوري بأنه سوف يبدو وكأنه تقليد للدكتور سهيل إدريس في «الحي اللاتيني»، أو ربما في مجموعة أخرى من مجموعاته القصصية القصيرة التي تدور في باريس أو في «الخندق الغميق».

obeikandl.com

يا إلهي كم اختلط عليّ الأمر وكم أصبحت بعيداً من قراءات ما قبل التاسعة عشرة. لكن لابد لي الآن من أن أروي قصة تلك المرأة التي مرّت في حياتي على كرسي ذي عجلات.

وإكراماً لـ«الحي اللاتيني» و«الخندق الغميق» لابد من التوقف قليلاً عندهما. لقد كانت «الحي اللاتيني» صورة رائعة للمعاناة ـ أو الفرح ـ اللذين مرّ بهما مهاجر من الشرق على باريس، وبالذات في «الحي اللاتيني» الذي كان في الأربعينيات والخمسينيات ميناء التيارات الفلسفية الوجودية ومربط الانحلال الفكري والبشري الذي عمّ أوروبا بعد الحرب.

وهاهو إدريس الشيخ الأزهري الشاب، يأتي إلى السوربون؛ لكي يستكمل علومه، فتتفتح أمامه على مصاريعها إغراءات المدينة الغانية، وهو العربي المعمّم. ولم تكن تلك «الصدمة الثقافية» صدمة سهيل إدريس وحده، بل كان هناك جيل كامل من المشرقيين قد بدأ يطل على باريس، معمماً من الداخل والخارج معاً، أو أنه يعيش هو في مكان وجسده في مكان آخر، أو أن يعيش الاثنان في حرب.

هذه الحرب، التي سوف يسمّيها الأميركيون فيما بعد «الصدمة الثقافية»، كلما اقتربوا من نهاية القرن، أي انتقال المرء دفعة واحدة من عصر إلى عصر، لم يكن رائدها سهيل إدريس، فهو لم يكن أول المحافظين الذين سافروا إلى باريس ولا آخرهم. فقد سبقه إليها طه حسين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى، كما سبقه قبل زمن طويل

مجموعة من اللبنانيين. لكن المجموعة المصرية اختارت الفلسفة، أما المجموعة اللبنانية، من أمثال شكري غانم، فقد اختارت السياسة والشعر، وترك الجميع للدكتور إدريس أن يروي معالم «الصدمة الثقافية» للمشرقي المعمّم الذي وجد نفسه ممزقاً بين محافظة «الخندق الغميق» والأغاني المتصاعدة من أقبية «الحي اللاتيني» في ذلك الزمان.

«الحي اللاتيني» لا يزال هنا. إنه على بعد أمتار من أي مكان. حي وحار ويعج بالذين هم دون العشرين. والسوربون هنا أيضاً. وساحتها. وتمثال أوغوست كونت على البوابة الحديدية الكبرى. ومكتبات الـ«سان ميشال» والجسور و«الروكوجاس».

كل شيء هنا. لكن الخندق الغميق قد زال وتحوّل إلى ركام ومتاريس في حرب الأسواق ومحاشش وأشباح في عتم الحرب.

لكن هذا ليس «الخندق الغميق». «الخندق الغميق» يا صديقي كان تلّة صغيرة تؤدي إلى المعرض، إلى نهاية المعرض، مروراً بالسور (عفواً، عالسور)، مروراً طبعاً بقناطر التياترو الكبير، حيث يبدو لي كأن فيلماً واحداً ظل يعرض في تلك الصالة البهية، بعدما فقدت مجدها على أيام أهلنا.. هو فيلم «رابعة العدوية»!

لكن في تلك المساحة الصغيرة من الحجار القديمة وأصوات السيارات وأتعاب الحمالين وبائعي الكعك والكازوز وسجائر الـ «لاكي ستريك» بالمفرّق (الثلاثة بربع والدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق

على الله) وتحت تلك القناطر الأثرية الرائعة، وفي المكاتب الخشبية الفقيرة العارية وخلف المكاتب المكسورة الزجاج وفوق الكتب المعروضة على الأرصفة، كأنما الرصيف رفّ من رفوف السوربون أو مكتبة الكونغرس...

في تلك المساحة الشحيحة الضيّقة من بيروت، كان الكثير من نور بيروت والكثير من نور لبنان. كان «الخندق الغميق» ينتج من الكتب أكثر مما ينتج الـ«فيفث أفنيو». وبفضل حسن الزين الذي هو نقيض كل الوجودية الملحدة، كان سارتر يُقرأ بالعربية في بيروت في موعد صدوره في باريس. كانت هناك دار العلم للملايين وكان هناك منير بعلبكي ودار طعمة ومكتبة لبنان وكل المكتبات المدرسية والقرطاسية وبيع أقلام الكوبياء وريشة الشهال والكتب العتيقة والمستعملة ودار الكتاب اللبناني ومكتبة (أنطوان) نوفل قبل أن تلحق بالمتبرجزين على الحمراء... وكان هناك مترجم أكثر غزارة من هنري سيمونوف، حتى من بلزاك، في ذروة إفلاسه المالي، هو عمر أبو النصر.

كان «الخندق الغميق» الذي هجره سهيل إدريس إلى «الحي اللاتيني»، ثم عاد إليه؛ لكي يصدر من هناك شهريته القيّمة «الآداب»، مصدراً كبيراً من مصادر «الإشعاع» الذي كان يفاخر به لبنان. وكان مثل نقطة مركزية يجمع أهل الأدب والفكر أو العاملين فيهما، ولم أنسَ مشهد ذلك الشيخ الدرزي الطيب الذي كان يمتلك مطبعة صغيرة في الطابق الثاني في أحد مباني المعرض الصغيرة العتيقة. وكان يعمل هو وولداه وقريب لي في إصدار الكتب، فلم تنفعهم

جديتهم الأصلية وعرق جباههم، ولا زاد في النفع طبعاً كسل قريبي العزيز، فهم كانوا يطبعون وهو كان يقرأ. وظل الأمر كذلك إلى أن عاد الشيخ الجليل إلى قريته وصار قريبي يقرأ في ضوء المصابيح في ساحة البرج. لكن هذه ليست حكايتي مع «الخندق الغميق» في أي حال، حكايتي مع ذلك المشلول في رواية سهيل إدريس.

❀❀❀

من «الحي اللاتيني» أو من مجموعة «الخندق الغميق» علقت في ذاكرتي أبداً قصة رجل وامرأة يلتقيان في مقهى. هي إلى طاولة وهو إلى طاولة أخرى. رأته في اليوم الأول وفي اليوم الثاني وفي اليوم الثالث. لكنه ظل جالساً بكل وسامته لا يلتفت إلى دعواتها الصامتة. وأخيراً سقط هو أيضاً، تحت حبها وجمالها، لكنه ظل جالساً كالعادة. وعندما لم يعد في إمكانه الاحتمال هبّ واقفاً ذات مرة واحدة. وسقطت الصاعقة من السقف على الاثنين. لقد كان شبيهاً بـ«تولوز لوتريك»!

اعتقدت أن مثل هذه القصص تحدث في الروايات فقط. لكنني بعد أعوام سوف أواجه شيئاً في صعوبة الواقع وسهولة الرواية.

كان بعد ظهر ذات أحد شتائي، وبيروت تمطر وحدة لذيذة وهدوءاً ممتعاً رَنَّ جرس الهاتف كأنه آت من بعيد، فقمت إليه. وجاءني صوت عذب وإنما قارس: هل أنت بمفردك؟

قلت: أجل، ولكن من أنتِ؟

قالت: لا يهمك من أنا، لقد قررت الاتصال بك فقط، بعدما قرأت لك قطعة أعجبتني. لكن يخيّل إليّ أنك نقلتها عن الإسبانية!

أجبت بأنني أجهل الإسبانية تماماً، وبالتالي لا يمكن لي أن أكون قد نقلت عنها.

قالت: هذا ليس مهماً أيضاً. لقد شعرت بشيء من الملل بعد هذا الظهر، ولم أجد من أتصل به، ففتشت عن هاتفك في الدليل، والآن بخاطرك!

واستمهلتها. كنت وحيداً أنا أيضا، وكنت أريد، أن أحادث أياً كان، وقد جاء هذا الصوت العذب وكأنه هبط من قوس قزح. لكنها أغلقت السماعة ومضت.

أمضيت أسبوعاً كاملاً أبحث عن طريقة لأتصل بها، لكنني لم أكن أعرف عنها شيئاً. لا اسمها. لا عنوانها. لا شيء على الإطلاق. وبعد ظهر الأحد التالي انتظرت في البيت، وكلما رنّ جرس الهاتف قمت إليه، لكن صوتها لم يأت. مضى أسبوع آخر. وأعددت لبعد ظهر الأحد عدة البقاء في المنزل. ونحو السادسة اتصلت من جديد. وقالت لي بعذوبتها الحادة: اعترف بأنك تنتظر مكالمة مني. واعترف أيضاً بأنك انتظرت يوم الأحد الماضي.

اعترفت بكل استسلام.

وصرت أنتظر، بعد ظهر كل أحد، صاحبة الصوت العذب. وكنت في كل مرة أتوسلها أن تعطيني اسمها، أو أن تسمح لي برؤيتها، تهددني بأنها ستقطع العلاقة الهاتفية إن أنا مضيت في الإصرار فإما هذه السحابة الروحية كل أسبوع وإما لا شيء.

obeikandi.com

كانت ذكية وماهرة وعذبة إلى درجة أنني فضلت هذه العلاقة العبثية على اللاشيء. وشيئاً فشيئاً أخذت أكتشف أنها تجيد الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية. وأبلغتني أنها تعلمت هذه اللغات في أمهادها وهي بعد صغيرة، حيث تنقل والدها دبلوماسيا. وكانت أحياناً تقرأ لي ما كتبت من الشعر، ونروح نغرق في حديث الشعر والتأمل، ولا تنتهي المكالمة إلا عندما تتعب سماعات الهاتف وخطوط التلفون في المساء.

وغابت ذات مرة أسبوعين، فغاب معها الفرح. وشعر كل من حولي أنني في أزمة غير عادية. لكنها ما لبثت أن اتصلت بي بعد أسبوع قائلة إنها كانت تمضي إجازة تزلج فوق الثلج.

ثم غابت مرة أخرى، وقالت لي إنها ذهبت إلى مصر للمشاركة في مباراة للسباحة في الإسكندرية.

ومر أكثر من عام. وكنت أعرف أنني إذا عرفتها فسوف أفقدها.

ولذلك كنت أكتفي من تلك العلاقة بالحوار الهاتفي. وكانت هي تمعن في تعذيبي فتقول لي مثلاً: لقد شاهدتك منذ يومين، وكنت ترتدي طقماً رمادياً.

وأحاول أن أتذكر من هنّ الفتيات اللواتي رأيتهن ذلك النهار؟ من هي؟ يا إلهي من؟ هل هي الشقراء الطويلة التي كانت على الرصيف الآخر؟ هل كانت المرأة التي مرت في سيارة مسرعة؟ هل كانت الفتاة على الشرفة؟

obeikandi.com

ثم يعود صوتها فيأتيني بعد ظهر الأحد: لا تحاول! قلت لك ألا تحاول، ثم ندخل في حديث ممتع فإذا بسيدة الهاتف هذه تتدفق علماً وثقافة وعذوبة... وذكريات عن ثلوج سويسرا وغابات كاليفورنيا ومرابع الطفولة في مدريد.

وذات يوم قررت أن أسافر. وترددت في قبول العمل الذي عرض عليّ؛ لكي لا أخسر هاتف بعد ظهر الأحد. ولكن في النهاية كان لابد أن أحسم أمري ورجوتها أن تسمح لي أن أراها مرة واحدة قبل سفري.

وقالت لي: «لا، إنها حيلة كي تراني». فأقسمت بكل يمين. وأخيراً لانت بعض الشيء. وقلت لها: حسناً، أين نلتقي؟

قالت: نلتقي على رصيف «الهورس شو»!

قلت: حسناً، لكن كيف لي أن أعرفك؟

فقالت: أنا أعرفك، وأنت ستعرفني فور أن تراني.

قلت : كيف؟ قالت: سأكون مع رفيقة لي وستكون رفيقتي واقفة وأنا جالسة.

كان مساء بارداً من أمسيات بيروت. وقد جلست على شرفة «الهورس شو» أترقب، وكأنني أشاهد امرأة للمرة الأولى في حياتي. ثم وصلت فتاتان جميلتان، كانت الأولى واقفة والثانية... تجلس على كرسي ذي عجلات!

نهضت وقبلت يدها. وقالت لي بصوتها العذب: ألم أقل لك لا ضرورة لهذا اللقاء؟

وسافرت، تاركاً بعد ظهر الأحد في العذوبة والحزن والمستحيل، وحكايات تلك المقعدة الحالمة عن التزلج في سويسرا والسباحة في الإسكندرية والدراسة في إسبانيا.

وخيّل إليّ وأنا أودعها أنني قرأت شيئاً من هذا الحزن في «الحي اللاتيني» أو في «الخندق الغميق». لم أعد أذكر تماماً.

obeikandl.com

obeikandl.com

رصيف طويل

كلما عبرت المسافة بين البيت والمكتب كل صباح أشعر وأنا أقطع الأرصفة كأنني أقطع عوالم مختلفة ومدارات متناقضة: عالماً ضاحكاً وآخر باكياً وعالماً كسولاً وعالماً من الغش وعالماً من كل عالم. ويكاد يخطر لك أحياناً أن للأرصفة دولتها وأعرافها وآدابها... وطبعاً قلة هذه الآداب أيضاً.

إنه عالم يختلف عن العالم القائم على بعد متر واحد منه: الطريق وأهلها يسرعون والرصيف وأهله يصارعون وخلف الرصيف عالم هادئ متقنع بالقناعة.

فالرجل الذي يبيع العطور على الرصيف لا علاقة له أبداً بذلك الذي يبيع العطور في الدكان: هذا يصرخ ويرفع صوته ويناشد المارة الالتفات إليه ويلتف على نفسه منقطع النفس، ثم حول الصندوق الذي أمامه، ثم يرفع زجاجة العطر للجمهور ويروح يعطيها الشهادات العليا وشهادات الأصول والمنشأ الفرنسي (طبعاً) ثم يصرخ ثم يصرخ، بينما على بعد متر واحد منه فقط تباع العطور بصمت وهدوء! وهذا الذي يبيع الكتب على الرصيف ويبدو كأنه ولد بحنجرة مبحوحة ورئتين واسعتين ويدين تقلبان الكتب في الهواء مثل بهلوان، أما بائع الكتب في المكتبة المقابلة فيكاد لا يرد لك السؤال أو حتى التحية لكثرة ما هو منشغل بأمر ذاته.

obeikandl.com

وهذا أيضاً عجوز منعته نفسه من الاستعطاء، فأخذ يرقص بساقيه الواهنتين؛ طلباً لقطعة من النقد مهما بلغ وزنها. وبعده بقليل رجل يبيع العصير ثم آخر يبيع الساندويشات وثالث يبيع البوظة ورابع يبيع الصبار خالياً من القشر والشوك! وخلف هؤلاء جميعاً تمتد الدكاكين والمخازن بكل هدوء ومن دون صوت أو صراع. ناعسة معظم الأحيان كأنها بلغت أواخر العشايا بينما كل لحظة لدى أهل الرصيف فُجر وصياح.

إنه الفرق بين عالمي اليردة الواحدة. بين عالم الأرصفة الراكض إلى القمة بصوت عالٍ، الخائف على مكانه الصغير فوق الرصيف، الخائف من المنافسة، الخائف من رجال الشرطة، الخائف من رجال الخوة... وبين ذلك العالم المنتظم على بعد متر واحد.

ويخطر لك أحياناً أن في إمكانك أن تعرف هوية بلد ما من أرصفة مدنه. ففي «واجهات» الأرصفة ترى غالباً ما هي الأشياء الشائعة أكثر من غيرها. ومن فوضى الأرصفة أو نظامها تعرف مسلك رجال الشرطة في كل بلد. وإذا أوقفك شحاذ رث المظهر في لندن يسألك عادة: «هل لديك ثمن فنجان من الشاي؟» أما «الكلوشار» الباريسي فيسألك عن ثمن قطعة من الجبنة. وفي نيويورك لا يجد نفسه مرغماً على أن يشرح لك لماذا يريد «الربع» الذي يطلبه وهو يربت كتفك بطريقة لا تترك لك مجالاً للتردد. وفي بيروت كان العرافون يحتلون الأرصفة ويبدأون «بقراءة كفك» قبل أن تفتحه. ولعل أكبر عالم أرصفة في الكون هو في كالكوتا «مدينة الفرح» كما سمتها إحدى الروايات

الحديثة، حيث ينام ملايين البشر على الأرصفة، وفوقها أيضاً يأكلون ويعيشون ويستحمون و... يولدون ويتفرجون على الحياة وهي تمر بهم يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة. ولأن لكل شيء «مافيا» في العالم، تفرض على النائمين فوق البلاط خوة معينة من لا يدفعها يحرم متعة النوم على «ضفاف» الأرصفة.

وبينما تمر أنت مسرعاً بعالم الأرصفة، فإن أهله «يدرسونك» جيداً. وهم يعرفون تماماً على من يعرضون وماذا يعرضون. وعندما يصبح وجهك أليفاً لديهم يعرضون عنك بكل بساطة؛ لكي يجربوا حظهم مع الزبائن الجدد. ولقد قرأت أو سمعت مئات المرات عن المحتالين الذين يدعون المارة إلى «لعبة الثلاث ورقات» ورأيت رجال الشرطة غير مرة يهاجمون أصحابها ورأيت أصحابها عشرات المرات يهربون عندما يشعرون بوجود «العسكري». ومع ذلك فإن المشهد يتكرر كل يوم والاحتيال يتكرر كل يوم وكل يوم أضحك وأنا أرى مجموعة من السذج وقد تحلقت حول أحد المحتالين طمعاً بالثروة.

لكن عالم الأرصفة ليس كله «مافيا» ومحتالين، ونحن لا نعرف عدد الموسيقيين الناجحين الذين بدأوا حياتهم على الأرصفة أو عدد الموسيقيين الكبار الذين انتهوا يعزفون للمارة في زوايا الشوارع بدلاً من العزف للجماهير الغفيرة في صالات الأوبرا. إنها، أحياناً، وسيلة للعيش الشريف والنظيف. وإنني لن أنسى في حياتي ذات ليلة ماطرة على رصيف الـ«سان جرمان» في باريس، عندما اقترب مني شاب يرتدي معطفاً كحلياً فضفاضاً مثل فرسان القرن السابع عشر وأوقفني سائلاً:

هل تشتري يا سيدي هذه القصيدة؟

و«اشتريت» القصيدة وأعطيت الشاعر الصغير أكثر مما أبقيت لنفسي. وكلما قرأت القصيدة الآن أقول إنه لاشك قد أقلع عن كتابة الشعر ووجد لنفسه وظيفة ما في كلية الآداب... وإلا لكنا اليوم نقرأه على أنه واحد من أكبر شعراء فرنسا.

obeikandl.com

حمارة سعيدة

ضاع وقع أقدام الحمار بين صوت الحصى والحجارة الصغيرة. لكن القمر كان مضيئاً، بحيث ينير الطريق الضيقة إلى الوادي. وأحياناً كان يغيب وراء شجرة صنوبر أو خلف صخرة، لكنه لا يلبث أن يظهر من جديد. كان مصباحاً مجانياً متنقلاً. وكان الحمار سعيداً برفيق الدرب، مع أنه كان يتذمر قليلاً من حمله.

غير أنه لم يقل شيئاً بالتأكيد. لقد كان سعيداً برفقة القمر. ولم يكن واثقاً في أي حال مما يمكن أن يقول، فهو لم يكن يعرف تماماً الرجل الذي يتكاسل فوق ظهره: هل هو حمار مثله؟ هل هو ذكي؟ هل هو نجس؟ فالحقيقة أنه لم يمض وقت طويل على هذا اللقاء بين الاثنين. ولو كان للحمار رأي في المسألة، أي لو كان بشرياً مثل راكبه، لكان سمّى الأمر «عقداً اجتماعياً» مثل روسو لكنه حمار تعلق له الأجراس في عنقه؛ لكي لا يغفو في الطريق إذا غلبت عليه بلادته الشديدة، وإن حفنة مجانية من ضوء القمر تبعث فيه السعادة، وشيئاً من التبن أيضاً.

كان يفكر أفكاراً كثيرة ويهز رأسه الكبير أحياناً، موافقاً على ما قال لنفسه أما صاحبه فلكي يطرد النعاس راح يغني أبياتاً من العتابا والميجانا. وكان أيضاً يقرض الشعر ويلقي خطباً في الخليقة ويطرد

obeikandl.com

النعاس، ثم ينتبه أحياناً إلى جرس الحمار الذي أصبح جزءاً من سماعه فيرفع صوته في الهواء ويمسك بعصاه الصغيرة ويلكز فيها بطن الدابة بين الجد والمداعبة أما القمر فكان يضحك من مشهد الاثنين معاً ويتسلى بالقفز بين الشجر وفوق الأغصان. وكان الكركدن ينام ملء جفونه مثل المتنبي لكثرة ما قفز في بحر النهار وكذلك الصرار والوروار بينما ظلت الضفادع تتذمر؛ لأن ثيابها تلطخت بالوحل والمياه وملقيةً في الليل أبياتاً من الشعر المتقطع.

ولم يكن الحمار يعرف إلى أين ستكون الرحلة تلك الليلة. إنه لا يسأل عادة ولا يستخدم أذنيه كبوصلة. إنهما فقط لطرد الذباب. وقد تساءل: هل لصاحبه عشيقة حيث يقصدان أم أن هناك مطحنة وسوف يعود من الوادي محملاً بأكياس الطحين. تذكر أنه يحب خرير المياه، لكنه يكره جرش الحجارة. وهو يحب أشياء كثيرة أخرى. وعندما يغفل عنه صاحبه يروح يقضم ورق الريحان ويتشمم أعناق البيلسان. وأحياناً يتمرغ في الأرض وينهق ثم ينهض ضاحكاً ويثاقل ليله ونهاره على أربع قوائم. ويحاول أحياناً أن يتوقف أمام أطفال القرية، لأنه يطرب لهم وهم يقلدونه لكن صاحبه ينهره أن امشِ فيمشي. لكنه لا يلبث أن يعود إلى فرحه لأنه إنما حكم عليه بالحقول والأودية ورفقة القمر. وكتب كثيرة تكتب عنه. ويعتقد الكتّاب أنهم فهموه حق الفهم لكنهم، مع المعذرة، مغفّلون، فمن يفهم الحمار غير الحمار؟!

وكان صاحبه يفكر أفكاراً كثيرة ولم يكن يحس بأشعة القمر. وكان يرفع طربوشه ويمسح العرق البارد عن شعره. لقد امتلأ رأسه بالأفكار المعذبة وهو على وشك السعي إلى الزواج في قرية الوادي. وراح يبدد الأفكار مجدداً بشيء من العتابا فيطرب الحمار من دون أن يعلن ذلك. الحمير لا رأي لها، حتى حين تشعر بشيء من السعادة. لكنه لا يلبث أن يتضايق عندما ينتقل صاحبه إلى الخطابة كأنما هذه الأشجار والأجبّة جمهور له، أو كأنه في صالة فارغة يجرب كلمة مُعَّدة. وتقطع على الاثنين ـ الحمار وصاحبه ـ أفكارهما أنهما مرّا وسط أشجار متلاصقة فيبدو المضيق كأنه ممر هوشي منه، هكذا تبدو الأشياء للحمير، هكذا تفقد، في سكرة القمر والبيلسان، المقدرة على تبين أحجام الأشياء.

وما إن يخرجا من نفق الشوك الصغير حتى يعود كل منهما إلى أفكاره. ويقسو الرجل على نفسه ويضغط أحلامه الصغيرة بيديه ويروح يَعدُّ الخوابي الفارغة والمليئة في قبوه ويزرر قميصه ويتأكد من أن سرواله حريري مطرز الجيبين خليق بعريس مثله، أما الحمار فيهز برأسه الكبير. هكذا يفعل دائماً عندما يمشي. هكذا على الأقل يكتب عنه خايمي دو أنغولو الشاعر الذي أحب الهنود الحمر والحمير والأنهار. وثمة شعراء كثيرون كتبوا فيه قصائد كثيرة، لكنه حمار لا يقرأ. إنه يحمل أكياس القمح ويعود بها أكياس طحين ويحمل العازبين ويعود بهم متزوجين.

ويحمل أيضاً أفكاراً عذبة عن السيدة الحمارة، فكلما أطل القمر بمصابيحه من خلف الأشجار وغنى صاحبه بيتاً من العتابا، تذكر حمارة العين وكيف أنها حين لمحها محملة بالجرار خفضت رأسها إلى الأرض وصارت حمارة سعيدة.

obeikandl.com

حليب وشوكولاتة وموتارد

وصلت إلى «قصر المؤتمرات» في جنيف متأخراً قليلاً ذاك الصباح. وكنت أحمل في عروة سترتي بطاقة قانونية واضحة مثل جراميز الكشافة، كما أنني كنت أرتجف من الصقيع مثل أي مواطن سويسري صالح غير أن رجال الحرس شهروا في وجهي أوامرهم الحازمة: ممنوع الدخول.

كان ميخائيل غورباتشيف في الداخل والذين تخلفوا عن الحضور قبل وصوله أبقوا خارجاً؛ لأن العالم حريص على سلامة هذا الرجل الذي يقبض بدوره على نصف سلامة العالم. وأخذت بفضول أتأمل السيارات السوفياتية السوداء وكأنها عربات خيل مطهّمة، ورجال الأمن الروس بقبعاتهم الخروتشوفية المستديرة وهم ينفخون في البرد ويتظاهرون بأن الأمر لا يعنيهم. وكان هناك جنود سويسريون يرفعون بنادقهم باتجاه الشرفات القريبة.

وقفنا قبالة «قصر المؤتمرات» ننتظر على الرصيف. كنا نحو عشرين أو ثلاثين من أصحاب المعاطف غير العسكرية وغير الجلدية. وبعد ربع ساعة تقريباً خرج غورباتشيف. ورفع يده محيياً لبضع لحظات ثم دخل سيارته السوداء الطويلة ومشى الموكب. وتفرقنا، نحن، المتفرجين.

obeikandl.com

ونظرت خلفي، فإذا رجل وامرأته ينصرفان أيضاً. وتساءلت في نفسي: أين رأيت هذا الرجل من قبل؟ ثم تقدم منه ضابط أمن وصافحه وربت كتفه. وعادت إليّ ذاكرتي: أليس هذا رئيس الاتحاد السويسري كورت فورغلر الذي نراه كل لحظة على التلفزيون هذه الأيّام؟

الجواب: بلى.

وهذه الظاهرة الدولية التي اسمها سويسرا قد لا تكون بين الدول الخلاّقة، لكنها حتماً بين الدول الأكثر رقياً. أما الفرق بين الراقي والخلاّق فهو الفرق بين الحليب والشوكولاتة. الحليب يصنع منه ألف نوع من الجبنة. أما الشوكولا فيصنع منها أرقى نوع من الحلوى ـ فقط.

والشعب السويسري شعب راقٍ، في منتهى المظاهر الخلقية، مهذب، أنيق، مكتفٍ، لكنه لا يرشح أدباء لجائزة نوبل ولا يرسل مفكرين إلى جامعات العالم ولا مشرعين قانونيين ولا أدباء. فقط، ربما، بعض الرسامين الذين تشدهم الطبيعة من يدهم وتدفع بهم رغماً عنهم إلى الفرشاة واللون وسطح البحيرة.

سويسرا ليست في قلب أي شيء. إنها تقف في الخارج متفرجة على الأشياء، لذلك فالملحق الأدبي كل سبت في «الجورنال دي جنيف»، وهي صحيفة أحرص على الاشتراك فيها منذ أعوام طويلة، مليء بالشعر والكتب الآتية من فرنسا أو من بلجيكا. لا يهم، بعض التلفزيون أيضاً فرنسي. سويسرا تصنع الساعات والمال وتترك للآخرين صناعة الأفكار. وكما تصنع الساعات بكل دقة تصنع شعباً

ينصب في هذه البحيرة ويذوب فيها كما تذوب هذه الحقول الصفراء في زجاجات الموتارد. وهذا الشعب أصوله ليست ألمانية وفرنسية وإيطالية فقط كما يخيل إليك، أو إليّ، بل أصبح على مر السنين خليطاً من اللاجئين السياسيين الذين تركوا بلدانهم لسبب ما أو لشعار ما، فاستقبلتهم سويسرا بعد تدقيق شديد في الهويات و... وضعتهم في خدمة العلم الاتحادي! وهناك الآن لائحة بـ22 ألف شخص ينتظرون من الشرطة الاتحادية أن تبت أمرهم. وكل لاجئ تقبله سويسرا ويفتح له سمسم تدفع له الدولة ما يعادل 1800 دولار في الشهر، أي ثمن مجلد كامل من الأغاني عن الحرية والحريات.

لذلك فإن الأكثرية على اللائحة هي من أصدقائنا أهل سريلانكا، لكن من السهل أيضاً استعباط السويسريين. فهذا الشعب استطاع أن يستضيف أخطر قمة في العالم من دون أن يتعرقل السير في هذه المدينة الصغيرة. وكان السور الأمني حول ريغان وغورباتشيف خليقاً باثنين في هذا الحجم، ومع ذلك ظلت الناس تدخل إلى مطار جنيف وتخرج منه وكأنها داخلة إلى معرض أزهار التوليب في مونترو أو خارجة منه. وظلّت جنيف تتصرف وكأن القمة شأن خارجي صادف وجوده في الداخل. لا أعلام. لا لافتات. والصحف ظلّت تتظاهر بأن الأمر لا يعنيها شعرة واحدة أكثر مما يعني غيرها. وهذه، على ما يبدو، ليست أوامر صديقنا المسيو فورغلر الذي كان جارياً على الرصيف برغم كونه مضيف القمة الرسمي، بل هكذا تصرف السويسريون أيضاً قبل 30 عاماً تجاه أيزنهاور كما تروي «الإيكونوميست».

وإنك لا تعرف ما إذا كانت الساعة هي التي تدير سويسرا أم أن سويسرا هي التي تدير الساعة، ولعل هذا البلد الوحيد في العالم الذي يرفض سائق التاكسي أن يخالف فيه تحت أي إغراء. ويفضّل السائق الإسباني الذي كان يخالف كل قوانين الأرض في بلاده أن يرمي العدّاد من النافذة على أن يقف في مكان ممنوع وإن لحظة واحدة. هذا هو الرقي، التمدن، ومعرفة آداب المائدة و«إتكيت» الحياة. هذه هي الشوكولاتة. أما الأعمال الخلاقة، فإن سويسرا لا تتعب قلبها بها. هل سمعت مرّة بمطرب سويسري؟ بممثل سويسري؟ بمصمم سويسري؟ لكنك أيضاً لن تسمع بشحاذ سويسري أو فقير سويسري أو سويسري عاطل عن العمل. تك تك تك مثل الساعة دوماً أبداً. كانوا يعلموننا ونحن أطفال. وكانوا يقصدون طبعاً سويسرا هذه البلاد التي لا تحارب أحداً، ومع ذلك تفرض الخدمة الإلزامية على كل مواطن وتمنح الهدوء واللجوء لطالبيه من الضعفاء كما تمنح الأمان للرجلين اللذين يمسكان بصمام الأمان في هذا الكون.

هذه طبعاً سويسرا الغرب، أما ما قيل ذات يوم عن سويسرا الشرق... فمرحبا خال!

obeikandi.com

الشرق

قال لي: إنني في شوق إلى الشرق!

قلت: ماذا تعني بالشرق؟

قال: إننا في أعماقنا نفتقد الشرق، ولكننا لا نعرف ماذا نفتقد، ونحاول أن ننقل الشرق إلى هنا فنكتشف أن كل شيء قد تغير، فيخيل إلينا أننا نحن الذين تغيرنا. لكن الحقيقة أننا لم نتغير. الحقيقة أنه من المستحيل نقل الشرق إلى أي مكان.

قلت: ماذا تقصد بالشرق؟

قال: مثلاً صوت أم كلثوم من نافذة قريبة، ورائحة الشواء من نافذة مقابلة.

قلت: وماذا بعد؟

قال: عندما نجلس طويلاً في الفيء ونحن نتأمل... الشمس!

قلت: أهذا هو الشرق؟

قال: ليس هذا فحسب. بل الشرق شيء في داخلنا. متعة لم نعرف أننا سنفتقدها، ولذا لم نطلق عليها اسماً. الشرق متعة الكسل في المقاهي، حيث تطل أوقع الأفكار.

obeikandl.com

قلت: لكن الغرب مليء بالمقاهي.

قال: مقاهي الغرب ثرثرة ولا رائحة لها.

قلت: أهذا هو الشرق؟ مقاهٍ وكسل؟

قال: لا. لقاء وتأمل وساحات تتدافع فيها الناس إلى اللاشيء، وأزقة مرصوفة بالتاريخ والذكريات وشرفات تطل على البحر، فتسمعه في الليل يتقدم ويتراجع في رتابة، كأنما هو يكتب الشعر، فلا يخطئ في صدر ولا في عجز ولا في قافية.

والشرق أصوات تتطاير في سماء الأسواق العتيقة من دون أن تقول شيئاً.

والشرق: مررت بديار ليلى.

وفي الشرق يعلق الفقراء فوق دكاكينهم آيات تطرد الحسد.

وفي الشرق طقوس لكل شيء... حتى للحمّامات.

وفيه ياسمينة أطلّت من خلف الجدار على عنقك ذات مساء فتمسحت بك فملأتك لذة لا تؤخذ ولا تعطى ولا توصف.

وفيه غرباء يلقون عليك تحية المساء، تحية الصباح. أما في الظهيرة فطابت قيلولة الجميع.

وفيه هتاف من قارعة إلى قارعة.

وفي الشرق تطل أم كلثوم من الشرفات، كما تطل العيون من العيون.

وفي الشرق، للأرصفة طعم الحكايات.

obeikandl.com

وفيه بخور وعطر ونرد.

وفيه تباع الكتب على النواصي.

وفيه تباع الأفراح الصغيرة بأكياس الورق، على مفارق الطرقات.

وفيه الدنيا ملاعب، والحارات أمم.

وفيه الطرقات لها أبنية، والشوارع لها كنية، والأنهر لها كنية. والناس بلا أسماء.

وفي الشرق تفرح الناس للناس، والقرب قربة، والبعد حنين.

وفيه رجال شرطة أتخمتهم رشاوى سوق الخضر.

وفيه تشرع الأبواب والنوافذ وتترك المفاتيح خارجاً للذين يعودون متأخرين.

وفيه عمّتي التي نحن فرحها وهي حناننا.

وفي الشرق الخير زكاة والبركة عطاء.

وفيه عيني يا موليّا.

وفيه الربابة والعتابا وطرابيش لها شرّابات تزهو على الرؤوس.

وفيه نوق ورعاة.

وفيه مرافئ

يهاجر منها أهل الشرق

لكي يذوبوا حنيناً إلى الشرق.

obeikandi.com

obeikandl.com

أتذكَّر..!

حين أمد يدي في الليل؛ لأشعل مصباح الوسادة أشعر بالتأفف، لكنني لا ألبث أن أتذكر أن جدي أمضى العمر هانئاً في ضوء القنديل والسراج ونجمة الصبح. وحين أحلم بسيارة أوتوماتيكية أتذكر أن جدي كان يفيق مع الفجر فيغتسل ويشبك يديه خلف ظهره ومثل قصيدة الأخطل الصغير يجوب الربى ويقطع السهولا! وكلما تضايقت من نوع الطائرة التي تعبر بي المحيط تذكرت أن جدي «أقلّته» عبر المحيط باخرة صدئة مصهورة بالملح والرياح، وأنه حين سافر للمرة الأولى كان مثل «دون كيشوت» غير قادر على التمييز بين فيلق من الجيش وقطيع من الغنم. وحين ألعن كرسي المائدة إذا اهتزت بي أتذكر أن جدي كان يبسط أمامه شيئاً من لبن الماعز وصرّة صغيرة من الزيتون ورغيفاً رقّ بالصاج، ثم يتربع على الحصيرة، في صدر الدار وقد اتكأ إلى مسند من القش فيبسمل حين يشرع ويحمدل حين يشبع ويقوم بعدها إلى الحياة مشعاً بالرضى. وعندما أتجنب الانتظار في طوابير الباصات والقطارات وأمام شبابيك السينما أتذكر أن جدي كان ينتظر، من أسبوع إلى أسبوع، دوره، في ريّ الحقل من المياه المشاعة في صهاريج القرية.

لقد ولدت في العصر الحجري وذهبت إلى مدرسة صغيرة في ساحة صغيرة، تضاء بالكاز في أيام الشتاء وتتدفأ بالحطب وكروز الصنوبر اليابسة. ولم تأتنا الكهرباء إلا وقد بلغت السابعة عشرة من

العمر. أما المياه فوصلت بيوتنا قبل ذلك بقليل، فكنّا إذا أظلمت الدنيا عدنا إلى منازلنا مثل الأعشى الكبير! ولولا مذياع عتيق كنا نتحلق حوله، كما حول عَجِب، لما اختلفت تلك السنون الندية عن العصر الحجري كثيراً. لكن ها نحن على عتبة القرن الحادي والعشرين، فما عاد يدهشنا سفر السندباد ولا عدنا نقرأ على أطفالنا حكاية الزير.

ولست أدري إلى أي عصر أنتمي حقاً. إن لزمنا طويلاً بين جدي الذي كان يشتري لنا أكياساً من البلور الملون، وابني الذي طلب في عامه الرابع دمية آلية أين منها حكايات الشاطر حسن. نصفنا هناك، في الأمس والشعر والحلم ونصفنا هنا، نطير نيويورك إلى واشنطن إلى لندن والدنيا حولك أضواء بلا نور وشوارع مشرعة بلا نسيم وفي الحقول أشجار بليدة متناسقة مطرزة عريضة الأوراق لا يتساقط منها الجوز مجاناً ولا يتدلى تفاحها على الطريق لكي يقطف من راقت له تلك الحمرة المعلقة «موشحة» مثل تراجيع الأندلس.

أبحث عن قبعة ترد عني بعض الشتاء، فأرى أمامي معلقات منها ولا تعجبني واحدة، فأتذكر أن جدي كان يكوي الظهيرة بقبعة من الفلين ويحتفظ بطربوشه الأحمر نظيفاً في أعلى مرتبة من مراتب الخزانة من أجل الأعياد والمناسبات. أتضايق من النهوض إلى التلفزيون لأغير قناته فأتذكر أن جدي كان يذهب إلى السينما مرتين في العام ويبتهج بقية السنة بما رأى. وأحاول عبثاً أن أخفف من سمنتي فأتذكر أن جدي عاش الحربين بكفاية واحدة وهناء واحد. وتضعف نفسي أمام الواجهات الزجاجية فأتذكر أن جدي كان يمرّ بها فلا تحار نفسه بين الضعف والقوة، فإنه كان نعمة من الاكتفاء.

لكن إلى أي عصر أنتمي حقاً وما الذي تغيّر في الدنيا وما الذي تغيّر بي:

لا يـــرجـــع المـــاضـــي ولا

يبـــقى من الماضينَ غـــابر

أيقـنـتُ أنـي، لامَـــــحَـــــا

لة حـيث صـار القـوم، صـائر

ربما هي سنّة الكون. وقد قال لنا الإمام العظيم قبل أربعة عشر قرناً إن أولادكم ولدوا لزمان غير زمانكم! فهكذا يصير عصر كامل بين الجد والحفيد، بين الأب والابن، بل أحياناً بين النفس وذاتها، فلا يعقل إلا أن تقوم هوة نفسية بيننا وبين أنفسنا حين نقطع خلال أربعة عقود تلك المسيرة الشخصية بين السواقي الشاعرة في الجنوب وطعام الغداء في «الأمباير ستايت». وكان والدي يمازحني شاباً أنني أغفو والراديو إلى جانبي لكن هذا حفيده، طفلاً، تعطيه المضيفة رسوماً مربعة يركب منها صورة الطائرة التي نحن عليها فيكتشف أننا على طائرة ذات محركين لا أربعة! وأتذكر حكايات بساط الريح وكم كانت دهشتي عظيمة يوم ركبت في أوائل الستينيات طائرة ذات مراوح ويا شراعاً وراء دجلة يجري!

إننا لا نليق تماماً بالعصر. لا نليق بهذه المدن الطاحنة. نحن ورق مقوى رمينا في حقل من الفولاذ. فلاّحون وأطفالنا يلهون بالكمبيوتر، ورومانسيون من العصر الحجري نطاحش نهايات القرن في شوارع

نيويورك، فنفاجأ لا بالحديد والنكل والتتك بل بقواعد الحياة وأعراف النهار ونظم الخُلق. وكم أشعر أنني متمسك بسترة جدّي كما كنت أفعل حين كان يدعوني أحياناً إلى "الغداء" في باب إدريس. يومها كنت أحتمي بسترته من المدينة، من الازدحام، من الجديد، من الترام المدهش، من أصوات الباعة، وكم تبدو باب إدريس هادئة وجميلة اليوم وكم أشعر بحنين إلى سائقي السرفيس على درج الكابيتول، حين يرميني سائق التاكسي الأصفر على رصيف الـ«فيفث أفينيو» وكأنني صندوق من الكولا. ثانكيو سير!

obeikandl.com

تصوَّر!

قلت لصديقي: تصوّر، فقط تصوّر، صحافياً صعلوكاً من الشرق. لا ينتبه إليه أحد ولا يعرفه أحد، ثم فجأة، هكذا فجأة، يقرع ساعي البريد باب غرفته الصغيرة ويسلّمه دعوة إلى العشاء.

وأي عشاء! يذهب صاحبنا إلى العشاء، «عند مكسيم» طبعاً، يذهب إلى هناك بأفضل ما لديه من ثياب، لكن أفضل ما لديه لا يليق بمكسيم بالتأكيد. يدخل متردداً، ترتفع فوقه أنظار النوادل مثل القناطر، لكنه يتقدم في أي حال، ثم يصافح المدعوين وينخرط بينهم متلعثماً، وفجأة يحل صمت هائل على المطعم العتيق وتصمت الموسيقى، وتدخل صوفيا لورين تسبقها ابتسامتها وشفتها السفلى، ثم تنظر في الجموع وهي تصافحهم، وإذ تصل إلى صاحبنا فتتوقف عنده وتصرخ بأعلى صوتها: أنت؟ مستحيل!

ورأيت علامات التعجب والإعجاب على صديقي فمضيت أقول له: ليس هذا فقط، لكن تصوّر، فقط تصوّر، صحافياً مجهولاً من الشرق يقرع ساعي البريد بابه ويسلّمه برقية مقتضبة، ويكاد يغمى عليه عندما يفتحها ويقرأ أنها دعوة إلى العشاء في «الإليزيه». فيحمل نفسه ويذهب. إلى أين؟ إلى الإليزيه! حسناً، يبهره مشهد المدعوين ويكاد يهوي تحت ثقل اللحظة. يمضي في القاعة الكبرى من دون أن يعرف أحداً. ثم فجأة يشعر بيد ثابتة تربّت على كتفه. يلتفت. يُذهل. فيقول له الرجل الآخر:

– آه، أنت إذن الصحافي القادم من الشرق. إنها لفرصة طيبة، لقد طلب مني الجنرال أن تنتظر قليلاً بعد نهاية العشاء؛ لأنه يريد أن يكلّمك على حدة!

ويتطلع صاحبنا في وجه محدثه فيبلغ الذهول اكتماله ويقول له: «ولكن، يا سيدي، ألست أنت المسيو أندريه مالرو؟ إن تواضع الكون كله لا يكفيني يا سيدي لكي أجرؤ على مصافحتك. أما الجنرال... آه. آه. يا سيدي».

وقاطعني صديقي: «هل معقول هذا الكلام؟ هل يعقل أن يدعى صحافي مجهول إلى الإليزيه لمجرد أنه من الشرق؟» فرددت وراءه بشكل لاإرادي، هل هذا معقول. غير أنني تنبهت لأقول له: لا، ليس هذا كل شيء، لكن تصوّر، فقط تصور صحافياً قادماً من الشرق يكتب إلى بريجيت باردو ليطلب منها مقابلة مطوّلة، وماذا يحدث؟ بدلاً من أن تعتذر كما تفعل مع جميع صحافيي العالم منذ أن قررت الاعتزال، تقبل منحه المقابلة وتعطيه موعداً على العشاء في مطعم صغير من مطاعم الحي اللاتيني. يظن بادئ الأمر أنها مزحة، لكنه يذهب إلى هناك مبكراً، فيرى المطعم المعتم فارغاً وسيدة شقراء في آخر القاعة والنوادل حولها جامدين مذهولين كالأصنام. وعندما تلمحه تصرخ به وكأنها تعرفه منذ زمن.

– Eh bien! J`ai pens`e que tu ne viendras pas!

لكنه يركض إليها معتذراً، فيما ينصرف النوادل لإبلاغ صاحب المطعم أمر ضيفته النادرة، ويقول لها:

B.B C`est la faute du métro ma chére –

وقلت لصديقي موضحاً أن ب.ب. هو لقب السيدة باردو عندما كانت في أوج مجدها وكانت تعرف بأحرف اسمها الأولى مثل .U.S.A و .G.M.C وماركة الخيطان .D.M.C.

وظن صديقي أنني أهذي، فما كان مني إلا أن مضيت في تحدي مخيلته. وقلت له: هذا ليس شيئاً. تصور، فقط تصور صحافياً صعلوكاً من الشرق، يدعى إلى مائدة جاك شيراك. يذهب طبعاً، كالعادة، فهو منذ تلك الدعوة إلى الإليزيه لم يعد يترك حفلة واحدة تفوته. ومع الوقت اشترى لنفسه بذلة رسمية خاصة بالسهرات، وقميصاً أزرق خصص له جانباً من خزانته الصغيرة. وفي أي حال، ذهب إلى حفلة «المسيو شيراك»، وكالعادة لم يعرفه أحد، لكن فجأة يرى القاعة الملكية الكبرى تلتفت كلها إلى المدخل، فإذا صديقته صوفيا لورين، كالعادة تسبقها ابتسامتها وشفتها السفلى. وبعدما صافحت المضيف وعدداً قليلاً من الضيوف نظرت إليه عبر الجموع الأنيقة وهتفت من بعيد:

«Mama mia che picolo mondo» –

ولم يفهم صديقي هذا التعبير الشائع بنسخته الإيطالية فقلت له إن صوفيا لورين إنما كانت تقصد أنه لعالم صغير. صغير.

وشاء أن يقاطعني كأنما ذلك الصحافي القادم من الشرق منافس له أو شيء من هذا القبيل. فقال في غيرة واضحة كمن يبالغ في تحدي الآخر: «صوفيا لورين وجاك شيراك، ومن بعد؟»

قلت له: أنت حرّ، حرّ في مشاعرك. لكن أجل، هناك بعد. تصور مثلاً، فقط تصور، ذلك الصحفي القادم من الشرق كان يتمشى ذات مساء على جسر الإسكندرية في باريس، بين الضفة اليمنى والضفة اليسرى يتمشى، طبعاً، لأنه لا يملك إيجار سيارة تاكسي لكنه، بالمناسبة، راح يتأمل الجسر والأضواء ونهر السين. ولم يخطر في باله تلك اللحظة سوى جسر المدينة في بطرسبرغ. وأخذ يتخيل ليلة واحدة من «الليالي البيضاء» الثلاث التي كتبها دوستويفسكي. وكادت أحلامه تنقله بعيداً فيبكي، لكنه فجأة رأى رجلاً أنيقاً يرتدي معطفاً رمادياً وقبعة سوداء، يشبه إلى حد بعيد الممثل جوزف كوتن. بل ظن للوهلة الأولى أنه حقاً في فيلم من أفلام كوتن.

وقد اختلط الضباب بخيوط المساء، ولم يبق سوى أن يطل المخرج أورسون ويلز، ويصرخ في المصورين: «أكشن!».

لكن الرجل ذاته سرعان ما قطع هذه الأحلام عندما قدم نفسه إلى الصحافي الصعلوكي القادم من الشرق، قائلاً: «أنا موريس كوف دي مورفيل، هل تعرفني؟»

وصعق صاحبنا. وقال: ومن لا يعرفك يا سيدي المسيو كوف دي مورفيل؟ لقد رأيتك في الصور كثيراً، ورأيتك ذات مرة على درج رئاسة الحكومة بينما كنت أقف مع زملائي هناك. لكن كيف عرفتني يا عزيزي المسيو كوف دي مورفيل؟ وردّ المسيو كوف دي مورفيل، وهو يضع معطفه بحركة مسرحية ويمسك عصاه ويمضي في الظلام المختنق بأضواء الجسر:

– Oh! cher monsieur comme le monde est petit

وقال صديقي وقد شعر حقاً بشيء من التذمر: «بربك هل صحيح أن هذا الصحافي يعرف كل هؤلاء القوم؟»

وقلت له: طبعاً لا، إنه لا يعرف أحداً منهم، لكنني قلت لك من البداية، تصور، فقط تصور.

obeikandl.com

obeikandl.com

بلاد السندباد

عبثاً تبحث فوق رفوف مكتبتك عن كتاب يشرح لك الوضع السياسي في عدن. هنالك فقط ذلك النوع من الكتب الذي يضعه الرحالة والرومانسيون. فهذه المدينة المحفورة في الجبل، المعلقة فوق البحر، هي في نهاية الأمر بلاد السندباد سيد البحّارة والبحار. وهي، كما تقرأ في مكان آخر، بلاد التوابل ورائحة السمن المقلي العطرة والبخور والأطايب.

دائماً كان هناك كاتب ما سحرته عدن. ومنذ القرن السادس عشر أو ما قبل، يمر بها الرّحالة فيأخذهم مشهد المدينة القائمة على الزاوية البحرية للعالم. ونرى بعضهم ينتشي برؤية المقاهي «حيث يمضي اليمني ساعات في التأمل من دون أن يقول كلمة إلى رفيقه». ويطرب آخر إلى «مشهد الماعز تنام على العتبات في قيلولة الظهيرة الحارة". ويقول أحد كتب الجغرافيا الفرنسية في العام 1683 « ... أما عدن فهي من أجمل مدن بلاد العرب، تغلفها الأسوار من جهة البحر والجبال من البرّ، وفوق هذه الجبال ثمة قصور كثيرة تطل على مناظر جميلة. وفي المدينة ستة آلاف منزل أو ما يزيد، وهي تقع خارج البحر الأحمر وعند بداية البحر الكبير».

وتقول موسوعة فرنسية أخرى إنه «عندما يتغير المدّ والجزر تقذف الأمواج آلاف السمك الميت إلى شواطئ بيريم وعدن».

obeikandl.com

وهناك من اجتذبته إلى عدن رائحة البن. فأوروبا كلها ركضت وراء رائحة القهوة... «لكن في عدن» يقول أحد الرحالة متعجباً «يقدمون القهوة من دون سكر أو حليب. ولأن المقاهي لا تقدم شيئاً غير ذلك فإن الناس لا تسكر ولا تعربد بل تمضي أكثر الوقت ساهمة وراء النراجيل التركية».

ويقول آخر أكثر حداثة: «عندما تريد أن تغير الهواء تتجه إلى لحج في قلب البلاد (...) وإذا ما ذهبت في اتجاه لحج فإن الأرض أكثر خصباً وامتلاءً بالعشب. وإنك ترى في الطريق رجالاً يطعمون الأوراق الخضراء لجمالهم الرابضة، ثم تأتي إلى تلّة مرتفعة تشهد على مرور الباكركي.. من هناك في العام 1519. وبعد بضع ساعات تصل إلى لحج، وهي مدينة من الغبار، وبيوت مبنية بحجارة من الغبار، وأشجار نخيل مطلية بالغبار».

عبثاً تبحث عن كتاب سياسي حول عدن ـ «هذا المزيج من الإمبراطورية والشرق» ـ التي سوف تطرد الإمبراطورية وتذهب إلى موسكو في أقصى الشرق، ثم في الحرب، كأنما في الكتب أو في الأساطير، يمر يخت الملكة في الميناء؛ لكي يحمل الراغبين في الهرب، من عرب وأجانب.

والحرب أيضاً إحدى أقدامها. هكذا يقول كاتب فرنسي من القرن السابع عشر، كأنما مركزها وموقعها التجاري قدرها أيضاً. لكن هذا المركز التجاري سوف يصبح بعد الاستقلال مركزاً سياسياً، مركزاً جيو ـ سياسياً ومركزاً محيراً للكثيرين عند القرن الإفريقي وممرات النفط.

كان محيراً أيضاً أن تقاتل عدن نفسها.

عدن؟ هل نحن رحالة أيضاً لكي نخاطبها بهذا الاسم الشعري العتيق؟ لقد كبرت كثيراً على أحلام المسافرين وأصبحت جمهورية تغلق الأبواب على نفسها والأسوار الحديثة كذلك، وهذا شأنها طبعاً. لكن ليس شأنها وحدها أن تقاتل نفسها وأن تبدو على شاشات التلفزيون تماماً مثل بيروت محفورة في الجبل ومدكوكة بالمدافع ومزروعة بالدخان الأسود من السماء والأرض.

كان هذا الجزء من العالم حلماً من أحلام العرب وشيئاً من الموشحات والأغاني. وفجأة تصير بلاد السندباد مرفأ حزيناً يهجره الآخرون إلى الخارج. وإلى الداخل ينصرف المتقاتلون.

obeikandl.com

obeikandl.com

برامج للأطفال

و«يأتيك بالأخبار من لم تزوّد»، وبالعلم تأتيك هذه الأيام برامج الأطفال. إنها مثل الطفل، عالم بسيط وشاسع، وعلم مبسط مثل العين ومعقد مثل البؤبؤ، ساحر مثل الشعر وعميق كالفلسفة. وأحياناً أشعر عندما ينتهي واحد من هذه الرسوم المتحركة أنني أنزلت عن كتفي رفاً كاملاً من رفوف المكتبة العامة. فالذين يصنعون هذه البرامج، لابدّ أنهم أمعنوا فيها تبسيطاً لكي تفهمها عقولهم أولاً قبل أن يقربوها إلى عقول الأطفال. فنحن لا نستطيع أن نعلم مالا نفهم ولا أن نحفظ مالا نستوعب. ولذلك نقول إننا نكره مواد ونحب أخرى، غير أن الحقيقة هي أننا نفهم مواد وتعصى علينا أخرى. فالإنسان مزاج ومناخ نفسي ليس إلاّ. وقد يكون فعلاً كمية من مليارات الخلايا ومؤسسة معقدة من الأوعية والشرايين، لكن هناك ديكتاتوراً واحداً على هذه المؤسسة هو العصب والمزاج، أي المناخ النفسي. وحين نقول إن فرداً أو لحناً أو كتاباً لم يلائم مزاجنا، فإنما نتحدث كعلماء من دون أن ندري، عن كيمياء ذاتية في معالم هذا المجهول الإنسان أو بالأحرى في مجاهله، ولكن ليس في الأمر علم بل بساطة، وإذا ثقل عليكم جرس المعلم أو عصاه فإليكم ببرامج الأطفال تبسط لكم المعادلات فتحلو مثل شراب التوت. عالم بلا عقد وبلا أحقاد وبلا تفاهة. حتى الذئاب يقربونها منك، ولكن ليس لكي تتحاشاها بل لكي

تشفق عليها وتتبرع من أجل المحافظة على الأجناس المنقرضة منها، وغداً عندما يكبر الصغار سوف يعرفون أن الكبار يرسلون الحملان إلى المسالخ ويعلقون الأفخاخ للغزلان ويقلبون العصافير على أسياخ الشواء. ولكن، الآن، في هذا العالم البريء الطاهر، يبعثون الحزن في الأطفال؛ لأن الذئاب الحمراء في الميسُّوري معرضة للانقراض.

الذئاب لا تنقرض، بل المخلوقات الطيبة والكريمة وحدها معرضة للانقراض. فالعقارب لا تزال تعقص وتفرز السم منذ أيام دبشليم الملك وعبد الله بن المقفع. والجهد الوحيد الذي يبذله العقرب، كما يقول العلم الآن، هو إقناع العقرب الأنثى بأنه عقرب مثلها لكي لا تأكله! وكما تمتلئ أرجله الثماني بالسم تمتلئ أيضاً بالرغبة فيتمشى إلى السيدة العقربة وينحني ويقبل يدها. وهكذا استطاع العقرب مع مرور الزمان أن يستمر عقرباً. لقد أقنع السيدة العقربة بألا تأكله ومضى هو ينهش من الآخرين. إن هذا نمط بقائه كما يقول لنا علم الإنثروبولوجيا. ولكل من هؤلاء الهائمين الدائرين في الأرض نمطه. وهذا أكبر دليل على أن نظرية داروين في التطور والنشوء ليست كافرة فحسب بل ساذجة أيضاً. فالعقرب لا يزال عقرباً منذ آلاف السنين. والذبابة لم تتحول إلى دبابة وإلا لكان الكون كله قد سحق تحت تطفلها الثقيل، ولكان أبطال «الطاعون» عند كامو من الذباب لا من الجرذان. ودودة القز تصير فراشة جميلة، لكنها لا تصير ثعلباً. والثعلب قد يألف القفص مرغماً، لكنه مع مرور السنوات والقرون الطويلة لم يتعلم أن الغدر قباحة، وحتى عندما تضعه في حديقة الحيوانات، فإنه لا

يستطيب الطيور إلا مسروقة. وقد صدر أخيراً كتاب يقول إن داروين أساء إلى القرود لا إلى الإنسان حين أطلق نظريته الشهيرة، لأن في بعض القرود ميزات ليست في الكثير من الناس.

ما أجمل عالم الأطفال حتى حين يتعلمون الحقائق! أو بالأحرى ما أجمل الحقائق كما تبدو في عالمهم! وكم تبدو الأشياء لهم ملونة وفرحة، وكم يمتزج الخيال بالواقع في دنياهم فيصير كل شيء بسيطاً فجميلاً فرائعاً فمدهشاً! عالم مليء بالدهشة تكسوها دهشة أو فرحة أخرى. عالم من التساؤلات الحلوة والأجوبة البريئة. ولكي يفرح الكبار فرحاً حقيقياً يصنعون للأطفال برامج ويستدرون عواطفهم على الذئاب المنقرضة في الميسوري. وتنقرض الذئاب لأنها ابنة الظرف والبيئة، أما الإنسان فيقرض الإنسان. وبومة الصقيع لا تعرف بالصقيع إلا وقد حلّ وفي الصقيع تضع طيورها، والدببة البيضاء لا تستطيع الهجرة على متن السفن فتجعل من الجليد مأوى لها. إن ثمة نمطاً للبقاء عند مخلوقاته تعالى. نمط لليمام ونمط للعقارب ونمط للذئاب ونمط للصقور ونمط للنسور. وحين يكبر المرء ويكتشف أنه في غابة مليئة بالزواحف يبحث عن اطمئنانه فلا يعثر عليه إلا في الرسوم المتحركة. ذلك أن سينما الكبار أصبحت هي أيضاً مثلهم، «دالاس» و«كولبي» و«داياناستي». ومؤامرات صغيرة وفجور صغير وأشخاص صغار مثل الطحالب ملتصقون على أخمص الحياة، فالبعض يأتي هذه الحياة من أنملها والبعض يأتيها من نابها. وتهتم الأبقار والحملان وحتى الماعز بشؤونها ومراعيها، أما الإنسان فشأنه

الآخرون. وتروي لنا صاحبة كتاب «الأصل من بورتوريكو» كيف أن البورتوريكيين الذين يعيشون في ضواحي نيويورك يعرفون كل شيء عن جيرانهم: كيف ناموا وكيف أكلوا وما هي رائحة مطابخهم أمس، لكنهم يرفضون أن يتعرفوا إلى حاجات رفاقهم أو إلى آلامهم أو إلى أمانيهم. وهي تقول لنا كم هو كبير عدد الذين يسألونك، وكم هو ضئيل عدد الذين ترتاح إلى أن تطلعهم على ما بك.

إليكم ببرامج الأطفال.

obeikandl.com

حلم... ليلة كولا!

كان الدليل السياحي يتحدث، وأنا أتململ. هو يروي لنا تاريخ كريت منذ الأغريقيين الأوائل إلى هزيمة ألمانيا في الحرب الثانية، وأنا أحلم بأول مقهى ألجأ إليه هرباً من هذه المجموعة الغريبة من السياح. هو يتحدث عن الحضارات وأنا أفكر في القيظ والحر وأحلم بزجاجات الكولا الباردة مثل الرئيس الزائيري سيسي سيكو!

كان الدليل المسكين يبذل كل ما يستطيع لكي يغري سامعيه بالإصغاء. وكان يغير في طبقات صوته وفقاً لمقتضيات الحكاية، بل بدأ واضحاً أنه كان ينحاز لفئات دون أخرى من الموجات والحقبات التاريخية التي مرت على الجزيرة، لكنه لم يستطع أن يقنع أحداً بالإصغاء الحقيقي. وبدا من دون أي شك أن ركاب السفينة الذين وضعت هذه الوجبة الفكرية على برامجهم كانوا يفكرون بوجبات أخرى مليئة بالسمك والسلاطة اليونانية المصنوعة بالجبنة البيضاء. وقد ذهب سدى كل كلام الدليل المسكين وسدى ذهبت بحته وهو ينقل أنظاره فوق تلك التلة الغبراء المليئة ببساتين الزيتون. ولعل تلك التلة هي نفسها التي كان يقف فوقها في أوائل هذا القرن الكاتب اليوناني الشهير كازانتزاكيس، حيث تأمل طويلاً في المتوسط الأزرق الغزير النقاء والصفاء و... أيضاً دماء الغزاة

obeikandl.com

عبر التاريخ: من هنا عبر هنيبعل ومن هناك، من مقدونيا المقابلة، طلع الإسكندر، وفي هذه المياه المنظمة، المنغمة مثل مستفعلٍ فاعلٍ فعولٍ، عبرت روما إلى إمبراطوريتها، تلك الإمبراطورية الأطول دواماً منذ أن تعارف سكان هذا الكوكب على تسمية غواة الحدود الطويلة بالأباطرة. لذلك، ربما، تخشى أميركا الآن أن تقول في العلن إنها أيضاً إمبراطورية وإنها أخرجت (دفشت) البريطانيين إلى البحر ودفعت بهم إلى جزرهم الصغيرة بين بحر الشمال والبحر القناة، لكي تتصرف هي، وكأن روما تتكرر مثل دقات «بغ بن»: انظر إلى تلة الكابيتول، حيث يقوم الكونغرس. انظر إلى نصب لنكولن. إلى محطة القطار في واشنطن. إلى بنوك العاصمة، فماذا ترى؟ إنك ترى يا سيدي علامات وإشارات وملامح هندسية منقولة حرفياً من روما. ليس من روما اليوم التي تخطف وزير خارجيتها وتضعه في صندوق السيارة الخلفي، بل في روما القيصر، حيث يرتكب بروتوس أكبر خيانة في التاريخ طمعاً في أن يتحول، بعد ذلك بألفي عام، إلى دور في إحدى مسرحيات وليم شكسبير!

كريت ليست روما، كريت مجرد جزيرة أخرى من آلاف الجزر التي تنتظم حول أثينا؛ لتؤلف ماضياً واحداً ومجموعة هائلة من الأساطير. وها نحن نقف خلف الدليل السياحي وبين خرائبها ليس لكثرة ما يهمنا تاريخها بالذات، بل لأن الباخرة الإيطالية تتوقف هنا لتتزود الوقود وزيت الطهي، وفي هذه المناسبة ينزل الركاب إلى البر لكي ينفضوا عنهم رائحة الملح ورتابة الثلاثين عقدة بحرية في الساعة.

وكما تذكرت كريت الآن وتذكرت تململي من كلام الدليل السياحي أشعر بالندم لأنني لم أصغِ جيداً، ولأن همي الحقيقي كان الوصول إلى أقرب مقهى. فاليوم أكاد لا أقرأ كتاباً عن الحرب العالمية الثانية إلا وفيه ذكر للجزيرة. وإنك لا تقرأ سيرة أحد من العسكريين المعاصرين، إلا وتلاحظ أن كريت كانت محطة تاريخية فاصلة في حياته، وهو في الطريق إلى... الشرق الأوسط. لقد كانت كريت إلى حد ما نوعاً من خط الدفاع الأول في تلك المعركة الرهيبة من أجل الوصول إلى مصر ومنها إلى بقية المنطقة. وقد أرسل تشرشل ما تبقى لديه من كتائب متعبة إلى تلك التلال الغبراء؛ لأن همه الحقيقي كان في طبرق وتونس والعلمين.

... أما أنا، فكنت أحلم بزجاجة من الكولا الباردة! وأتذكر الآن، أو بالأحرى ومنهم آلاف، ماذا كان يعني أحد أصدقائي القراء العرب حين قال لي ذات مرة: هذا الصيف سآخذ أولادي في جولة إلى أوروبا؛ لكي يروا ملامحها التاريخية؛ لأنهم غداً عندما يكبرون لن تهمهم مثل هذه الأمور!

لم أكن أفهم ما يعني، ولم أكن أعرف أن المرء عندما يصبح شاباً يصير همه زجاجة من الكولا، وحتى إن كان واقفاً فوق سلة من التاريخ. ولم أكن أعرف أن هذه الآثار والملامح التاريخية إنما هي هناك لكي نعرفها لا لكي نتجاهلها، وإن علينا أن نعرف هذا العالم الذي حولنا لكي نعرف أنفسنا جيداً، ولكي نعرف مكاننا في الكون وموقعنا من الآخرين. إذ كلما تطلعنا حولنا وجدنا أن هناك حكاية لكل

شيء وأن لكل حجر سبباً ولكل كنية قصة ولكل اسم أصلاً معلقاً في عتمات الماضي. ومحظوظ ذلك الذي يعرف الإفادة من السفر كما قالت العرب، أي أن تحول التجوال في أوطان الآخرين ومسافاتهم إلى متع للنفس لا تزول مع نهاية الزيارة، فإذا وقفنا أمام نصب حاولنا أن نعرف لماذا هو هناك، وإذا وقفنا أمام محطة القطار في روما عرفنا أن موسوليني أراد منها أن يبز أجداده الرومان وإذا مررنا في كولونيا عرفنا أن الألمان أعادوا بناء مبانيهم بعد الحرب حجراً حجراً وقطعة زجاج بعد قطعة، وإذا مررنا أمام مبنى الأمم المتحدة في نيويورك عرفنا أن روكفلر تبرع بقطعة الأرض التي يقوم عليها لكي... يرفع سعر قطعة الأرض المقابلة.

أما أن يمر المرء بين أزقة التاريخ وهمه الوصول إلى أول بائع للمرطبات فتلك شيمة الذين يجهلون أن التاريخ قد يكرر نفسه. أما زيارة الأماكن، فإنها لا تتسنى لنا دائماً.

obeikandl.com

الجزّار

بدأت فرنسا تنقسم منذ الآن حول الاحتفال بالذكرى المئتين لقيام الثورة الفرنسية في العام 1789. وقد صدرت لهذه المناسبة كتب عدة، معظمها يعيد تقويم تلك الثورة من وجهات نظر مختلفة ومتضاربة ومتناقضة. وبين هذه المؤلفات كتاب يقرأ من عنوانه: «لويس السادس عشر.. ذلك الأمير». وفي الكتاب طبعاً الكثير من الحزن على آخر ملوك فرنسا كما فيه الكثير من التنديد بقادة الثورة الذين تحول بعضهم إلى جزارين ومصاصي دماء.

وإذا كان الخلاف حول الاحتفالات جديداً، فالخلاف العميق حول النظرة إلى الثورة نفسها عمره مئتا عام على الأقل. فالبعض يقول إنها ثورة أغنت أوروبا أخلاقياً لكنها أفقرت فرنسا نفسها، والبعض الآخر يقول إنها مجرد حرب أهلية أطلق عليها اسم شاعري. وكان هناك دائماً من يصادر هذه الثورة ويجيّزها لذاته، بين مجنون أو جزار مثل روبسبير، أو قائد عسكري مثل نابليون. وبعد عشر سنوات على قيام الثورة قال نابليون نفسه: «حسناً، لقد انتهت الثورة الآن ومن دون أي عناء وإنني أفاخر بذلك. هل تعرفون لماذا؟ لأن الثورة لم تلغ أية مصالح على الإطلاق بل أيقظت الكثير من المصالح النائمة».

طبعاً، الفرنسيون يحولون كل شيء إلى محاسبة للضمير أو إلى حرب أهلية. ليست الثورة فحسب بل حتى الحرب العالمية الثانية تحولت هي أيضاً إلى نزاع بين رجلين عسكريين، كل منهما يرى الأمة

obeikandi.com

الفرنسية بعين مختلفة وربما... بعين واحدة، ولقد استمرت حرب فرنسا ضد الألمان ستة أسابيع، أما الحرب بين الفرنسيين أنفسهم فقد استمرت أربع سنوات. وكل تغيير أساسي في جوهر النظام كان نتيجة لحرب لا لثورة. فالتعليم الإلزامي كان نتيجة لهزيمة 1870. والبحث عن إمبراطورية في زمن الجمهورية الثالثة كان نتيجة للحرب الفرنسية ـ البروسية حيث خرجت باريس مهزومة وفاقدة لبعض الأرض، ولذا تطلعت إلى المغرب العربي والهند الصينية؛ بحثاً عن انتصارات تعوّضها الهزائم الداخلية.

ولم تعرف فرنسا النظام الضريبي برغم كونها إمبراطورية إلا في الحرب العالمية الأولى، حين فرضت الجباية من أجل التسلح. وفي الوقت نفسه عدلت أيضاً قانون نابليون الذي كان يعتبر المرأة قاصرة، وربما نكاية بصديقته اللدودة المدام دي ستايل. إذ عندما ذهب الرجال إلى الجبهة كان لابد من تحميل النساء بعض المسؤوليات، وكان لابد من انتظار نهاية الحرب العالمية الثانية وانتصار ديغول لإعطاء المرأة حق التصويت في نهاية الأمر، ومعه أيضاً قامت للمرة الأولى في تاريخ فرنسا، ونتيجة لتلك الحرب، جريدة مستقلة هي طبعاً «اللوموند».

وكان ديغول أول من أقر بأن الحروب، لا الثورة، هي التي أحدثت التغيير الأساسي الجوهري في فرنسا عندما قال إن التغيير الحقيقي والأكثر عمقاً في المجتمع حدث في نهاية الحرب الأولى. ففي تلك الحروب فقدت فرنسا 34500 ضابط بينهم 4000 من خريجي كليته في سان سير، واضطرت آنذاك إلى تسليم بعض القيادات إلى صفوف الضباط. عندها انتهت أسطورة «النبلاء الفرسان» وغابت طبقة كاملة من حياة فرنسا.

وفي الحرب العالمية الثانية تعامل أرباب العمل مع الألمان المحتلين فانتهت إلى حد ما الطبقة المعروفة بـ«الباترونا». وعندما استقبل ديغول وفداً من هؤلاء في العام 1944 قال بكل حدة: «إنني للأسف لم أر أحداً منكم في لندن».

أريد أن أقول ـ بالإذن من السادة الكتاب الذين يفقعوننا بين كل سطر وسطر أنهم يريدون أن يقولوا بأن محاسن النظام الفرنسي أو فرنسا على اعتبار أنها دولة أو مجتمع لم تكن نتيجة لثلاثة ملايين بشري قتلهم جزار يدعى روبسبيير! ـ ماذا كان لو تغير مثلاً لو أن ضحايا روبسبيير كانوا مليوناً فقط؟ ماذا كان تغير لو أن يوسف ستالين اكتفى بمليوني ضحية بدلاً من سبعة ملايين؟ ماذا كان يغير الاتحاد السوفياتي أو الثورة الروسية؟ وكيف يستطيع خروتشوف وبريجنيف وتشيرنينكو وأندروبوف أن يحكموا البلد نفسه فيما بعد من دون الاضطرار إلى إعدام علني واحد؟

سبعة ملايين جمجمة في عنق رجل واحد. وثلاثة ملايين في عنق «المسيو» روبسبيير الذي تقول لنا الدراسات اليوم إنه كان معقداً مستوحداً مثله مثل «صاحب اللحية الزرقاء» أو الكونت دوساد أو «السفاح جاك» في الروايات البريطانية.

كيف يمكن أن تسلم في غفلة من الزمن قيادة شعب كامل وأمة كاملة إلى رجل مثل روبسبيير؟

obeikandl.com

هذا هو السؤال الذي تطرحه فرنسا الآن، وهي تتطلع مئتي عام إلى الوراء. ويبدو أن ثمة دموعاً في كل احتفال بقيام الأمم ونشوئها. فالولايات المتحدة تحتفل هذا العام بمئتي عام على الدستور وفي ذاكرتها أشباح الهنود الحمر الذين أبادهم الرجل الأبيض.

وفي أستراليا احتفل هذا الأسبوع بمئتي عام على وصول أول دفعة من المستوطنين البيض، وكانوا جميعاً من الحكوميين الذين ضاقت بهم سجون بريطانيا. وقد رفض سكان أستراليا الأصليون، أي هنودها الحمر، المشاركة في الاحتفالات الرسمية. فلما سئل زعيمهم عن السبب في ذلك قال: «وهل تريدون فوق كل شيء أن نشارك القاتل في أفراحه؟».

لقد كانت فرنسا هي التي وضعت أول إعلان لحقوق الإنسان في العام 1789 وكانت هي أول من خرقه، فقرةً فقرةً...

30/1/88

❀❀❀

إذاً شرعة حقوق الإنسان تولد في فرنسا، وفي فرنسا أيضاً تُخرق أولاً، فقرةً فقرةً، والثورة، ثورة 1789، هي التي تفعل ذلك. فالفقرة الأولى من17 فقرة تقول إن الرجال يولدون أحراراً ويظلون متساوين أمام القانون، لكن هذا الحق ما لبث أن خرق. وكانت الفقرة الثالثة تقول بالسيادة للجميع، لكن البعض حرموا من التصويت. وقالت الفقرة السابعة إنه لا يجوز اعتقال أحد إلا بموجب مذكرة قانونية،

لكن الثورة ما لبثت أن حولت الأزقة والبيوت إلى سجون وقواويش تعج بالأبرياء. ونصَّت الفقرة العاشرة على أن أحداً لا يدان بسبب رأيه أو معتقده، لكن الطغاة تلحفوا بالثورة؛ لكي يكمموا الأفواه والعقول ويسوقوا الناس كالطنابر وينزلوا أحكام الإعدام بالمعارضين.

وأخيراً قالت الفقرة السابعة عشرة إن الملكية الفردية مقدسة، لكن الثورة ما لبثت أن راحت تصادر الأراضي يميناً ويساراً. وخلال خمس سنوات غيرت فرنسا ثلاثة دساتير، لكنها لم تعمل بدستور واحد. ولم يعش «النص اليعقوبي» الذي وضع بوحي من روسو (السلطة للشعب) أكثر من ستة أيام. وفرنسا التي صدرت إلى كل أوروبا مسألة الانتخاب المباشر في العام 1789 لم تعرف هي مثل هذه الممارسة قبل 1848 عندما لجأ إليها نابليون الثالث لتكريس حكمه بعدما أرسل إلى المقصلة الرجل الوحيد الذي تجرأ على الكلام عن المساواة!

وكان الدستور الفرنسي الذي وضع في العام 1793 يقول: إنه على الشعب الفرنسي أن يمنح الملجأ لجميع الغرباء المبعدين عن بلادهم بسبب قضية الحرية... غير أن روبسبيير أرسل توماس باين إلى السجن بحجة أنه غريب. لقد كان روبسبيير هو ذلك القدر السيئ الذي حل بقضية جيدة، وكان هو القضاء الرديء في عالم كان يموت باسم العدالة.

وباسم المساواة كان روبسبيير أكبر أعداء العمال. وتتذكر فرنسا الآن أن حق العمل النقابي في الورشات لم يعط في العام 1789 بل في خريف العام 1968! وكان روبسبيير ـ لا ماري أنطوانيت ـ هو

الرجل الذي جمَّد الأجور، وهو الذي كان يطرد كل من كان «ودوداً» إلى العمال. وهو الرجل الذي علق كل حق بشري، بحيث أصبح ممكناً أن يساق إلى الإعدام إنسان وشت به عشيقته أو وشى به حاقد كاذب.

لقد كان هذا الزمن الذي يشعر فيه الإنسان ببرودة دائمة في عنقه.

فقد نشر روبسبيير «المحاكم العسكرية» في باريس والأقاليم وقضت 178 محكمة من تلك المحكمة بإعدام 17 ألف شخص بينهم 2625 في باريس. وكان المدعي العام في العاصمة رجلاً يدعى فوكييه ـ تنفيل يختار أعضاء المحكمة من غلاة المتعصبين ويضع إلى جانب كل اسم من هؤلاء العلامة التي يستحقها في طاقات... الحقد! وكان «المسيو» فوكييه ـ تنفيل يؤنب أعضاء المحكمة قائلاً: «إنكم تتخلفون. إنني أريد مئتي رأس على الأقل».

وعندما حوكم بدوره أطلق تلك الجملة التاريخية التي تفقع من الضحك: «لقد كنت أنفذ الأوامر». إنها الجملة التي سوف يستخدمها جميع الجزارين فيما بعد.

غير أن ثمة وجهاً مفيداً للمسيو روبسبيير: فقد شكل عقدة ذنب سلفاً لكل حاكم فرنسي جاء من بعده. ويقال إن الجنرال ديغول أراد أن يتحاشى تنفيذ الإعدام في المارشال بيتان فأرسل من يوحي إليه بالهرب إلى سويسرا، غير أن الرجل العجوز لم يفعل.

obeikandl.com

وإذ يذهب الفرنسيون في كرههم لتلك المرحلة الروبسبيرية الرهيبة للقول بأن الرجل لم يكن طاغية وجزاراً فحسب، بل إنه أيضاً كان يكره... الأكل. وهذه مسألة لا تغفر طبعاً في فرنسا، وليس هناك من ينسى أن روبسبير طلب من الفرنسيين أن يكتفوا بصحن من العدس الجاف وعليه رشة من حب الوطن.

لقد نسي هذا الطاغية أن يفعل ذلك في بلد دارت فيه المعارك وارتكبت فيه الجرائم وأقدم آخرون على الانتحار بسبب الفن المطبخي! فالمعروف أن لويس الثالث عشر كان يختار الفطر بيده وهو على فراش الموت. وكان المركيز دو ساد يغسل النقانق بالنبيذ وهو في سجن الباستيل وطلب فيليب إيغاليتي دزينة كاملة من المحار قبل أن يسلم رأسه إلى «الأرملة» وهو اللقب التحببي... للمقصلة! وبعد معركة درسدن الشهيرة تناول نابليون طبقاً من اليخنة والثوم فشعر بآلام في معدته فخيل إليه أن أحداً قد سمم له طعامه... وهكذا أمر بالانسحاب الذي أدى بدوره إلى هزيمة 1813.

بل يقال إنه في السنوات الأخيرة من منفاه في جزيرة القديسة هيلانة اضطر طباخه الفرنسي إلى الاعتزال بسبب سوء صحته. وكان على نابليون بعد ذلك أن يتناول فقط الطعام الإنكليزي... فمات متأثراً بذلك.

❀❀❀

obeikandl.com

لم يكن ماكسيميليان روبسبيير الأول، ولن يكون طبعاً الأخير. لكنه كان أول من أعطى الصفة الشرعية القانونية للقتل الجماعي وللمحاكم البلهاء. ومن بعده سوف تكثر الفتاوى في عالم الإبادات وسوف تتكاثر المحاكم الصورية وتتوالد كما كانت تفعل أيام محاكم التفتيش، وسوف تقام الضرائح للجلادين إلى أن يأتي من يدمرها... مع الاعتذار.

وها هو ميخائيل غورباتشيف يعيد الاعتبار إلى الرؤوس التي علقها يوسف فياساريانوفيتش ستالين. وأمس كانت تحاول البرافدا أن تعتذر لستين عاماً من النسيان قائلة إن الرفيقين بوخارين ورابكوف أعدما ظلماً خلال حملة التطهير الشهيرة في الثلاثينيات. لكن من يعتذر لسبعة أو عشرة ملايين آخرين، والبعض يقول ثلاثين مليوناً أودى بهم موت يدعى ستالين، وهو يتثاءب ويلعق شاربيه من آثار الشورباء اللذيذة؟ ثمة أسماء تموت في الموت، تساق من دون اعتراض، لا قبل ولا بعد. فيما ينهمك المؤلفون في وضع الكتب عن المسيو روبسبيير. لقد أباد الجنرال كاستر الهنود الحمر على أنغام الموسيقى الإسكوتلندية الشجية، ولكن في أميركا أيضاً سوف يعلن رجل اسمه أبراهام لنكولن الحرب من أجل إرغام مواطنيه على التمييز بين الإنسان الأسود وبين الخيول الجرباء، بين حرية النفس وعبوديتها للظلم، وسوف يقتل بعد ذلك لكي تفهم أكبر دولة في الأرض أن اللون ليس نيراً ولا سلاسل. ولا مبرر لهذا القدر من الوحشية التي ابتدعها الجنرال كاستر.

غير أن مئة عام مرت على مقتل لنكولن قبل أن تجرؤ أميركية سمراء تدعى روزا باركس على الركوب في النصف الأمامي من باص النقل العام. ومئة عام سوف تمر أيضاً قبل أن يعود لنكولن إلى البيت الأبيض في صورة رجل اسمه جون كينيدي. وحتى بعد ذلك سوف يظل الجنرال كاستر حاضراً في النفوس، تموت الناس وهو منتشٍ وتبحث له الكتب عن أغوار وتكتشف أنه مثل روبسبيير، مثل ستالين كان رجلاً معذباً يعاني الوحدة!!

وإنها الثورة، تفجر النبل في النبلاء والوحش في الوحش. وبعد روبسبيير سوف تفضل فرنسا الرؤساء الضعفاء والمسيو رينه كوتي و«الجمهورية الرابعة» على أن تتكرر أمامها ذكريات الطاغية الذي داوى الجوع بالقتل والظلم بالقتل والمرض بالقتل ورأى الإصلاح في القتل والعدل في القتل. وكان يقتل وهو نائم وهو صاح وهو مخدر. لم يكن لديه سوى القتل إلى أن جاء من يبشر القاتل بالقتلً.

لذلك تنقسم فرنسا اليوم، وهي تعيد تقويم تلك السنوات الرهيبة. ولذلك تخوض معركة الانتخابات الرئاسية وكل مرشح يرفع شعاراً من شعارات الحياة. لكن هناك طبعاً المسيو لوبان لكي يذكرنا بأن في كل عصر روبسبييراً صغيراً تطل من مخيلته أعناق ورؤوس وفؤوس. لقد مضى زمن روبسبيير في العام المئتين للثورة. وإذا كان ذلك الجزار قد ولد من مجموعة من الحروب والقتالات وعهود الظلم، فإن هؤلاء السادة الذين تملأ صورهم الحيطان الآن قد ولدوا من فرنسا الضوء التي أعطت الأدب العالي أربعة قرون من الفكر والشعر ولوحات

الانطباعيين التي تملأ مخيلاتنا بشقائق النعمان. فالشعار الذي يرفعه فرانسوا ميتران الآن هو أن الجيل المقبل هو جيله وحده. إنه أب الأمة. وجاك شيراك يتصور في كنزة خضراء وقميص مفتوح عند العنق. وريمون بار يخشى أن يتصور ضاحكاً؛ لكي لا يقول رسامو الكاريكاتور: إنه البقرة الضاحكة في حملة الرئاسة. لقد قطع المسيو روبسبيير من الرؤوس إلى درجة حمل معها فرنسا على الخوف حتى على الكلاب الصغيرة التي أصبحت تسير الآن في شوارع باريس مثل عارضات الأزياء. إذاً، سوف تحتفل فرنسا بمئتي الثورة وهي راكعة على ركبتيها تضرع إلى الله" لا عودة إلى المسيو روبسبيير.

لا عودة إلى أحد. إنهم فقط صور معلقة على الجدران التاريخية. أولئك الذين قتلوا فرنسا في الداخل مثل المسيو روبسبيير أو الذين قتلوها في الخارج مثل نابليون بونابرت. إنها الآن في أحضان المسيو فرانسوا ميتران، وليد الجمهورية الرابعة وتلميذ المسيو ماندس فرانس، الرجل الذي كان يباهي بأكبر هزيمة في تاريخ فرنسا: ديان بيان فو! يباهي، لأنه بسببها جرّ فرنسا الإمبراطورية من أذنيها وأخرجها من الهند الصينية وأعادها إلى الشانزيليزيه ولم يعد يتبقى سوى أن يخرجها شارل ديغول في العقد التالي من ضفاف الجزائر وتلالها. ولذا، عندما يأتي فرنسوا ميتران الرجل الذي جعلته الجمهورية الرابعة وزيراً، وهو بعد في الثامنة والعشرين من العمر، يحافظ أيضاً على «الجمهورية الخامسة» فلا يغير في جوهرها شيئاً ويعامل كرسي ديغول على أنه الآن برفيت أو موريس كوف دي مورفيل، أو حتى ذلك الذائب في الديغولية حتى الموت، أندريه مالرو.

لا رؤوس سياسية تعلق في فرنسا بعد اليوم. فقط تعلق صور على الجدران، وبين هذه الصور لن يرفع أحد صورة ماكسيميليان روبسبيير. لقد أسقطت حتى من رفوف التاريخ الدامي الذي جعلته فرنسا ثلث رايتها المثلثة. تاريخ لم ينته مع روبسبيير، ولم يبدأ طبعاً مع هنري الثالث الذي طعنه راهب دومينيكاني؛ لأنه لم يذبح عدداً كافياً من البروتستانت.

مع العلم طبعاً أن المسكين هنري الثالث كان قد أدى واجبه في هذا الموضوع. وتروي الكتب المدرسية كلها للأطفال حكايته مع زعيم البروتستانت هنري دي غيز عندما دعاه إلى الغداء في قلعة «بلوا» وذبحه مكرماً معززاً هناك وراح يتأمل في جثته قائلاً «آه كم هو طويل إنه أطول الآن مما كان حياً».

لقد كانت فرنسا الخارج تنعكس دائماً على فرنسا الداخل. وتضطرب هذه فتضطرب تلك. تفور هذه فتفور تلك. والآن يقال لنا إن لويس السادس عشر كان أولى مراحل الاستقرار الحقيقي في تاريخ فرنسا. وقد شعر الفرنسيون بالحنين إلى الهدوء والنظام اللذين توفرهما دولة قوية إلى درجة أن شاعراً رائعاً مثل بول فاليري أخذ يدافع عن الديكتاتورية. لقد عاش فاليري (1871–1945) في زمن طغت على العقل الفرنسي المسألة الألمانية. ولذا ترى كتاباته ممسوحة كلها بالتشاؤم والشك والخوف من التغيير، بالإضافة إلى تمييز دائم بين أرض تدعو إلى الإعجاب وشعب لا يدعو إلى ذلك إطلاقاً! بل

ذهب إلى أبعد من ذلك عندما تبنى الديكتاتور البرتغالي الشهير سالازار؛ لأنه رأى فيه حنيناً إلى ذلك العصر الكلاسيكي الذي عاشته فرنسا غداة الثورة...

في المرة الأولى التي وطئت بلاط باريس، وأنا في العشرين من العمر، ولم أكن أعرف فيها سوى رجل واحد، ولا أحمل سوى عنوان واحد. أما الرجل فكان رفيقي وابن قريتي، وأما العنوان فكان مدرسة الليسية «لوي لوغران».

كان كل ما تعنيه الليسيه «لوي لوغران» بالنسبة إليّ أنها أول عنوان سوف أحمل حقيبتي الجلدية وأذهب إليه، وأنها أيضاً مدرسة عجيبة يصل إليها أبناء «بتدّين اللقش» في نهاية المطاف الدراسي، أو بالأحرى قبيل نهايته. وعندما سألت البواب عن رفيقي هز كتفيه ورأسه بالنفي وأخذ يمضغ عقب سيجارته. ورحت وأنا في الانتظار، أنقل عيني في السقوف العالية المطلية بغبار الزمان والأعمدة الرخامية الضخمة والكلمات المنقوشة على الجدران مرفقة بأرقام وتواريخ لاتينية. لقد كان هناك طبعاً فارق كبير بين أبهة هذه القلعة الثقافية فوق تلة تطل على التاريخ و«السين»، والمدرسة ذات الغرف العارية، الواحدة، الباردة، المظلمة منذ بعد الظهر، في بتدّين اللقش.

لكن هذا طبعاً لم يكن الفارق الوحيد. فنحن سوف نعرف بعد قليل ومن قراءات الجدران وحدها أن الليسيه «لوي لوغران» الواقعة في قلب الحيّ اللاتيني عند نزلة شارع السان جاك الطويل، هي أيضاً مدرسة ذلك الطالب الحاصد كل جوائز التفوق: مكيسميليان ماري أيزودور روبسبيير!

هنا، بين العام 1769 و1781 يتجلى التلميذ الآتي من مدينة آراس ومعه منحة دراسية. وهنا يكون جزار المستقبل مثال الطيبة والتحفظ والتكرس، وهنا أيضاً يلتقي بعض صانعي الثورة فيما بعد. وهنا كذلك يبدأ الإعجاب اللانهائي بمفكر يدعى جان جاك روسو.

إنها الثورات: يصنعها المفكرون، ينفذها الآخرون! والثائر الذي ليس لديه مفكر يتباهى به سرعان ما يبحث عن غطاء، عن تفسير، عن ذريعة. وإذ يتطلع المفكرون إلى الثورات التي صنعوها أو أوحوا بها، يكتشفون غالباً أنه قد حدث لهم ما يحدث في صناعة السينما: من أجل الإثارة يضيع النص تماماً، حتى لا يعود في إمكان صاحبه نفسه أن يتعرف إليه. إذاً، روسو، هو نظرياً كل شيء بالنسبة إلى روبسبيير. وها روبسبيير يكتفي في البداية بأن يلمحه من بعيد مع بقية الباريسيين، ثم يكتب إليه بالحدث الجلل: «أيها الرجل العظيم لقد علمتني أن أعرف نفسي،.... لقد لمحتك في الأيام الأخيرة وإن هذه الذكرى بالنسبة إلي فرح عظيم أعتز به أيما اعتزاز».

ثمة رابطة قوية أخرى مع صاحب «العقد الاجتماعي». إنها الفقر وما يلحق به من مذلة. فالجوائز المدرسية كلها لم تستطع في النهاية أن «ترتق» حذاء روبسبيير «المقدوح». ومع هذا فإنه يُنْتَقى في العام

1775 كأفضل تلاميذ الكلية، وحين يأتي لويس السادس عشر وماري أنطوانيت لزيارة الليسيه لم تنتق الكلية أحداً سواه لإلقاء خطاب الترحيب بهما! وحين يتخرج، مجازاً في الحقوق، في صيف 1781، ينصرف إلى المحاماة في باريس، لكنه لا يلبث أن يشعر بالغربة وبالحنين إلى آراس فيحزم حقيبته ويعود إلى هناك للعيش إلى جانب شقيقته شارلوت وللعمل لدى أشهر محامي المدينة، «الميتر» غيوم فرانسوا ليبيريل، ذلك الأب السعيد لسبعة عشر ولداً.

وهذا الرجل الذي سوف يصبح طاغية فرنسا وطاغية العصور تكتب عنه شقيقته في تلك المرحلة: «عندما كنا نقول لأخي إن لديه أعداء، كان يرفض أن يصدق ذلك متسائلاً: وماذا فعلت لهم»؟

ثم يصبح المحامي قاضياً. وفي العام 1783 يصدر أول حكم بالإعدام على قاتل، لكنه يفعل بكل حزن وضمير معذب. وتكتب شارلوت: «عاد أخي إلى البيت واليأس يملأ قلبه ولم يذق الطعام طوال يومين». لكنه بعد ذلك سوف يأكل ويشبع. وسوف يظل يلتهم في الوقت نفسه كتابات جان جاك روسو.

هل للمرء أن يفتح هنا قوسين ضروريين عندما نتذكر أن روسو كان سويسرياً؟ لقد استقطبت أميركا واللغة الإنكليزية العلماء في العصر الحديث، لكن كانت فرنسا لا تزال تستقطب خلال كل عصر كل ما هو فكر وشعر وأدب: روسو كان سويسرياً. يونيسكو رومانياً. ذلك المكثار المدرار سيمونو بلجيكياً. كازانوفا كان عاشقاً إيطالياً، لكنه عندما اختار ضم الكتابة إلى العشق، اختار لذلك اللغة الفرنسية. خوسيه

ماريا دي هيرفيا كان كوبياً، لكنه انضم إلى الأكاديمية الفرنسية ككاتب رمزي فرنسي. والشاعر الرمزي الشهير جان موریاس هو في الواقع اليوناني بابادينا متروبولوس! لعنة الله على مثل هذه الأسماء الطويلة. أما الشاعر أبولينير، فهو لقيط من روما كان يحمل اسم ويلهيلم ابولیناریس دي كوستروفيسكي!

أغلق القوسين!

لقد كان الطالب روبسبيير هو الذي ألقى كلمة الترحيب بماري أنطوانيت ولويس السادس عشر وهو أيضاً سوف يرسل ماري أنطوانيت فيما بعد إلى أكثر المقاصل بشاعة وتفظيعاً في التاريخ. واليوم ثمة من يثبت في فرنسا ومن يقسم بأن ماري أنطوانيت لم تكن هي على الإطلاق تلك المرأة التي قالت للجائعين الفرنسيين: اذهبوا وكلوا بسكوتاً. واليوم أيضاً يتعلم الطلاب الفرنسيون في مدارسهم أن أهداف الثورة والملك لويس السادس عشر (ذلك الأمير) كانت واحدة في أشياء كثيرة، أولها اللغة. إذ قبل الملك كان في فرنسا ثلاثون لهجة مختلفة هو الذي بدأ في توحيدها، وهو الذي جعل الفرنسية لغة الجميع، مع أن نابليون سوف يجعلها فيما بعد لغة الجماهير أيضاً. لقد أبقى ذلك الكورسيكي الحاد الكتفين والحاد الذكاء ملايين الفرنسيين تحت السلاح لمدة عشرين عاماً على الأقل، وجرد فرنسا من جيل كامل من الرجال، غير أن أولئك الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة عادوا على الأقل وهم يتحدثون لغة قومية واحدة: الفرنسية!

obeikandl.com

بل الحقيقية أن اللكنة الكورسيكية الغالبة على لهجة نابليون الأول لم تؤثر في وضعه أمام ضباطه؛ لأن معظمهم كان أيضاً يتحدث الفرنسية بطريقة مزرية. ويقال إن أحد كبار هؤلاء، الماريشال كليبير، وهو من ستراسبور، كان يجيد فقط اللغة العامية... الألمانية!

لكن الثورة سوف تتخطى لويس السادس عشر في أنها جعلت اللغة كل شيء. ومع روبسبيير سوف تولد تعابير جديدة لم تعرفها اللغة من قبل. وسوف تصبح الفصاحة أو البلاغة سلاحاً رديفاً للقتال. فالذي يربح في الخطابة يربح الثورة ويفوز بالحكم. غير أن روبسبيير سوف يقتل في نهاية الأمر بهذا السلاح بالذات ويسوق نفسه إلى مقصلة ذاته. ففي جلسة «المؤتمر» التي اعتقل خلالها روبسبيير حاول إحدى عشرة مرة أن يتكلم فلم يستطع، وعندها تقبل قدره وأطلق رصاصة في فمه.

❀❀❀

العقرب تموت بسمها. وروبسبيير الذي ربح كل معاركه بالخطابة مذ كان محامياً متدرجاً في آراس يموت بفعل الصمت، مختنقاً بالكلام الذي منع من أن يقوله. فالثورة الفرنسية آنذاك كانت في نهاية الأمر كلاماً فوق كلام. وخطابات لا حداً لها ولا نهايات. فالخطاب الجيد يمكن أن ينقذ رجلاً أو حزباً. والخطاب الرديء قد يؤدي إلى المقصلة فوراً. إنها اللغة، تستخدم مرة أخرى كمثال وقياس قومي، لكن هذه المرة تطغى المشاعر على المنطق وتطفو الحماية على الحقيقية، والكذب على الخلق. فالخطيب الممتاز هو الخطيب الذي

يعرف كيف يثير لا كيف يقنع. وأفضل الخطباء كما كان يقول دانتون هو ذلك الذي يبعث على الارتعاش في سامعيه. وقد اكتشف خطيب الثورة الأكبر ميرابو، على الفور، مزايا روبسبيير حين قال إن «هذا الشاب سيصل إلى مراتب كبيرة. فهو يصدق حقاً ما يقول».

لقد رأى الخطباء في أنفسهم مجالس الشيوخ في روما القديمة. بل خيّل إلى بعضهم أنها روما نفسها تتكرر بمجرد أنهم لجؤوا إلى الاستعارات والشواهد. وها هو فيرنيكو يقول لرفاقه: «لقد جعلتموني أصوت على موت الملك والآن تنتقدونني بسبب ذلك. إنكم مثل كاليغولا الذي اغتصب شقيقاته ثم أرسلهن إلى المنفى بتهمة الزنى».

لقد عام «المؤتمر» فوق بحر من الكلام المنمق والسجع والإطناب. والذي يقرأ خطب فيرنيكو أيام الثورة يخيل إليه أنه يقرأ أندريه مالرو أيام «الجمهورية الخامسة». إذ، هل لك أن تعرف من منهما الذي قال: «إننا نخشى على فرنسا وسط انتصاراتها الباهرة أن تظل مثل تلك الأنصاب المصرية التي قهرت الزمان. فالغريب الذي يمر من هناك تبهره عظمتها، لكنه إذا شاء أن يدخل إلى تلك الآثار فماذا يرى؟ رماد وصمت القبور...».

طبعاً خطيبنا هو فيرنيكو، وإن تحدث عن الحضارات القديمة التي كان مالرو مهووساً بها. لكن في ذلك الزمان كان الفرنسيون يحلمون بإمبراطورية مثل روما، ومن أجل ذلك داسوا كل شيء، ولم يكن ممكناً إرضاء قادة الثورة وسادتها إلا بالمزيد من الجثث والمقاصل. والنشيد

obeikandl.com

الوطني أو «المارسييز» الذي كتبه ضابط شاب في العام 1792 هو دليل آخر على التأثير الروماني. فهو مليء بالإشارات إلى الفصائل والكتائب، ومليء أيضاً بالمشاعر النبيلة، لكنها ملطخة بالدماء. ويقول سانش دوغرامو، إنه النشيد الأكثر تعطشاً للدماء في العالم، وكلمة «دماء» تتردد فيه بإلحاح اللازمات في الأغاني الشعبية. وقبل الثورة كانت دماء العدو بالنسبة إلى الفرنسي حمراء مثل دمه، لكن بعد الثورة لم يعد العدو رجلاً كريماً، بل صار وحشاً آتياً لتدنيس الأرض بدمائه الوسخة.

كانت تلك حكومة الألسنة الذهبية. ولا شك في أن روبسبيير كان سيد تلك الألسنة من دون منازع. ففي ثلاث سنوات ألقى 500 خطاب. وقد أمر «لجنة السلامة العامة»، بأن تتلو هذه الخطب في كل مكان، وكان هو وحده يقرر من يعزل ومن يكرم وإلى من تعطى المناصب. لقد كان هو الثورة، هو الميزان، هو المقياس، ولذا فهو غالباً ما حمل على أولئك «المحتالين الذين يقفون دائماً إلى هذا الجانب من الحق أو ذاك». وتكراراً كان يؤكد أنه وحده يستطيع أن يجعل «صوت الحق يرتفع عالياً».

والواقع أن روبسبيير حقق كل شيء بالصوت المرتفع فقط. فهو من الناحية الرسمية لم يكن سوى عضو في «لجنة السلامة العامة». لكنه تخطى الجميع عن طريق المعارضة والتطرف. فهو الذي يدعو إلى إرسال الناس إلى المقصلة من دون محاكمة.

obeikandl.com

الحكم وحده يكفي ولا ضرورة للإدانة. وبعد ممارسته هذا الأسلوب ضد الملكية راح يمارسه ضد رفاقه. وها هو يرسل دانتون إلى المقصلة. لقد كان بارعاً في توجيه الاتهام إلى الآخرين قبل أن يتهموه، بارعاً في إشعار الأبرياء بعقدة ذنب لم يرتكبوه ولم يسمعوا به. وعندما كان يوجه التهمة إلى أحد كان ينكر عليه حق الدفاع، كما كان يؤمن بعقاب واحد: المقصلة!

كانت كل قوته في التعسف والاستبداد والعدالة اللقيطة. لكنه لم يلبث أن أصبح ضحية المنطق الذي فرضه. إذ كلما ازداد عناداً ازداد الوضع سوءاً... وازدادت شهيته إلى البحث عن مزيد من «الخونة». وهكذا ازدادت القناعة لدى معارضيه بأن الحل الوحيد هو إزالته من الطريق. ومع ازدياد أعدائه كبرت عزلته الرهيبة حتى لم يعد يحضر جلسات "المؤتمر". وقد غاب عن جلسة "لجنة السلامة العامة" أربعين يوماً، وحين ظهر من جديد كان سلاحه الوحيد خطاباً مكتوباً على ورقة يطويها في يده. لكنه الخطاب الذي لن يسمح له بإلقائه. لقد سمحوا له فقط برصاصة في الفم. وسوف تنجو فرنسا فيما بعد من رعب روبسبيير وإرهابه، لكنها ستحافظ بكل دقة على عشقها للغة وهوسها بالبلاغة والتنسيق. فالنقاش في فرنسا ليس من الضروري أن يؤدي إلى قرار: إنه غاية في ذاته. والإيمان بقوة اللغة يجعل الفرنسيين يضعون الكلام في مصاف الأعمال. فالتهمة إدانة. والدعوة إلى السلاح انتصار. والدعوة إلى الإصلاح... إنجاز، أو كما قال أحد

obeikandl.com

خطباء «الجمهورية الرابعة» بالحرف: «لا، أيها السادة، لا يمكن لهذه الحالة أن تدوم، ولابد لأحدنا من أن يضرب ضربته القاضية... ولذا فإنني سأكتب مقالاً في هذا الشأن»...

يتطلع الفرنسيون خلفهم فيجدون تاريخاً معقداً، متناقضاً، متدافعاً، متهالكاً، مليئاً بالهزائم، حاشداً بالانتصارات ومحبوكاً بالغدر: الثورة تأكل كل شيء وفي النهاية تأكل نفسها، البطل بعد الآخر، الخطيب بعد الآخر، الجيروندیون ثم اليعاقبة. الكبار ثم الصغار سوف يلتحقون على مدى السنين بتلك القافلة التي بدأتها ماري أنطوانيت، تلك الملكة التي حولها موتها ومحاكمتها الحقيرة من ظالمة إلى مظلومة، من امرأة مهانة إلى سيدة تنسل بهدوء إلى موتها، بكرامة ما بعدها كرامة.

وسوف تظل هذه السلسلة الطويلة من الرؤوس تتساقط تحت مصابيح الغاز الناعسة، وفي الأزقة المعتمة من باريس والأرياف والمدن المتوسطة، إلى أن يحسم نابليون الأمر بعد سنوات وينقل الجمهورية إلى الخارج، تتقاتل هناك مع نفسها ومع الآخرين أيضاً.

ومع نابليون تبدأ الجمهوريات بالتكوّن... ثم بالتساقط أيضاً. ومعه كذلك تبدأ العلاقة المنظمة بين الدولة والدين من خلال «الكونكوردا» التي وقعت مع الفاتيكان. ومعه تتساقط ثمار الثورة على فرنسا في كل مكان، مثل مواسم البروفانس التي تشبه حديقة من الزهر مسورة

بالسرو والصنوبر. ثم بعد الثورة، سوف تنمو فرنسا من دولة متقهقرة تمزقها ألف عاصمة، وسوف تنوء تحت كل الحروب التي تخوضها مع كل الناس، وفي كل الاتجاهات إلى أن يربح من أجلها الحرب الكونية الثانية رجل يدعى شارل ديغول وتبدأ منذ ذلك الحين عملية الخروج من شرنقة التفتت والانحسار. ولكن كيف ربح ديغول تلك الحرب؟ إنه لتاريخ مضحك حقاً. لقد ربحها، في الواقع مثل روبسبيير، مثل دانتون، مثل المسيو دومولان. مثل العزيز ميرابو: بالخطابة!

لا، طبعاً، الثورة الفرنسية لم تكن كلها جرائم ورؤوساً معلقة ومحاكمات تافهة. بل ثمة الكثير من الضوء الذي أطل من ظلام الدهاليز، وثمة عقول منيرة كثيرة رأت فرصتها للمرة الأولى من خلال ذلك الطوفان البشري في نهر الدماء وبركان الدموع. وربما من دونها، من دون تلك الثورة، كانت أشياء كثيرة قد ظلت في العتم إلى اليوم. لكن السؤال دائماً هو: إذا كانت الثورة ضرورية فهل كان روبسبيير ضرورياً أيضاً؟ وإذا كان لابد من الثورة الروسية، حيث كان الإقطاع يملك 98 في المئة من الأرض، هل كان من الضروري أن يمر على الثورة رجل اسمه ستالين، ومعه في وقت واحد وزمن واحد وعصر واحد، ظل وحشي آخر يدعى بيريا، يئد الأطفال ويرسل زوجة ستالين نفسها مرغمة إلى مصح عقلي؟

الحقيقية أن كل الثورات التي حدثت بعد العام 1789 تبدو في معظم تفاصيلها وكأنها تكرار، جيد أو ممسوخ، للثورة الفرنسية. وكما أن كتابات روسو توزعت على كل بيان أو بلاغ أو مقال صحفي صدر خلال الثورة. هكذا توزعت كتابات ماركس في روسيا. والثورات

التي اقتدت بها فيما بعد كانت تبحث لنفسها عن مفكر أو تعين مفكراً ما، غير أن الأمر غالباً ما يكون مضحكاً: ثمة فارق هائل بين أن يكون المرء مفكراً أو أن يكون ناسخاً، عبقرياً أو قرداً! وكل ما فعلته الثورة الروسية عملياً هي أنها نقلت الثورة الفرنسية حرفاً حرفاً. فـ«المخلوق الأعظم» في العام 1790 سوف يصبح هو أيضاً «السيد الأول» في العام 1917 في موسكو. وسوف تستهدف الثورة الروسية الإكليروس بالدرجة الأولى وتمزق عباءات الكهنة والرهبان، كما فعل المسيو روبسبيير الذي ذهب إلى أبعد من ذلك عندما وضع صلاة كاملة، نكاية بالكنيسة، تقول: «نؤمن بإنسان واحد» بدلاً من إله واحد. لكن أي إنسان ذلك الذي آمن به المسيو روبسبيير الرجل الذي سوف يرسل إلى الموت ثلاثة ملايين بشري، وهو بعد بين السادسة والعشرين والسادسة والثلاثين من عمره؟ وكيف يكون هناك إنسان حيث لا عدالة؟ وأي بشرية تكون هذه البشرية التي يتولى فيها المسيو فوكييه ـ تانفيل منصب المدعي العام، أو بكل فظاظة «المتهم العام» (Accusateur Public).

طبعاً لا يستطيع المرء في هذه الأوراق العاجلة أن يدعي أي دراسة أو إعادة نظر في الثورة الفرنسية، لكنني سوف أختم هذه الأوراق بهذه السطور التي بعث بها المراسل البريطاني، ج.ج ميليغان في تشرين الأول (أكتوبر) 1793 عن «المحكمة الثورية في باريس»:

«لن أنسى على الإطلاق ذلك المنظر المحزن لتلك المواكب الجنائزية إلى ساحة الإعدام. إذ كانت تتقدم تلك المواكب فرق من رجال الدرك على ظهور الخيل تتبعها العربات التي تحمل المحكومين. وكانت تلك

العربات هي نفسها التي تستخدم في باريس لنقل الأخشاب، وقد قوطعت بأربعة ألواح خشبية كمقاعد تجلس على كل منها ضحيتان أو ثلاث، وقد أوثقت أيديها إلى ظهورها. وإذ تقفز العربة فوق البلاط تهتز رؤوس المساكين باستمرار إلى فوق وتحت وسط ابتهاج المتفرجين. وعند مقدم العربة كان يجلس شمشون الجلاد أو واحد من أبنائه أو مساعديه. وإلى جانب كل عربة كان يسير عدد من الدرك على أقدامهم، وفي آخر الصف، كانت هناك عربة «المقرر» الذي كانت مهمته أن يشهد الإعدام ثم يعود إلى فوكييه ـ تانفيل لكي يبلغه بما يسمى تنفيذ حكم القانون».

كان لكل شيء اسم طنان ولقب كبير. وقد جعل المسيو فوكييه ـ تانفيل أحد أكبر مجانين الدماء عبر العصور، تلك اللغة الجميلة في خدمته وفي خدمة تلك السادية التي وصم بها القضاء. فالكوة التي كانت توضع فيها الرؤوس في قلب المقصلة كان اسمها «النظارات الجمهورية»، ومساعدو الجلاد شمشون الذين كانوا يدفعون الشباب الخائفين إلى حتوفهم كانوا يسمون... صدق أو لا تصدق: «تلامذة منفذ أعمال القضاء السامية!»

لقد كانت صفحة رهيبة من تاريخ فرنسا التي أسعفها الحظ بإرسال كورسيكي طموح يضع حداً لتلك الموجة الفظة من الجنون المفتوح، ثم يأتي فرانسوا ميتران بعد مئتي عام فيلغي المقصلة إلى الأبد لعله يلغي بذلك الذكريات الأكثر بشاعة في تاريخ فرنسا. وتبدو

فرنسا اليوم، وكأنها تخشى النظر أبداً إلى الوراء: غدر ومؤامرات وعدالة شاذة تدعي أنها العدالة، ولذا تتطلع باريس دائماً إلى الأمام: دولة معاصرة تعيش منذ الآن في القرن المقبل ويتنافس على رئاستها مستقبلون مضيئون مثل ريمون بار وميشال روكار ويتشارك في حكمها رجال في ذروة الواقعية السياسية مثل ميتران وشيراك.

هل كان المسيو روبسبيير ضرورياً لكي تصل فرنسا إلى مرحلة من الرفاه العقلي والترف الفكري، بحيث يكون المسيو بار مرشحاً للرئاسة والمسيو روكار مرشحاً أيضاً؟ هل كان المسيو فوكييه ـ تانفيل مسموحاً في بلد كان يتلحف بروسو وينام على وسائد فولتير ويفيق، فإذا المسيو شاتوبريان قد انتهى من كتابة "رونسيه" لكي تقرأ فرنسا وتظل تقرأ وتظل تقرأ؟

كم هو رائع بلد قدره الكلمة، سواء حكمه «الملك الشمس» أم ذلك المحامي المريض بحب القبور الآتي من آراس، أم إضاءة من إضاءات العصور الحديثة يتمدد الآن عملاقاً على مسافة التاريخ الفرنسي كله ويرقد هادئاً في قرية صغيرة تدعى «كولومبيه ـ لي دو زيغليز».

obeikandi.com

كلمات... كلمات... كلمات

حملت إليه قصيدتي الأولى خائفاً كمن يحمل باقة إلى معلم. وكانت الدنيا يومها حقبة جميلة. ولم نكن نعرف يومها أن الحقبة الجميلة سوف تكون حقبة جميلة ويتيمة بين حقبتين بشعتين، ولا كنا نعرف أن سلام لبنان الجميل يقع دائماً بين حربين. وكان اسمه يومها ملء التساؤل وكان شعره خليطاً من الندى والشوك. من اليأس والحذر. وكان شعره مثل الريح إذا تحولت إلى نغم، أو مثل الوردة تولد من طرف العاصفة.

كان قد قبل سنوات قليلة في مسحة من الغبار. غبار الورق والشعر، وذلك النثر الذهبي الذي هو حيرة النثر والشعر، الذي هو كلمة ثالثة فيها كينونة الشعر وبدعة النثر. وقد جاء الكتابة مخالفاً، معترضاً متمرداً، بالغاً الفرح والنشوة فقط في اكتمال الحزن النفسي. وجاء الكتابة ومعه كلمات. كلمات. كلمات. ولا شيء سوى الكلمات. كلمات. كلمات في الهواء مثل ورق جرائد الأمس ومثل الصدى، كلمات في الهواء، ومثل شقائق النعمان في هواء نيسان.

وحين حملت إليه قصيدتي الأولى كنت أعرف جيداً وأؤمن تماماً أن، هذا النحيل الشديد الاعتراض بذقن حادة مثل حكماء الصين، هو هذا الضخم الشعر والنثر والضوء. فقد كان مثل منارة استطاعت

الانزواء والتنسك وسط الساحة العامة. وكان مثل المبشرين الذين فقدوا الكلام، وكان منضوياً في زاوية نفسه، معاهداً للشعر والكلمات. كلمات.

وكان كل شيء في بدايات تلك الحقبة الجميلة جميلاً ورائعاً حقاً. تشرق الشمس على لبنان من مكان إلى مكان ويعلو صوت صبية الصحف؛ لكي يبيعوا الناس باقات من الحبر وباقات من زرقة البحر وقد تراخى على أقدام بيروت العتيقة متهدلاً مترنماً مثل آخر العتابا. وكانت بيروت مطلة على الشرق ومفرقاً من مفارق الغرب. وكانت صحفها الفقيرة الصغيرة السمراء الورق، التي تكتب عناوينها بأطراف القصب تشع فكراً وأدباً، وربما سياسة في بعض الأحيان. وكانت "النهار"، كل "النهار" عبارة عن ثلاث أو أربع غرف، نصفها للتحرير ونصفها للطباعة ونصفها ليوسف قرقماز، القهوجي الذي عرف حقيقة الناس من زمان، فأعلن تأسيس «جمعية الكلاب» وأعلن نفسه رئيساً عليها.

وفي زاوية إحدى هذه الغرف كان يجلس أنسي الحاج، في زاوية، زاوية من زوايا نفسه. ومن وراء طاولة خشبية عتيقة ومقشرة مهلهلة الزوايا كان أنسي الحاج يملأ كل يوم زاوية «فكر وفن وأدب». وكانت هذه الزاوية هي أطول النوادي الأدبية عمراً في تاريخ لبنان، وكانت هي جمعية أهل القلم التي لا تتفكك، وكانت هي المنتدى وهي البيدر الذي منه ستطلع حركة «شعر» ومجلة «شعر» أيضاً. وفي هذه الزاوية كذلك كان يولد الشعراء والكتاب والصحافيون

ومن تحت قناطرها يعبرون إلى عالم الكلمة المكتوبة قبل أن يكبروا وينموا ويبلغوا سن التشرد، حيث يشاؤون في تيه الغبار والورق وأرق الوطن المسحوب من مواطنيه.

وكان أنسي يرعى هذه الزاوية مثل رعيان المروج: ثمة مكان للغنم الأسود وللغنم الأبيض. وللكلمة حريتها تولد معها كاملة مستكملة. وللكاتب أسلوبه، وللشاعر رؤياه، فلا يلمس شيئاً، ولا يشوه شيئاً، ولا يفرض ضحالة التصحيح الأدبي على روعة الخلق والفكر. ومن هذه الزاوية ولد عصر أنسي الحاج وزمنه. عصر متعصر بالثقافة والفكر والاعتراض على المألوف في السياسة والسخيف من المألوف في الأدب، ولكن من دون المساس بالجوهر والجماليات وعمق الأشياء.

وقد كانت ثمة مرحلة أصبحت فيها «أدب وفكر وفن» هي الاستقطاب الكلي لكل ما هو فكر وأدب وفن. ومنها أيضاً سوف يولد «ملحق النهار» باعتباره أول جريدة أسبوعية أدبية وسوف يلحق الطالعون والقدامى بأنسي الحاج إلى «الملحق» حيث تصبح «كلمات. كلمات. كلمات» صباح كل أحد زاداً روحياً وطقساً من طقوس الحياة الأدبية وأحياناً الوطنية أيضاً. فهذا الشاعر المنسحق بالمرأة، بالشعر، بالفكر، بالينابيع هو أيضاً وجه الشاعر الذي لم يرَ في الحلم وفي الكابوس أن وطنه يتداعى فوق رأسه ورؤوس الآخرين. وحين يهرب الآخرون أو ينسلون إلى المساومات يبقى الشاعر صامداً، شاهداً على ذوبان الثلج عن أكوام القذر. ولما انتهت الحقبة الجميلة ولم يعد الكلام هو الكلام والكلمات هي الكلمات. الكلمات. الكلمات، اختار أنسي الحاج أن يغلق زاويته وأن ينضوي في زاوية نفسه.

وإذ تنزل إلى الأسواق الآن المجلدات الثلاثة من «كلمات. كلمات. كلمات» يستعيد المرء معها تلك الحقبة الذهبية يوم كل شيء كان يكتب بالذهب. وهذه المجلدات سوف يقتنيها البعض على أنها حرز في مكتبة. أما أنا فإني أعلقها مدرسة في العلم مليئة بالذكريات.

obeikandl.com

التهاب الجيوب

ما كنا نعرفه بـ«الرشح» أو «البرد» يعرفه السكان الأصليون في هذه البلاد بالتهاب الجيوب. وكان السائد عندنا أن ثمة نوعاً واحداً من الجيوب يصاب بالالتهاب أو الالتهام، لكن تبين لنا في بلاد الإنكليز أن جيوباً أخرى تصاب ويصير معها صوت المرء مثل صوت الماعز أجلكم الله.

ومن أعراض الجيوب... الشخير! ولذا فإنه عندما نصحني الأطباء هنا بإجراء عملية جراحية للتخلص من داء الجيب (على وزن داء الجنب) قيل لي إن من فوائدها التخلص من الشخير وبالتالي تطمين العائلة إلى أن في إمكانها بعد اليوم النوم في الليل مثل سائر العباد. ولكن يا للأسف فقد ذهبت الجيوب وبقيت السمفونية تقلق أهل الدار وجيراني في الطائرات والقطارات والفنادق الرقيقة الجدران، وكل مكان استسلم فيه للنوم.

وعندما تعرفون أن الداعي لكم بطول العمر ينام في أي مكان، حتى وراء المكتب، تعرفون كم هو عدد المعذبين في الأرض... بالإذن طبعاً من طه حسين وذكراه المئوية. وقد حدث قبل أسبوعين أن اضطررت إلى السفر إلى الريف البريطاني برفقة بعض الأحبة. وحين وصلنا إلى الفندق القديم اكتشفت أمرين: الأول أن الجدران رقيقة، والثاني أنني مصاب بالتهاب رهيب في الجيوب المذكورة... أنفاً (من أنف).

وأشفقت سلفاً على جيراني في الغرفة المجاورة. وقررت تلك الليلة أن أطيل السهر ما استطعت؛ حتى يكون أهل الغرفة التالية قد ناموا، بحيث لا تبدأ السمفونية، وهم سهارى فيغلبهم الكرى ويتعذر عليهم النوم أو يستحيل!

وانتصف الليل وأنا أقرأ. وحين شعرت أن الجيران قد ناموا وأن الريف البريطاني كله قد هجع ولم يبق في الخارج إلا تلوي الشجر والرياح، نمت متعباً. لكن يبدو أنني ما إن نمت، حتى استفاقت الجيوب مرة واحدة كما تستفيق الثكنات العسكرية. أما كيف عرفت ما حدث وأنا نائم... فقد قرأت ذلك في وجه جاري اليوم التالي. لقد بدا المسكين متعباً مجهداً مسهداً، كأن به ضعفاً، وقد ألقى علي نظرة عتاب عميقة ومشى.

وتخّيلت ماذا حدث الليلة البارحة، وذهبت إلى غرفتي وحزمت حقيبتي ثم نظرت إلى صالة الاستقبال؛ لكي أرجو الموظف أن ينقلني إلى غرفة أخرى. واشترطت أن تكون الغرفة في الجناح الحديث من الفندق، وأن تكون في آخر الجناح، وأن تكون في آخر الفندق وأن تكون، إذا أمكن، بين غرفتين خاليتين! وقبل الموظف بكل الشروط إلا الغرف الخالية فهذه صعبة والفندق مليء. وتنفست بارتياح وأنا داخل الغرفة الجديدة. وطرقت جدرانها فاحصاً فوجدتها مسلحة ومبطنة ومضادة للشخير وكل أنواع الضجيج الأخرى كالمغاسل والحمامات وغيرها.

وبعد ظهر ذلك اليوم مررت في البهو بجاري السابق فهززت كتفي تعالياً، كأنني أقول له عليكَ بالنوم هذه الليلة ما تشاء فقد حملت شخيري وذهبت.

لكن الجار السابق لم ينم تلك الليلة. فقد اختار المسكين أن يكون جاراً لاحقاً أيضاً. إذ ما أن طلع عليه فجر ذلك الصباح، حتى كان يذهب إلى موظف الاستقبال، ويقول له بشيء من التوسّل إنه يفضل الانتقال إلى غرفة أخرى، ويفضل أن تكون في الجناح الحديث من الفندق، وأن تكون في آخر الجناح، وفي آخر الفندق وإذا أمكن، بين غرفتين خاليتين.

وأعطاه الموظف غرفة مستكملة الشروط إلا حكاية الغرف الخوالي. وبين الغرفتين المجاورتين للرجل المسكين كانت هناك غرفة ملأها بي وبشخيري، وبالتهاب الجيوب، وقد أضيف إليها تلك الليلة سقوط اللوزتين وصعود الطبقات الصوتية. وعندما أوى الجار المسكين إلى فراشه مطمئناً إلى أنه ترك الشخير في الطرف الآخر من الفندق إنما كان يحلم... قبل أن ينام. وبما أنني كنت أجهل بالطبع أن الرجل قد اختار التجاور مجدداً، وأن صوتي يمكن أن يخرق الإسمنت المسلح، فقد استسلمت للنوم باكراً في سريري... فيما استفاقت كل الأسرَّة الموسيقية في العالم وراحت تصر صريرها.

... وصباح اليوم التالي خرجت من الغرفة ففوجئت بجاري يخرج من غرفته أيضاً. وكان يبدو أشد نحولاً وأكثر أرقاً وبالطبع أكثر غضباً. ورأيته يتجه نحو موظف الاستقبال فلحقت به، وقلت له بكل

جدية وصدق: إذا كنت تنوي أن تغير غرفتك فقل لي أين ستكون، لكي أظل بعيداً عنك. وضحك الرجل طويلاً، وضحكت. وتقدمنا معاً من الموظف يطلب كل منا غرفة أخرى.

وكما يحدث في المسرحيات الهزلية قال الموظف إنه ليست لديه غرف خالية، وإن علينا الانتظار إلى ما بعد الظهر. لكنه بعد قليل طلبني؛ ليبلغني أنه عثر على غرفة لي. ويبدو أنه ترك عمله عند الظهر من دون أن يبلغ زميله المناوب برغبة جاري السابق اللاحق، فما إن خلت غرفة أخرى، حتى أعطيت لصاحب الحظ الكبير والجار المسكين.

وفي الليل أوى كل منا إلى فراشه من دون أن يعرف بما حدث. وصباح اليوم التالي صعقت عندما رأيته يخرج من غرفة مجاورة. لكن هذه المرة كان يرتدي ثيابه كاملة ويحمل حقيبته. وقبل أن أسأله أي شيء قال ضاحكاً باكياً: لقد عثرت على غرفة في فندق آخر، ثم أكمل: طبعاً في مدينة أخرى!

obeikandl.com

سيدة في الصف الطويل

كان نهاراً خريفياً. وكانت الساعة قرابة الخامسة بعد الظهر وكانت محطة القطار شبه فارغة في «تورنتو». ربما كان ذلك اليوم يوم عطلة، أو أن الساعة نفسها لم تكن ساعة ازدحام. لكن المحطة بدت شبه خالية في أي حال. وأذكر جيداً الآن كيف كان بلاطها العتيق الأصفر يلمع وكيف كان بالإمكان أن تسمع وقع الأحذية القليلة. وكان هناك عدد قليل من الناس في انتظار قطار ذاهب أو آتٍ.

لا شك في أن الفصل كان خريفاً، فقد قال لي موظف التأشيرات قبل أيام، وكأنه يغبطني: «آه، سوف تصل إلى هناك، وقد احمرت الأوراق على الشجر»! والكنديون ليس لديهم سوى الخريف يحنون إليه من بين الفصول، فإن ما قبله صيف لاهب وبعده شتاء طويل مثل ليل المؤرقين. لاشك، إذاً، في أنه كان يوماً خريفياً. وكان يوماً هادئاً وناعساً، وكانت محطة القطار تحمل ملامح الصمت والتأمل، مثل جميع نقاط السفر. وكان هناك في الزوايا بعض الذين ينامون فوق حقائبهم؛ انتظاراً لرحلات طويلة عبر تلك البلاد الشاسعة. وحين تقدمت إلى نافذة التذاكر كانت تقف أمامي فقط سيدة مسنة. وبدا الموظف الذي يرتدي سترة زرقاء داكنة، وكأنه الوحيد هناك أو كأن جميع موظفي السكك قد أحيلوا إلى التقاعد ذلك النهار. ووقفت أنتظر. كنا في الخريف. وكانت السيدة واقفة أمامي تستعلم عن رحلة

سوف تقوم بها في حزيران أو في أيار على أقرب تقدير. وكان الرجل يجيب. يسمع ثم يجيب. يصغي ثم يبتسم ثم يجيب. ثم يبتسم. ثم ينحني أمام السيدة المسنة؛ ليشرح لها على خريطة تحملها، كيف سيقطع القطار وديان الغرب الكندي وأين يتوقف ومن أي نافذة يمكنها أن تشاهد الجبال، ومن أي جانب تستطيع أن ترى البحيرات.

ووقفت أنتظر! وبعد دقائق تطلعت خلفي فوجدت أن الصف الذي كنت أقف فيه وحدي مع السيدة المسنة قد أصبح طابوراً طويلاً من الناس. وظل الطابور يكبر والرجل ذو السترة الزرقاء يبتسم. ويشرح. ثم يصغي ثم يبتسم. وأخذت أتأفف. وبعد قليل بدأت أخشى أن ينفجر أهل الطابور، وأن يهجموا على الرجل ويرموه أرضاً. وتطلعت خلفي، فإذا أهل الطابور يبتسمون. ينتظرون ويبتسمون. كان بعضهم يقرأ صحيفة ما، وهو يضع حقيبته بين ساقيه، والبعض الآخر يقرأ كتاباً ما، والبعض الثالث لا يقرأ شيئاً. فقط يبتسم وينتظر.

وامتد الطابور على مدى المحطة تقريباً والرجل، ذو السترة الزرقاء الداكنة، يقلب الخرائط. كان يوماً خريفياً جميلاً. وكان هذا الرجل يشرح بكل صبر وأناة لسيدة مسنة كيف يمكن لها أن توفر خمسة دولارات إذا هي سافرت إلى المقاطعات البحرية في حزيران، بدلاً من تموز، ويقول لها ماذا يجب أن تشاهد إذا وصلت إلى «مانيتوبا» في أيار! ولم يكن هناك شك لدى أحد في أن كل ما كانت تريده تلك السيدة هو التحدث إلى مخلوق ما، غير كلبها الصغير الذي كانت تؤنبه بكل لطف بين فترة وأخرى. لقد كانت تريد أن تقتل وحدتها في مكان، فلم تجد أفضل ـ أو ربما أقرب ـ من محطة القطار.

وأخيراً، أخيراً، لم يكف الرجل ذو السترة الزرقاء عن الابتسام. ولم يتوقف عن الإجابة. ولم ينتفض في وجه المرأة المسنة. بل كل ما فعله، أخيراً، أنه ترك نافذة التذاكر قليلاً ودخل إلى المكتب وطلب من زميل له، كان على الأرجح في استراحة، أن يفتح نافذة أخرى لبقية الطابور! وانتقلنا جميعاً من ذلك الصف الطويل إلى النافذة الأخرى، بينما ظل الرجل ذو السترة الزرقاء الداكنة يبتسم، وظلت السيدة المسنة تطرح الأسئلة حول رحلة حزيران أو أيار على أقرب تقدير.

ولاحظت أنني كنت الوحيد الذي تأفف. وكنت الرجل الوحيد الذي تذمر وخطر لي وأنا في القطار إلى «أوتاوا» بعد ذلك بقليل، أنني تذمرت؛ لأنني كنت قادماً من بلد ليس فيه مقعد عام واحد للمتعبين وللمسنين. من بلد ليس فيه رصيف واحد للمشاة، من بلد ليس فيه حديقة واحدة للأطفال. وقادماً من مدينة ليس فيها استراحة واحدة للبشر. مدينة بنيت حجارتها فوق بعضها البعض وارتفعت مبانيها في العلو وكثرت دكاكينها وتوالدت مخازنها، لكنها لم تزرع شجرة واحدة يستفيء بها الناس، ولم تقم منتزهاً واحداً وتركت المسنين لشرفات المنازل يمضون بقية أعمارهم عليها.

ومنذ ذلك اليوم الخريفي، وأنا أحب كندا، ويضحك مني أصدقائي ويقولون إنني أعاني حباً خفياً للدببة وثلوج القطب. وتتضايق مني زوجتي كلما قلت لها إن علينا أن نسافر إلى هناك، ويسألني بعض الرفاق كيف تحملت ذلك البلد المليء بالثلوج، والضجر والشتاء الطويل.

وأفضل دائماً ألا أجيب فنحن قادمون من بلد ليس فيه مقعد عام واحد للمسنين، ولا حديقة للأطفال.

obeikandl.com

obeikandl.com

«واخد صورة كويس!»

حضرت قبل أيام معرض المصور العالمي يوسف كارش في قاعة «الباربيكان» في لندن وشاهدت للمرة الأولى عن كثب تلك «اللوحات» الفوتوغرافية التي أسمع عنها منذ ثلاثين عاماً. ويوسف كارش الأرمني المهاجر إلى كندا من سوريا وبعيد الحرب العالمية الأولى هو «مايكل أنجلو» العدسة والرجل الذي جعل عين الكاميرا في قيمة الريشة والزيت والمائيات الساحرة ومكانتها. ويفاخر المشاهير في هذا العالم، سواء أكانوا قادة مثل تشرشل أم مثقلات بالجمال مثل صوفيا لورين. إنهم وقفوا ذات مرة أمام كاميرا هذا الرجل الذي يعيش في «أوتاوا» ويعمل في نيويورك، وهو الآن يعرض في لندن بعدما أخذ أول صورة رسمية لأحفاد الملكة، وهو على أعتاب الثمانين.

وقد تذكرت، وأنا أنتقل أمام لوحات كارش أن معظم المصورين الكبار في العالم العربي كانوا دائماً من الأرمن. وقد أفقنا في لندن على إخواننا الأرمن، وهم يكسرون اللغة العربية تكسيراً رهيباً، فيصرون على تذكير المؤنث وتأنيث المذكر، لكنهم كانوا ماهرين أيما مهارة في الصناعة وفي الحرف، وخصوصاً في فن التصوير. ويُروى أن أحد أساتذة الأدب العربي سأل طالباً أرمنياً ما هو أفضل بيت قرأه المتنبي؟ فأجاب: «واخد بيت بيقول: بابور بيروخ هيك، هوا ملعون بيجي هيك». أي طبعاً «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن!».

كان الأرمن في بيروت يعيشون في أحيائهم الخاصة وفي عالم مغلق. باعتبارهم من أهل آسيا، فقد كانوا منقسمين أيضاً، وكما يحمل اللبنانيون أحزابهم إلى بلاد الهجرة حملوا هم أيضاً تلك الأحزاب، لكنهم كانوا يحرصون على أن يتم كل شيء داخل دائرة مغلقة تفوح منها روائح «البسطرما» و«السجق» وبقية الأفاويه وكأنك داخل إلى بقالة هندية. ولم يكن البيروتي يشعر بوجود الأرمن إلا في حالتين، إما أن يذهب إلى منطقة الدورة، وإما أن يذهب إلى المصور. أي مصور! وكان المصورون يملأون ساحة البرج، ومعهم آلات صغيرة سريعة أو... إستوديوهات كاملة، فتقف أمام نوافير المياه وتأخذ «بوز» وأنت تضع يدك على خدك..

واليد الأخرى على خد الزمن! وبعد نصف ساعة يسلمك «هاغوب» أو «وارطان» أو «خاتشيك» صورة تفوق الأصل بكثير، حتى تكاد لا تعرف لمن هي.

ومع ازدهار الصحافة اللبنانية ازدهرت الصورة الفوتوغرافية أيضاً. وطبعاً كان الأرمن هناك لا ينافسهم أحد ولا ينازعهم أحد. وكان في طليعة هؤلاء مصور «النهار» الرائع «سام» الذي كان شاعر الكاميرا، وقد علمها كيف تحكي. أما هو - رحمه الله - فظل يقول: «أنا بياخد واخد صورة ميشان انتا». وكان هناك أيضاً «همبار» مصور «الشرق الأوسط» الآن. وكان بين الكبار هاري قيوموجيان الذي أصبح اليوم رئيس التصوير في وكالة «الأسوشيتدبرس». وعندما انضم إلى

obeikandi.com

قسم التصوير في «النهار» شاب غير أرمني يدعى كلود صالحاني اعتبرنا أن في الأمر سرّاً ما... أو خطأ ما، وهو الآن رئيس التصوير لدى «اليونايتدبرس» في أوربا والشرق الأوسط.

ثمة علاقة غريبة بين الأرمن والكاميرا. وعندما هاجر يوسف كارش إلى كندا كان خاله قد سبقه إلى هناك؛ ليعمل... مصوراً طبعاً، غير أن ابن الأخت سوف يصبح أشهر «مصوّر وجوه» في العالم بعدما تتلمذ على يد أرمني آخر في مدينة بوسطن، هو جون غارو، وبين الوجوه التي «رسمها» كارش بعدسته الصورة الرسمية لجون كينيدي وصورة نيكيتا خروتشوف وأرنست همنغواي وجورج برنارد شو وبيكاسو ونهرو وأيزنهاور وبرتراند راسل و.. مارتن لوثر كينغ.

ويقول كارش إن مهمته هي «تصوير كبار النفوس والقلوب والعقول سواء أكانوا مشهورين أم مغمورين»، لكن الواقع أن لوحاته الشهيرة معلقة الآن في عدد من أهم المتاحف في العالم مثلها مثل أي أثر فني آخر. وقد طارت شهرة كارش في العالم في العام 1941 عندما ذهب تشرشل إلى أوتاوا. وكان رئيس وزراء كندا آنذاك المستر ماكينزي كينغ صديقاً لكارش، فقال لتشرشل اذهب وتصور عند هذا الأرمني. وبدلاً من ذلك ذهب كارش إلى تشرشل فوجده عصبياً متضايقاً بسبب أخبار الحرب. وما إن أخذ اللقطة الأولى، حتى قال تشرشل كفى... وهو يقطب جبينه. وفي تلك اللحظة كانت عدسة كارش تسجل الجبين المقطب، فصارت هذه أكثر الصور أهمية لدى

obeikandl.com

تشرشل، وصار هو من أشهر مصوري «البورتريه». كذلك أصبح كارش من كبار أساتذة التصوير في العصر الحديث يدعى إلى أكبر جامعات العالم للتدريس.

لكن الشيء الوحيد الذي لم يتقنه كارش هو التخلص من اللكنة الأرمنية التي تسيطر على إتقانه اللغة الإنكليزية. وربما كان السبب في ذلك أن المصورين ليسوا في حاجة إلى الكلام، ولا إلى الحوار. وإذا اضطر الأمر يضع المصور رأسك بين يديه، ثم يروح يزيح أنفك إلى اليسار وذقنك إلى اليمين وجبينك على أعلى. وبعد أن يتأملك طويلاً من خلال نفق جلدي طويل يتبين له أن الصورة "مش تمام بابا" فيعود إلى إصدار أوامر جديدة: «بابا انتا بيخلي راسو فوق بس بيتلطلع تحت عشان صورة يكون كويس».

وهذه اللغة النغلة التي لا تفهمها أنت تفهمها الكاميرا بكل صفاء. والذي يشاهد معرض كارش يخيل إليه أن العدسة تتحدث لغة واحدة: الأرمنية!

obeikandl.com

معليش وأخواتها

لا أدري كيف بنى الإنكليز قصر «الأميرالية» وقصر «وندسور» وقصر «باكنغهام» وجسر «هامر سميث» و«السان بول» وبحيرة «الهايد بارك» و«الماربل آرش!» ولا أعرف كيف بنوا لندن وجعلوا في سقوفها زخارف مثل نقش المناديل العتيقة، ولا أعرف كيف حفروا أنفاقها السيارة التي يستخدمها 800 مليون بشري كل عام؟!

فالحقيقة أن بين البنائين في لندن وكاتب هذه السطور أكثر من قضية شخصية. ويبدو أن ولي عهد بريطانيا وأمير بلاد «الغال» قرر أن يقف إلى جانبي فألقى في الأسبوع الماضي كلمة قال فيها إن المهندسين أحدثوا في لندن من التشويه أكثر مما أحدثه «اللفت وافي» أو سلاح الجو الألماني خلال الحرب العالمية الثانية. لكن للأمير تشارلز، الذي كان يشبه إلى حد بعيد «الأمير الصغير» في حكايته سانت أكزوبري، قبل أن يكتشف ساندريلا العصر، الأميرة ديانا، وقبل أن تكتشف الصحف كليهما فتروح تقصف حياتهما مثل «اللفت وافي» ـ للأمير منطلقات مختلفة عن أسباب العبد الفقير في الزعل من نقابة البنائين. فهو غاضب؛ لأن هؤلاء شوهوا معالم لندن القديمة عندما استبدلوا الفولاذ بالنحت، والزجاج بالرخام، وعلب السردين بالسقوف المرتفعة، أما أنا فلابد من الاعتراف بأن أسبابي شخصية محضة. وتبدأ حكايتنا مع العاصفة (لاحظوا هذه الرومنطيقية) التي ضربت لندن قبل شهرين تقريباً. وقد أصر

الإنكليز على تسمية ذلك الإعصار الرهيب بالعاصفة، برغم أنه اقتلع الأشجار من جذورها وهدم السطوح ودمر المدارس وأحدث الفياضانات وحمل السفن من أواسط البحار، مثل علب الكرتون ورمى بها على رمال الشاطئ. وفي تلك الليلة الليلاء كنا نسمع وقع القطع المتناثرة من سطح بيتنا، فيخيل إلينا أنها سقف مجاور لكثرة ما تشابكت الأصوات. ووقفنا نتطلع من النوافذ، فهالنا المنظر أكثر إذ رأينا الأمطار الغزيرة تهطل في مكان، لكن الريح تحملها وتسقط بها في مكان آخر، وقد لفتها لفاً. وزادت مخاوفنا حين خلت الشوارع إلا من الصرير وتهاوي الأشجار، فأخذنا نضرع إلى الله طلباً للرحمة. وكان خوفنا الأكبر أن يستيقظ الأطفال فيترك هذا الغضب في نفوسهم عقدة من هذه الطبيعة التي يمكن أن تكون حفيف أوراق وهديل حمام، وأن تغير معالم مدينة كاملة كما فعلت تلك الليلة حين اقتلعت ست أشجار سنديان تاريخية من مدينة «السنديانات السبع» فما بقي للمدينة الحزينة إلا سنديانة واحدة تشهد على ثلاث مئة عام من غرز الجذور.

وإذ طلع ذلك الصباح بدت لندن وكأنها شيء من بيروت، ولكن من دون تصريحات ومن دون تشكيل «حكومة إنقاذ» وطبعاً من دون أن يستقيل الوزير العزيز جوزف بك سكاف؛ لأنه اكتشف فجأة أن الحكومة غير قادرة على... الحكم! وراح كل فرد يعد همومه ويعد ما سقط من بلاط وقطع. وبلغ بنا الخوف مبلغه حين اتصل بنا جارنا في المنزل المقابل متطوعاً ومشكوراً، وقال إن سطحنا يبدو من عنده، وكأنه شبه حليق.

واتصلنا على الفور بإحدى مؤسسات الترميم، فقيل لنا عليكم الانتظار حتى الانتهاء من الحالات الطارئة. وبعد أسبوع اتصلنا مجدداً، فقيل لنا الأسبوع المقبل وأنتم بخير. وحين مضى الأسبوع الذي كان مقبلاً وانقضى، اتصلنا من جديد، فقالوا نرسل لكم مخمناً للأضرار. فجاء المخمن واكتشف أن «الحالة تستدعي الشفقة» وأن حالتنا «يرثى لها»، كما كانت تقول جدتي -رحمها الله- وبعد يومين جاءت مجموعة من العمال فأقامت المنزل من الداخل وأقعدته من الخارج؛ لكي تركب «السقالة» التي لابد منها لإصلاح السطح.

كان ذلك تقريباً قبل شهرين. وكان ذلك... وجه الضيف! عبثاً نراجع وعبثاً نتلفن لأن هناك ذريعة لكل هاتف. وهذا من فوق... لكن هناك أيضاً حكاية من تحت، أكرمكم الله.

الحكاية التحتية أنه لحكمة ما في رأس بلدية كينزينغتون، فقد تقرر إصلاح الشارع الذي نحن فيه بعد أيام قليلة من وقوع تلك العاصفة. وصدف أن الشارع من النوع المرصوف بالبلاط الأسود الصغير، أي ليس من نوع الإسفلت الذي يمكن أن ينتهي في يوم واحد. واستفقنا ذات يوم فوجدنا أمام البيت حفارة كهربائية تسد الباب وعاملاً صبوح الوجه، فألقينا التحية. وكان ذلك قبل شهرين تقريباً. والآن، وبعد شهرين تقريباً، لا يزال العامل هناك وكذلك الحفارة الكهربائية وطبعاً، تحية الصباح.

إنه شارع صغير، بل هو في لغة الإنكليز «ميوز» أي شارع خلفي للإسطبلات أيام كان سادة لندن يسكنون في الواجهات وساسة الخيل فوق الإسطبلات. ومع ذلك فإنني أتطلع في العامل الوحيد الذي

يرصف الشارع، فيخيل إلي أننا سنمضي شهرين آخرين والنحت قائم قاعد والعزف منفرد وتقاسيم حفر من هنا وطق من هناك وحفارة لها صوت، مثل كسارات نهر إبراهيم.

أما السطح فهادئ. لا عمال ولا من يعملون. وعبثاً يلقي أمير بلاد الغال الخطب عن البنائين والمهندسين ويقف إلى جانبنا في هذه المحنة. فالعامل الإنكليزي اليوم رجل مطمئن يفضل شرب الشاي والدوام مثل موظفي المكاتب؛ لأن الضمان الاجتماعي يتكفل له بثلاثة أرباع الهموم، أما الربع الآخر فهو يدخل إلى «البوب»، أي المشرب، ويدفنه هناك. وقد دمرت "المسز" تاتشر هيكلية النقابات لسبب واحد هو الخلاف حول الإنتاج لا حول الحقوق. وتحولت سيارات «الجاغوار» أيام الرعب النقابي من سيارات تبحث عن براغ ومفصلات بصورة دائمة إلى شركة تدر الآن أرباحاً خيالية. لكن هذا الأمر لم ينطبق حتى اليوم على أشياء كثيرة أخرى، بينها سطح بيتنا و... الشارع الذي أمامه. وكان يمكن أن ننسب المسألة إلى سوء الحظ لولا خطاب الأمير تشارلز الذي أقنعنا بأنها حالة عامة. وكان الإنكليز خصوصاً، والأجانب عموماً، يركبون علينا النكات فيما يتعلق بكلمة «معليش» أو «بكره». وهما في الحقيقة كلمتان لا يستخدمهما الإنكليز على الإطلاق؛ لأنهم يفضلون طبعاً تعبيراً آخر هو «فرصة الشاي»، وهي فرصة تطول أو تقصر وفقاً لنوعية العمل، فإذا كانت المسألة متعلقة بسطح ما، فإن الفرصة تطول عادة نحو أربعة أشهر... على الأقل.

(87/12/12)

obeikandi.com

غابة من البنفسج

منذ سنين وكتابات زينات نصار في الصحافة العربية مثل وقفات فرح نادرة، غيوم من البساطة وثلوج من الحب وسهول لا نهاية لها من المشاعر. كتابات من غير ادعاء، من دون ضجيج، وأوراق من البنفسج تتناثر هنا وهناك، كأنما هذه السيدة لا تكبر ولا تبلغ سن الرشد، وكأنما طفولتها لا تقهر.

بدأت بالكتابة عن «الضفائر» وظلت هذه الضفائر عنواناً خفياً دائماً في كل ما تكتب. لم تقحم نفسها في "التجربة الروائية الكبرى". لم تطرح نفسها عضواً في نادي الأدب النسائي الشهير. لم تطلق حولها شعارات تحرير المرأة، بل مثل بنفسجة عاشقة ذابت في الرجل ذوبان الرحيق في الشهد. ولذلك لا تعابير كبيرة هناك، لا استعارات ولا انتماءات إلى «المذاهب الفكرية» والروائية والفلسفية... والتفلسفية. هناك بساطة ثم المزيد من البساطة. وإلى هذه وتلك، هناك تلك البساطة الرائعة في قلم متواضع، غير مدع، هادئ مثل البنفسج وديع كالحقول. ومثل الحقول متنوع وملون.

ليست سيمون دي بوفوار أخرى. ليست جورج صائد أخرى. ولا، طبعاً، تريد أن تكون. ولا تريد إطلاق الأحاديث هنا أو هناك. ولا تريد الوقوف على المنابر. ولا تريد قرباً أو تقارباً مع عالم التنظير والتحرير وما إليهما. بل كل ما تريد هو أن تسافر «في طرقات لا تبدأ ولا تنتهي، بلاد لا تحمل اسماً ولا صفة».

obeikandi.com

وهذا القلم الخفر، الحييّ، العاشق، لا يكتب إلا الوجدان. وفي يوم دافئ يعترف بأنه لا يكتب سوى الرسائل، رسائل الحب طبعاً...

«وفي كل صندوق بريد ينام على حائط مدينة ألقيت له رسالة حب».

لكن ساعي البريد لا يأتي إلى مدينتها لأنها، أي المدينة، «منسية في نقطة على خارطة». لا اسم لها ولا لون ولا ماض. ولكن لابهم فإذا لم تصل تلك الرسائل إلى حبيب لا تعرفه ولا يعرفها «فلتنفجر في صناديق بريد علاها الصدأ، ولتغرق العالم في طوفان الحب».

حقاً، يغرقنا كتاب زينات نصار الجديد «العالم امرأة ورجل» في فيضان رائع من الحب والبساطة. ولقد نسي العالم من زمان هذا الأدب الفريد، أدب الرسائل والمخاطبة، أدب الذوبان في المفاجأة، وبدا لفترة أنه سوف يصبح أدباً غير متداول، ولكن ها هي زينات نصار تزين الرفوف من جديد بكتاب جزل وتلفه بالشرائط الزهر وتغلفه بشيء من العطر البنفسجي الهادئ وتقول لحبيبها بكل بساطة «كلما حاولت أن أخبرك عن مشاعري أقف أمام الأبواب الموصدة ويتحول صوتي إلى صدى أسمعه وحدي».

ثم تقول له في منتهى العفوية الجميلة، وفي منتهى التصورية العفوية أيضاً «سوف تبحث عني وأنا بقربك». إنها تهدده. أو لعلها تهدهده، فالحب في نهاية الأمر، «قدر نستسلم له بلا مقاومة ولا تردد»، لكنه أيضاً ينتهي حين يبدأ التساؤل، ولذا فإن هذا القلم الرافع الضفائر شعاراً لربيعه يعلن بحزن «مخجل هو إطفاء الشوق».

obeikandl.com

حتى الوصول إلى الملل تقف أمامه في عفوية تساؤلية بسيطة. لا لجوء إلى الفلسفة، ولا إلى السفسطة، ولا انتحال أفكار الآخرين «عجباً كيف يقتل الفرح تفاصيل صغيرة، وكيف أصبح للحياة لون واحد لا يتغير، لون الملل الرمادي». وما يؤسفها أكثر هو أنها فقدت الفرح من دون أن يكون ذلك مدخلاً إلى تلك النشوة الأخرى، نشوة الحزن، لذلك، وفي تلك العفوية السجية نفسها «احمل تأنيب ضميرك وارحل» يا سيدي. لكنه لا يرحل، إنه في الرسالة التالية، وفي الوله التالي، وفي هذا الحب الذي يقرع الأبواب مثل العواصف ويعيش في الداخل هادئاً مثل النعاج. إنه الغاية. إنه السبب. إنه، باختصار، القلم. ذلك القلم الذي يتحول في أيدي النساء إلى شيء من الباقات والحدائق المعلقة.

هي، هو على مدى ثلاث مئة صفحة. هي، هو. فهي في النهاية انسحاق طوعي به، «أنا أحد إنجازاتك». وهي دائماً هاربة منه إليه: «أنا راحلة إلى آخر حدود الدنيا، لكنني أتمنى أن تستيقظ من غفوة أحلامك؛ لتمنعني من الرحيل، وأن تبحث عني في كل مدن الدنيا حتى تجدني».

ولكن بدلاً من أن يستيقظ هو تستيقظ هي لتكتشف «إنني ما زلت في حياتي مراهقة تؤمن بأساطير الحب وتحمل كتاب العشق»... وكتاب زينات نصار هو من أحلى كتب الحب التي يمكن للمرء أن يقرأها. قلم بنفسجي في زمن التشبه بالحور.

obeikandl.com

إمارة الزرقتين

... ولقد حفر من حجارة ورخام ورسوم ومقاه، وعلقوه هكذا في خاصرة الجبل. فجعلوا بهوه عند زرقة البحر وسقفه عند زرقة السماء وحفروا فيه شوارع وساحات وزينوه بالحدائق والصنوبر والنخيل كأنما هو إمارة لا فندق.

وتعبره الناس زائرة، فلا تنام ولا تقضي من الليل إلا أرباعه الأولى، أما الخاصة من البشر وأثرياء القوم، فإن لهم أسرّة فيها ينامون. ولكثرة ما هي هذه الأسرّة مريحة، فإنهم يتذكرون معذبي الأرض مرة كل عام، فيخلطون الليل باللؤلؤ بالماس بمفاتيح الخزنات الحديد ويعطون ما يفيض لفقراء العالم.

إنه أجنحة أجنحة، ومقاصف، وثريات.

وللعابرين طاولات «بيتزا» إيطالية بالعجين النابوليتاني والصلصة البولونية وسمك مرسيليا التي لو شئت لرأيتها من هنا غبر الغيوم الرفيعة العائمة بين زرقتين، الماء والسماء.

ومن الشرفة هنا، من أي شرفة من أي جناح لوشئت تبدت لك إيطاليا أيضاً وتماثيل جنوى والبحيرات ساهرة على الطريق لا تنام، إلا حين يصحو ذلك الصرار شاعر الصنوبر لكي يكرر، نكاية بالمسيو لافونتين، حكاية الصيف الجميل ولعنة الله على حاجات الشتاء.

أجنحة أجنحة.

obeikandl.com

ولكثرة ما هو ضخم، فقد قسم الفندق إلى جزأين، واحد قديم مغطى بالقرميد والهدوء وبقايا التاريخ، وآخر من وحي لاس فيغاس ولعناتها. ومن أجل الرهبة في الإمارات التي لا ترهب أحداً، سميت الشوارع باسم ألبرت الثالث أو رينيه الرابع، ولا تزال هناك حجارة زهرية أو صفراء تقول بشيء من الأسى: كان يا ما كان في قديم الزمان.

أما الآن، في هذا العصر، فليس في الأمر أكثر من فندق يقوم على مليون متر مربع، فندق نظيف مرتب مجهر ومجلو، مثل عروس تذهب إلى عرسها كل يوم. ولذلك فإن هذا الفندق المعروف باسم موناكو أو مونت كارلو أو مملكة آل غريمالدي لا يغيب عن صحف السياحة والجمال وحكايات الطبقة الأولى في عالم رخيم هادئ يملأه السادة السواقون بقبعاتهم الكحلية والسيارات الطويلة والسيارات المكشوفة، ويتصدره أولئك المتقاعدون من رائحة الذهب وأثقال المال.

حاذر كتفك في موناكو، فإنك لا تعرف من يمكن أن تلامس. ولا يخدعنك مظهر الرجال بالسراويل القصيرة، فإن في خزائنهم منها حرائر وعباءات مقصبة بالذهب، ذهباً ذهباً أو ذهباً أبيض. وفي هذا البهو الصغير تقع «ساحة الشهرة» في العالم. وعندما غابت الأم في حادث مأسوي بكت الإمارة بكاء كثيراً، ثم دفعت بقامة كارولين إلى صفحات الصحف وأغلفة المجلات! ونصف بنات أوروبا يشترين الأغلفة من أجل كارولين. ومصورو الـ«باري ماتش» يموتون من الجوع من دونها. ويتدافع فلاحو إيطاليا ونبلاء فرنسا والسياح الإنكليز هنا

جنباً إلى جنب، فيتأملون ملياً في هذه اللوحة التي يتفقدها آل غريمالدي كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم في مبنى يشبه القصور المؤممة في بلغاريا، يكاد يكون عارياً من الخارج لولا أربعة من الحراس والعسس الذين يشبهون رجال السير الإيطاليين في مقارعتهم الهواء والفراغ ومناطحة الملل.

تأتي الناس وتذهب، ولا تصفق الأبواب خلفها. فهذه الإمارة المرتبة مثل فندق، مفتوحة الأبواب مثل «الهيلتون» و«الإنتركونتيننتال» أو لوكاندات ساحة البرج، في بيروت. والصمت سيد الجميع والهدوء رفيقك في الشوارع العتيقة التي في بعضها شيء من ظلال روما. إمارة تحب زهرة الفل والأضاليا والنخيل والصنوبر ولا تتعاطى السياسة إلا عند باعة الصحف، حيث تباع مشكلات الكون بكل اللغات.

obeikandl.com

obeikandl.com

المكان حيث يكونون

منذ أن حفظ نصري نداء الأبوة لم نتباعد شهراً كاملاً كما فعلنا الآن. وقد كان عليّ خلال كل هذا الشهر أن أصابحه وأماسيه عبر أسلاك المستر "بل" فما نلت من هالة المحبة التي هي هو، سوى صوت ثغائه، متسائلاً لماذا تغير بنا المكان وأطال علينا الزمان؟

ويصعب عليّ أن أفسر له أين أنا؟ فالكون عنده بعد لعبة صغيرة وأنا هنا في هيئة الأمم لا أتفرج على لعب الكبار فحسب، بل أكتب عنها بكل سذاجة، وأحياناً أصطنع التحليل وأستقرئ الآفاق السياسية، ناهيك بأنني، مثل الأساتذة الألى، إذ أصبحت أستخدم النظارات لضعف النظر...

ويسألني نصري غالباً ماذا أفعل؟ فحين أقول إنني أكتب يرد بعفوية ساحرة: آه! وأسأله بدوري ماذا يفعل؟ فيقول إنه آت لتوه من اللهو، أو إنه يشاهد برنامجه المفضل: «شارع سمسم». ودائماً يضيف متسائلاً: «هل لي أن «أشتري» له صديقاً يلعب معه؟

وفجأة، اكتشفت نصري لا يزال في سن لا يعرف معها أن الأصدقاء لا يشترون ولا يباعون. لا في سوق الماس، ولا في سوق الذهب، الأصدقاء عائلة. بل حين يستعصي الود على الأقرباء يصبح الأصدقاء هم الأقربون. وكم تكون روابط المياه والملح والخبز أحياناً أكثر من روابط الدم.

obeikandl.com

إنهم «العائلة الجديدة» كما تقول القبائل الإفريقية ببساطة الغابات وحكمة الأنهر. وقد قرأت ذات مرة أن قبائل الكاميرون تقسم «العائلة الجديدة» إلى قسمين: أصدقاء الطريق أولئك الذين تعرفهم مصادفة، وأصدقاء القلب، أي الأصدقاء بالاختيار. بالقرار، بالرغبة، بالحياة.

النوع الأول، يأتيك، يصادفك. الثاني، تبلغه. الصداقة الحقة، استحقاق. مكافأة. أصدقاء الطريق، أي المصادفة، هم الذين يعرفون ماذا تعشيت وكم لازمك الزكام، ووجودهم حولك له أهمية مؤقتة، أهمية مرهونة بالوقت والمكان، فإذا غابوا أو غبت تحول الزمان إلى ممحاة. أصدقاء القلب هم الزمان، هم الرجاء، أما المكان، فحيث يكونون، قريباً كان عبر البحار.

كان أرسطو يقول إن الطموح إلى الصداقة عمل سريع. أما الصداقة نفسها فثمرة ناضجة. ويروي لنا أن المرء لا يعرف رفيقه جيداً إلا بعد أن يأكلا معاً شوالاً كاملاً من الملح. لكننا في عصر يحارب الملح ويحارب السكر معاً. صداقة القلب أقوى من الاثنتين، وأحب أيضاً. الصداقة الحقة تزيل الضغط، لا تسببه.

وكما يكرر الأبد الزمان لكي يظل هو للأبد، هكذا الصداقة تكرر الود. وتكرر نفسها دونما رقابة؛ لكي تضمن أنها القلب لا الطريق، أنها البلوغ لا الوسيلة وأنها في مرارة الأشياء وعزها تنتصب في حديقة العمر، مثل شجرة المياه في واحة مهجورة.

لكن نصري يصر: اشترِ لي صديقاً، فما هذه الدنيا بلا رفاق! وهو إذ يلاعب نفسه مع بيوت الوَرق وسيارات الخشب ودواليب الهواء يخيل لنفسه دائماً رفاقا يحاورهم، وتحلق عقليته وراء دواليب الهواء، فيروح يحاور ذاته كأنه عدة أطفال يلهون في حضن واحد.

وعندما أبلغناه أن الله سيمنحنا أخاً له أو أختاً... وأما الأصدقاء فيبلغهم حين يكبر، تبدلت حناياه وأصر بغريزته الطفولية على أنه يريد أختاً لا أخاً، كأنما يخشى أن يقاسمه أخوه ورق الغار الذي توّج به رؤوسنا.

سعادة أخرى، نحن في انتظارها. والسعادة، كما قال كازانتزاكيس ذات يوم، مصنوعة على قياس الإنسان. وقد كتب ذلك ذات يوم عندما كان في إحدى قرى «كالابريا»، جائعاً، مبللاً بالمطر وغريباً يبحث عن مأوى. وفجأة لمح كوخاً صغيراً وامرأة قرب موقد وخشب صنوبر يبعث رائحة العطر، وهو يحترق وفوق الموقد وعاء يرسل بخاراً طيب المذاق.

عندها تيقّن أن «السعادة الأرضية مصنوعة على قياس الإنسان. إنها ليست طائراً نادراً لا نعثر عليه إلا خارج هذا الكون، السعادة طائر منزلي أليف... يغرد في الحديقة».

obeikandi.com

obeikandl.com

عصير الحكمة

... وكان لملك ملوك قبائل «النيرفانا» ستة صبيان وبنت. وكان له التلال الشرقية من جبال «الأنديز» والسهول الجنوبية من هضاب «الريو دي بلاتا». وفي السنة السابعة من القرن السابع من الشهر الثامن عشر وفق المفكرة الآليوخية في جبال البيرو، دعا الملك أولاده جميعاً إليه في الصباح لا في المساء كما في التقاليد. وأجلسهم جميعاً في غرفته المليئة بالجلود وقدم إليهم الشاي والعسل وعصير الحكمة، وهو خليط من أعشاب الأنديز وأشجاره ممزوج بغبار الحجر الأحمر «ندوس». وقال الأب الذي كان عميق الحكمة كثير الضحك رائع الدعابة:

- اسمعوا جيداً فالأمر الآن لا مزاح فيه. إننا أمام قرار تفرضه الآلهة على حكام وادي البلاتا من أقصاه إلى أقصاه كل خمس مئة عام آليخية. وقد أُبلغت ليلاً أن علينا اتخاذ القرار هذا الصباح. ولكن لكل منكم أن يفكر ملياً قبل أن يلزم نفسه بأي جواب.

وقالت البنت الصغرى، وهي مدللته:

- وهل مثل هذا الأمر يعنيني، وأنا بعد في العاشرة؟

obeikandi.com

فهزّ الملك رأسه أن نعم. وشعرت العائلة بشيء من القلق، فسارع إلى الإضافة بشيء من الشعر، أن الآلهة تعرض كل نصف ألفية على عائلة الملك أن تجمد أعمالها، حيث هي ردحاً طويلاً من السنين قد يطول عشرات أو مئات، فيبقى الكهل كهلاً والشاب شاباً والصبي صبياً.

وساد العائلة وجوم أكبر وصمت عظيم. فنظر الملك إلى ابنه البكر وقال:

- وهل يضيرك أن تظل في الثلاثين من العمر؟

فأجاب لويزو، وكان هذا اسم جده ملك من ملوك قبائل المانغا:

- لقد رأيت القليل يا أبي، ولا يزال أمامي الكثير. ثم إني إذا توقفت هنا فكيف أصير ملكاً عندما أبلغ الخامسة والثلاثين، حسب تقاليد الملك.

وقال الأب:

- لكنك بذلك تظل شاباً، فيكَ كل الشباب، ولك بعض الحكمة.

فأجاب الابن:

- أليست الحكمة أن نجرّب الحياة كلها، والشباب أن تهرم لكي تتذكره، فما هي لذة اللحظة التي لا تصبح ذكرى وما هي حكمة الأمس الذي لا يصبح أمثولة.

وتطلع الأب إلى الابن الثاني، وكان في الثامنة والعشرين، وقد جعله قائداً لعموم جيوش المملكة، وقال له: وأنت يا روبرتو؟

obeikandl.com

فقال روبرتو:

- إلى الأمس كنت تقول لي: إن متعة العشرينيات هي الدخول في الثلاثين، وكيف أقود جيشاً عظيماً ما لم أتقدم في الخبرة والسنين والحكمة؟

فقال الأب:

- لكنك تملك الجأش والذكاء!

فردّ الابن:

- إن كل جنودي يملكون البأس والذكاء، وما لم أستحق القيادة فكيف أظل أقودهم وما لم يكن لي خدمة وأوسمة وفصول عسكرية، فكيف أبقى في قيادتي؟

وتطلع الملك إلى الابن الثالث، وكان هذا في السادسة والعشرين، وقال له باقتضاب: وأنت؟

- أنا كيف لي أن أقرر لنفسي وما عرفت من هذا العالم سوى أترابي، فإذا كان البقاء في مكاني يعني هذا السأم الطويل معهم، أفضل أن أنتقل إلى سن أخرى أتجمد عندها.

فقال الأب:

- لكنك إذا بقيت في هذا العمر، فإنك تأمن الكثير من جروح النفس والكثير أيضاً من آلام الجسد.

obeikandl.com

فأجاب الابن:

- سلامة النفس نعمة وصحة الجسد منّة، لكن هل من الممكن أن نصنع السعادة في الضجر وقلة المعرفة؟

وعندها تطلع الأب إلى الابن الرابع، وكان في العشرين، وقال له:

- إنك يا أنطونيو قي نهاية الربيع، وعلى حافة الصيف. وصيفك طويل وربيعك ملكي، فماذا تختار؟

قال أنطونيو:

- ربيعي جاف وكافر. لا ثمراً أعرف ولا نضجاً أشعر والزهور وحدها لا تكمل الحياة، فأرجو أن تسمح لي بالذهاب إلى الصيف، حيث الثمر أيضًا.

فقال الأب:

- لكنك إذا ذهبت إلى الصيف تخسر حقك في الاختيار.

فردّ الابن:

- سوف أفتقد ما عرفت، لكنني سأعرف ما قد أفتقد.

وخاطب الأب ابنه الآخر، وكان هذا في الثامنة عشرة، فقال له:

- لقد سمعت يا خوسيه ما قال أخوتك، فما رأيك أنت؟

فقال خوسيه بعد تفكير مليّ:

- طالما علمتنا أن متعة الحياة هي في الفصول. وكنت تقول لنا إن حكمة الطبيعة في الفصول ومتعة العمر في السنين، فلماذا تريدنا أن نفقد المتعة ونخسر الحكمة معاً؟

obeikandi.com

ولم يبق أمام الأب الملك سوى توأميه الصغيرين. فلما نظر إليهما ضحك من دون شيء. وأخيراً تطلع إلى ابنته فقالت قبل أن يسألها:

- سنة الحياة أن أعطيك أحفاداً؛ لكي تدوم مملكتك، فلماذا تتركني طفلة في مجاهل الحدائق، وعلى ضفاف البحيرات تقول لي المربيات ما يشأن، ويعلمنني ما يردن، وأتململ كل ليلة من الضجر بسبب حكاية ليلى والذئب؟

obeikandl.com

obeikandl.com

المهرجان

كان المهرجان لائقاً حقاً بيوسف الخال. لم يتحدث عنه أحد. لم يأت على سيرته أحد. بل هكذا جاء الشعراء من كل مكان، فوقفوا وألقوا ومشوا، ويوسف الخال ليس على المنبر أكثر من صورة وسيمة ملتحية وملصقات وثلاث قصائد من مراثي يوسف الضاحكة في نفسه وفي الكون.

فقد كان المهرجان مثله. لا أحزان تلقى على الآخرين. وكان الشعراء مثل وصيته: من كل مكان يأتون، وكل قول يقولون، وفرحاً عظيماً يفرحون. فحيث يكون هو، ذكرى أو صورة أو مهرجاناً، يجب أن تكون الحرية، ثم بعدها تعطى الكرسي للشعر، وبعدها أي شيء لأي شيء، ولكن قبل أي شيء الحرية.

والحرية تكون في الفرح.

فجاء الشعراء وفرحوا. فرحوا بأنفسهم وفرحوا بالآخرين وفرحوا بالشعر.

وفرحاً عظيماً كان فرح يوسف الخال. فهذا السيد النبيل المحتفى به لم يكن يهمه في الشعر أكثر من الشعر. يكون القول عظيماً، فهو إذاً شعر. يكون الكلام ألحاناً إذاً فهو شعر. والشعر يكون كيفما أراد ومتى أراد، وحيث أراد. يحق أيها السادة للشعر ما لا يحق لأحد.

obeikandi.com

لذلك كان يوسف الخال هو القصيدة التي لم تلق ولم تكتب. كانت حياته هي الشعر لا ديوانه.

كان الشعر تلك الهامة الهائلة من الشاعرية اليومية، التعالي فوق الصغير من الحياة، التعالي فوق الكبير من الحياة، التعالي فوق العابثين في الحياة، فالشاعر يكون متسامحاً أو لا يكون، يكون شفافاً مثل فراشات الحقول أو لا يكون، وحين يقسو ويخشوشن ويطلب الحكمة حق له أن يصبح سنبلة تخدش قليلاً، ولكنها ترمي الحنطة خلفها في سهول الشعر والرمز والكتابة.

كانت حياته قصيرة.

كانت مكتوبة على طريقة الشعر الحديث. أي أن محاولة البلوغ أكثر عبقرية من البلوغ، أي أن الكلمة تتعاظم، لكنها تسحق الشاعر ولا تصل إلى الشعر، أي أن كل تفعيلة معجزة والمعجزة العظيمة هي تعليق جرسها بشلال الفكر والوحي والعبقرية، فإذا حدث هذا من دون تلك كانت المسألة أيضاً شعراً مثل الشعر، وكان ليوسف أن ينادي، حياً أو ذكرى بأن الشعر سيد الأشياء وأمير المشاعر، وأنه من أجله تصفق البرية وبه تطرب الطيور ويعلن الربيع أنه السيد الربيع.

أساء فهمه أولئك الذين ظنوا أن يوسف الخال، هرب من أسر الأوزان والبحور وسحر البيان إلى السهل العذب من الشعر.

الحقيقة أن شيئاً لم يكن يسع يوسف الخال فهرب من كل شيء إلى مطلق الأشياء، والحداثة عنده مثل الشعر لم تكن غاية ولا وسيلة، بل كانت أسلوباً في الحياة ومطلاً عليها. وظل هو الكلمة التي لم تقل.

obeikandl.com

قرأ ما قرأ سبر ما سبر وبلغ أعماق الفكر وقصي الرؤيا، ولكن أنى له أن يلملم في قمم صغير، أو في صدر وعجز كل تلك الأعماق التي كانت أعماقه، كل ذلك الشعر الذي كان هاجسه، وكل تلك الشفافية التي كان يطلقها حوله كيفما كتب أو مشى أو تلفت.

كان يوسف شيئاً من المحبة.

كان محبة في المطلق. وكانت حياته في المطلق، نادراً ما ينزل إلى الأرض، وقلما يهون للواقع. شعراً كان هو شعراً. شعر وفرح ووله بالشعر وشغف بحرية الشعراء هو. لذلك أصغى باسماً، وهم يقولون كل قول ويثورون أو يضحكون. وقد اعترض البعض على قيامة شعر يوسف كما اعترض البعض على موته. وهذا كان قدره في الحياة وفي الحياة الآخرة، أن يكون هو النهر، وأن يظن الناس أنه شراع في معاكسة النهر، وأن يكون هو المياه، وأن يظن الآخرون أنه السراب، وأن يكون هو القصيدة غير المكتوبة فيما يخيل للآخرين أنه الشاعر الذي لم يكتب.

كان مهرجاناً لائقاً بيوسف.

وأجمل ما ألقي فيه تلك القصيدة التي كتبها رياض نجيب الريس في صديقه وقد سماها المهرجان.

obeikandi.com

obeikandl.com

بطن الزجاجة

باعت «الفولكسفاغن» من سيارة «البيتل» الحدباء نحو عشرين مليون وحدة. وخلال خمسين عاماً ظلت تلك السيارة العجيبة رمز ألمانيا النازية، ثم أصبحت رمز ألمانيا الناهضة من ركام الحلم النازي. وعندما توقف إنتاج «سيارة الشعب» قبل أعوام، قامت في أنحاء الأرض نوادٍ تحافظ على تلك السيارة العجيبة بين الناس والتنك. ولم تظل «البيتل» مجرد سيارة رخيصة الثمن متينة العارضة قوية المحرك، بل حولها وولت ديزني إلى بطلة ضاحكة متكلمة متحركة في أحد أفلامه، كما حوّل الحيوانات والشجر ودببة ألاسكا إلى أدوار سينمائية تثري مخيلة الصغار وترطب أنفس الكبار.

ومثل «البيتل» عاشت زجاجة الكولا مئة عام، وبيع منها المليارات في أنحاء الكون. وتحولت هذه الزجاجة إلى سلاح أميركي، مثل سلاح البحرية والطيران والمشاة التي تقاتل فوق الأرض، ناهيك عن سلاح الـ«سي.آي.إي». الذي يقاتل تحتها.

وكنت أظن مثل غيري من الناس أن سرّ «البيتل» هو في رخصها أو في قوتها أو في متانتها أو في عدم حاجتها إلى المياه، مثل جمال الصحراء. وكنت أعتقد أن سر الكولا هو في تركيبتها الكيميائية، وفي دعايتها وتسويقها. ولكنني اكتشفت أن السر في الأولى هو التصميم، وفي الثانية شكل الزجاجة.

obeikandi.com

والآن فقط عرفت لماذا وصف الممثل الراحل فرناندیل إحدى السيدات بأنها رفيعة من فوق، ممتلئة في الوسط، معتدلة في الكعب... مثل الكوكاكولا.

وقبل تلك الزجاجة كانت الكوكاكولا مجرد عصير يباع لأولاد الحارات في بعض الأزقة الأميركية. لكن رساماً عبقرياً جاء ووضع لهذا المركب العادي زجاجة غير عادية. وكانت الكولا.

وعندما أراد هتلر أن يسحر ألمانيا قبل أن يقحمها في أتون الحرب جاء بكبار الرسامين والمصممين وقال لهم: هاتوا لي سيارة رخيصة وقوية، فجاء أحدهم وأعطاه «البيتل». ولم يهنأ الألمان كثيراً بهذه السيارة التي لها محرك من الخلف وصندوق من الأمام، فدمرت مصانعها الحرب، لكن ما إن عادت ألمانيا إلى وعيها، حتى أقامت من بين الركام حطام «البيتل» قبل أي شيء آخر.

إنه الفن في خدمة الإنسان، الريشة التي تستنبط من العدم شيئاً لا يعلقه الرجل في بهو داره بل يتعلق هو به. وقد كان جان كوكتو يقول إن «الشعر ضرورة لابد منها، لكن ليتني أعرف لماذا». هذا هو الفن المجرد، لكن الفن عندما لا يعود مجرداً يتحول إلى زجاجة كولا أو زجاجة بيربيه أو فولكسفاغن. وكان الرسام موندريان يخاف على الفن من الواقع. فالفن في رأيه هو مجرد محاولة لسد الخلل القائم في فكر الإنسان بين المجرد والحقيقي. غير أن هذا الخلل يعدل نفسه شيئاً فشيئاً، حتى يصبح الخوف على اندثار الفن أمراً واقعاً. أي لا

تعود هناك حاجة ماسة إلى الفن عندما يصبح الإنسان قادراً على الحوار الكامل مع كل ما حوله، عندما يستطيع أن يحول الفكرة المبهمة إلى كلمة واضحة والكلمة إلى خطوط ورسوم... وزجاجات لها بطون.

من هنا نجد الآن أن بعض الناس يعلق على جدرانه لوحات تمثل السيارات القديمة. والبعض الآخر لوحات للقطارات. والبعض الثالث يجمع تلك الملصقات الدعائية التي ظهرت على الجدران الخارجية في الثلاثينات والأربعينيات وتحولت الآن إلى تحف معلقة على الجدران الداخلية.

لكن الفن يكون في ذروة عظمته عندما يكون فناً وخدمة معاً. عندما ننظر مثلاً إلى الطائرة الكونكورد، ونعرف أن كل هذا المحرك المتقدم لم يكن يساوي شيئاً لولا الريشة التي نسخت الطائر المعقوف الأنف. وعندما ننظر إلى جهاز الراديو ونكتشف أن أعظم تطور ليس التقاط الإذاعات البعيدة، بل في الشكل والحجم وفي أكوام الترانزستور التي وزعها اليابانيون على كل غابة ومدرسة وبيت. وماذا عن الكاميرا التي كانت في حجم الإنسان وأصبحت الآن في حجم جيبه الصغيرة. إن الفن في الصناعة ذروة الفنون، ولو عاش ليونار دوفنشي طويلاً لكانت أهم منجزاته التصاميم الآلية، وليست "الجوكندا" وابتسامتها الغامضة. طبعاً هناك الفن للفن وهناك الفن للزجاجات التي تجعل شركة عصير في حجم إحدى أكبر دول العالم.

obeikandi.com

obeikandl.com

عربة اسمها الخوف

كنت في نيويورك عندما قرأت كتاباً عن العصور الوسطى، أو عصور الظلام. وقد جاء فيه:

«وكانت الناس تأوي إلى منازلها مع غياب الشمس، فلا تغشى الغابات والحدائق القريبة في الظلام خوفاً من الوحوش الكاسرة، وأحياناً خوفاً من اللصوص الذين كانوا يتسللون تحت ستار الليل؛ لكي يقطعوا الطرقات ويهددوا الناس في حياتها».

«ولذا كانت المدن تقفر إلا من الحرس والجند. وكانت أصوات الكلاب النباحة تملأ الليل كي تبعد الأشرار، وكان البعض يترك القناديل مضاءة في النوافذ؛ لكي يوهم اللصوص بأن أهل البيت ساهرون».

«فالحقيقة أن الوحشية كانت تسود كل مكان في تلك العصور، ولم يكن للنفس البشرية أية قيمة، ومن أجل حفنة قليلة من المعدن كان المارة يتعرضون للهجوم. وغالباً ما لا يكون المهاجم في حاجة إلى طعام بل إلى مسكر أو غيره... إلى آخره».

وكنت في بيروت عندما قرأت فصلاً عن العصور الوسطى أو عصور الظلام. وهذا بعضه:

«... وقد حلت بالمدن والدساكر ظلمات روحية كثيرة. وكانت الناس يقاتل بعضها بعضاً من دون سبب، ويسبي بعضها بعضاً وتهيم في الشوارع سكارى برائحة الموت والدمار. وكان السارقون يطوفون

البيوت، وهم يرتدون ثياب السادة الأجلاء، فيغررون بالسذج ويلقون النصائح فيما واحدهم يغافل أهل المنزل؛ لكي يسطو على كل ما فيه. وكان الأشرار من كل صوب ولون يتقاسمون الغنائم ولا يختلفون إلا عليها. وكانت الناس تضرع إلى الله، وظلت تدق صدورها وتضرع إلى أن استجيبت طلباتها وتحول القاهرون إلى حصى في الطرقات وقطاع الطرق إلى زواحف، أو هكذا تقول الأساطير».

الحقيقة أنني لا أعرف ماذا يقصد المؤرخون بالعصور الوسطى. إنها وسطى بالنسبة إلى من؟ بالنسبة إلى أي نهضة؟ وسطى بالنسبة إلى الألف الأول أم الألف الثاني؟ بالنسبة إلى الهند أم إلى إيطاليا أم إلى الولايات المتحدة؟ وهل المتوحشون هم الرومان أم الفايكنز أم المغول أم الصينيون؟ وماذا مثلاً عن الإسبان الذين ظلوا يزرعون الرعب والطاعون في أميركا اللاتينية، حتى خفضوا بشرها من مئة مليون إلى خمسة ملايين؟ ومن هو المتخلف: أميركا أم فيتنام؟ ألمانيا الهتلرية أم النمسا؟ نابليون أم روسيا؟

نتطلع حولنا، فنجد أننا لم نخرج من عصور الظلام بعد. ومأساة هذا الكون أن الظلمة تتجدد كالنور. ففي كل عصر هناك عصور وسطى ومحاكم تفتيش وأناس هوايتهم نصب المشانق للأحرار والضعفاء ومساكين الأرض. لكننا نختار دائماً أن نلقي بالمسؤولية على الآخرين ونطلق النعوت على العصور البعيدة، حتى كان أبطال بول كلوديل يلاقون الأهوال في الرحلات الصغيرة بين مدينة وأخرى. الآن هناك أهوال بين شارع وآخر. بل هناك عوالم مختلفة بين زقاق

وزقاق. إذاً، العصور الوسطى ليست خلفنا، إنها معنا. والظلام أيضاً. أما هذا النور فهو مجرد كهرباء وتقدم العلم والتكنولوجيا والضوء... لا في النور. ثم إن عصور الظلام كانت لها ذريعتها. لكن ما هي ذريعتنا الآن وقد ادعينا الإنسان المتفوق؟ ها هو ذلك الإنسان المتفوق لا يجرؤ على المشي في «السنترال بارك» بعد الخامسة مساء. وإذا كان امرأة فإنه لن يجرؤ على ركوب المترو الباريسي بعد العاشرة ليلاً. وإذا كان لبنانياً فإنه يركب دائماً «عربة اسمها الخوف» وليس «عربة اسمها اللذة»، كما كتب تنيسي وليامز ذات يوم.

إننا نوغل يوماً بعد آخر في عصر الظلمة. النهضة كانت محطة لا عصراً في حياة البشر. أما عصور الظلام فلا نهاية لها. وليس هناك من يبددها. فالمظلمون يريدون لهذا الكون أن يزداد ظلاماً. بعضهم عن جهل، وبعضهم بوكالة شخصية عن الشيطان. إننا محاطون بالظلام. وإن معنا، حيث كنا، أناساً مظلمين ينفثون حولنا العتم، وحيث كانوا يفرشون السموم والبغي وهم يحملون لافتات مضاءة بأحسن أنواع النيون.

obeikandl.com

obeikandl.com

كوستا ديل سول

عملت لفترة طويلة فيما يسميه الصحافيون «القسم الخارجي»، أي قسم الشؤون الدولية. وقد سمي خارجياً؛ لأنه الخروف الضال في القطيع. فأهله يتعاطون شؤون تشيكوسلوفاكيا، بينما تكون «دابكة» في البسطة التحتا. وهم يتسقطون آخر تطورات الوضع في أزمة الأرجنتين، بينما المشاورات الوزارية دائرة دوائرها والناس تتلهف لكي تعرف ما إذا كان الأستاذ ناظم القادري قد اعتذر عن قبول الحقيبة الوزارية أم لم يعتذر. وهكذا سمي أولئك البسطاء الذين يكتبون عن ديغول وبومبيدو وكينيدي، خارجيين، لكنهم لم ينعتوا بالغرباء أيضاً. فالأجانب في لغات العالم هم الغرباء، غرباء في كل لغة، غرباء بالفرنسية، غرباء بالإنكليزية، غرباء بالإسبانية. أما الألمان فيذهبون إلى أبعد من ذلك بكثير، أي إلى ذروة العرق الآري، ليسموا الغريب «خارج الأرض» أو «أوس لندر». وتتوقف مسألة الغريب والأغراب هذه على الناس. فقد كان يقال مثلاً إن أهل جونيه يعتبرون ابن غدير غريباً، لكنني ذهلت عندما سمعت مهندساً من مقاطعة ويلز بلاد أمير الغال يقول إن بلدته مفتوحة أمام الغرباء من كل لون، وفي طليعتهم الإنكليز.

في أي حال ليس هذا هو الموضوع. ففي سني عملي في القسم الخارجي كان علينا أن نقرأ الصحف الأجنبية باستمرار. وكان يحيرني في هذه الصحف، وخصوصاً الإنكليزية منها، أنها تقدم الطقس على

كل شيء. إنه أول ما تقع عينك عليه في الزاوية الأولى من الصفحة الأولى، في حين أن هذه الزاوية كانت مخصصة عندنا لأجبان إدريس المستوردة الشهية. وبالإضافة إلى الزاوية اليومية كانت تحتل الصفحات الأولى أخبار الصواعق والزوابع والأعاصير. وحتى في الروايات الإنكليزية يبادر البطل دائماً البطلة بقوله: «إنه لنهار جميل يا بنيلوب»، وبعد ذلك يروح يبثها اللواعج. وحتى روايات أغاثا كريستي تبدأ دائماً بأن الطقس كان مشرقاً أو العكس. وكانت هناك دائماً أنباء تقول إن الطقس أفسد حفل تتويج ما أو عرساً ملكياً ما أو ألغى مباراة الـ«كريكت»، وهي اللعبة الوطنية التي لا يفهمها أحد سوى الإنكليز والباكستانيين والهنود.

ولم نكن نفهم طبعاً ماذا يعني الطقس؟ فنحن من بلاد تحتفل بشم النسيم وتعلق الياسمين على مداخل الدور وتلهج بالفيء والظل والطل كما يلهج الأوربيون بالدفء. أما موضوعات الإنشاء في المدارس فتتحدث كلها عن شقائق النعمان. وكان الربيع يعلن نفسه عندنا بصورة رسمية عبر ثياب الدرك الكاكية، لكنه يكون في الواقع قد حل قبل ذلك بكثير. وكيف يمكن لنا أن نهتم بالطقس والشمس تسبقنا إلى كل مكان. وكنت أحياناً أستفيق مبكراً جداً؛ لكي أستبق وهجها، ولكن ما إن أرتدي ثيابي حتى تكون النافذة قد دفعت بالنور إلى كل زاوية. وفي القرى كانت الناس تعود من الحقول في الثامنة صباحاً، وهو الحد الأقصى لتحمل الشمس، ولا يعود الفلاحون إلى تلك الحقول لريّها إلا، وقد غابت من جديد أو أوشكت على ذلك.

تدخل مكتبك وأنت في قميص قصير الكمين وتسدل ستائر «بيطار المعدنية» لكي ترد الشمس، ومعك منديل كان جافاً قبل ربع ساعة فقط وأصبح الآن إسفنجة، ثم ترى على مكتبك «التايمز» وفي صدر صفحتها الأولى بالخط العريض «الطقس اليوم» (Weather Today)! مالك وللطقس اليوم. غريب أمر هؤلاء الإنكليز.

هكذا كنا نقول.

لا، يا سادتي، ليس غريباً أمر الإنكليز، والآن نعرف تماماً لماذا الطقس هو كل شيء؟ لأننا، ببساطة، أصبحنا في الأسبوع الأول من حزيران (يونيو) ولا نزال من دون شمس ومن دون «طلعت يا محلا نورها». والناس تنتظر مذيع الطقس هنا أكثر من مذيع الأخبار. وإلا كيف لك أن تعرف أي معطف سترتدي غداً وأي سترة ستعطي لابنك؟ وهل يمكن الاكتفاء بكنزة واحدة أم لابد من أكثر؟ إن المسز تاتشر تحكم هذه البلاد بأصابع من فولاذ والطقس يحكم كل شيء بقبضة من ماء ورياح وضباب وثلوج. والتعابير التي تستخدم هنا لرسم حركة الطقس قد تبدو مضحكة في أي بلد آخر. إنهم يقولون لك: «طلات شمسية» في إشارة إلى طلات محتملة للشمس. وغالباً ما يعتذر المذيع، وهو يقدم لك طقساً شباطياً في عز الصيف. فقد حرمت بريطانيا الفصول الأربعة، لكنها غالباً ما تتمتع بأربعة فصول في يوم واحد. وطبعاً ليس بين الفصول الأربعة صيف أو ربيع، بل خريف متبدل مائل إلى الشتاء، أو إلى الخريف، أو إلى الخريف الشديد. فهل

عرفتم الآن لماذا استعمر الإنكليز الهند وأصروا على إقامة المعسكرات في ظل الأهرام واستوطنوا في جنوب إفريقيا وجعلوا من أستراليا مقاطعة أخرى مثلها مثل بركشاير ولانكاشاير وهمشاير؟

والآن وقد زال الاستعمار، فإن الإنكليز يهجرون بلادهم في رحلات «تشارتر» كل عطلة تزيد على ثلاثة أيام وكل راتب يزيد على ثلاثين جنيهاً في الأسبوع. وتتحول بعض مناطق إسبانيا في الصيف إلى نواد إنكليزية ليست ربطة العنق شرطاً أساسياً فيها ولا قراءة «الفايننشال تايمز». وكل بقعة تطل عليها الشمس في الكون لابد من أثر إنكليزي حولها، ومن هنا مثلاً أن الطريق الرئيسة في نيس سميت «منتزه الإنكليز». أما التلال المحيطة بالمدينة ففيها كتاب ونجوم وفنانون حملوا حقائبهم ولحقوا بالشمس إلى حيث تشرق ولا تغيب قبل أن يتأكد الناس من أنها أشرقت حقاً.

وقد اخترع الإنكليز لأنفسهم كل هذه الحدائق والبحيرات والجنان ومعارض الزهور وجعلوا من بلادهم حديقة كبرى معلقة بين البحار، ولكن من دون جدوى، فعندما ترعد الدنيا فهذا رعد، وعندما تتكاثف الغيوم في حزيران فتلك غيوم متلبدة، وعندما يشتاق الإنكليز إلى الشمس لا مفر لهم من شركة «أيبيريا» للطيران، فالحقيقة أن الشمس هي في «كوستا ديل سول».

obeikandl.com

موقف واحد

يخيل إليّ أحياناً أن معظم الشعراء عبارة عن قصيدة واحدة، ومعظم الكتاب عبارة عن كتاب واحد، ومعظم الروايات مجرد موقف واحد. وإذ يتذكر المرء ماذا قرأ وماذا شاهد عبر السنين يكتشف أنه يعلق في ذهنه دائماً موقف ما أو سطر ما. وقد شاهدنا في السيتنيات واحداً من أجمل أفلام ذلك العقد وعنوانه «نزهة». ولا شك في أن جميع أولئك الذين شاهدوه يذكرونه إلى اليوم. لكن ماذا نذكر منه بالضبط؟ ما هي قصة تلك «النزهة» بين كيم نوفاك، شقراء ذلك الزمان، ووليام هولدن؟ لاشيء. فقد كانت روعة الفيلم الذي جر الناس جرّاً إلى دور السينما، تكمن في موقف واحد وكلمة واحدة، وهي عندما يلتقيها ذلك الغريب عند الأرجوحة فتنظر إليه وتقول فقط:

- هاي!

وعاشت كيم نوفاك فترة طويلة بعد ذلك على أمجاد كلمة «هاي» التي لم يعد من الممكن طبعاً تكرارها في أي فيلم آخر. ولقد شاهدت تقريباً معظم مسرحيات شكسبير، وفي أداءات كثيرة ومختلفة، وعبر ممثلين مجهولين أو عمالقة من حجم لورنس أوليفييه، ولكن لا يغيب عن ذهني ذلك الصوت في تايمون الآثيني حين يصرخ: «فليحل الطاعون على هذا الكلب» فيأتيه صوت آبيمانتوس فوراً: «هل أنت تحادث ظلك؟».

وقد عمد معظم المخرجين في السينما إلى جعل المشهد الأخير هو المشهد الأهم، أو ذروة الإثارة لمشاعر الناس، ولذا تبقى في ذاكرتنا دائماً تلك النهايات السعيدة أو المأسوية، ويبدو كأن الفيلم صنع من أجل مشهد. وإذا تخيلنا تغييراً أو تعديلاً في ذلك المشهد تبين لنا أن كل شيء في بناء الرواية سوف يتغير أو يسقط. فلنأخذ مثلاً قصة «ليالي بيضاء» لدوستويفسكي. إنها حكاية امرأة عاشقة تنتظر حبيبها عند جسر بطرسبورغ في العاشرة من ذات مساء. لكن الرجل لا يأتي، بل يجيء إلى الجسر بدلاً منه رجل يائس وحيد يبحث عن قصة حب، ويبدأ بين الغريب والعاشقة حوار. ثم يستأنفان الحوار في الليلة التالية، ثم في الليلة الثالثة. ولكن حين تصل القصة إلى ذروتها ويتوقع القارئ بداية علاقة جديدة يطل فجأة العاشق القديم... وتظل ليالي العشق الجديد بيضاء! فلو أن الحب تطور بين العاشقة والرجل العابر لكانت القصة عادية. لكن هاهو دوستويفسكي أكبر علماء النفس يترك العشق في مكانه ومكانته، بحيث تكبر عليك المفاجأة.

وفي السبعينيات عرض أيضاً فيلم بعنوان «في انتظار غريغوري» وهو على الأرجح عملية اقتباس سينمائية مبهّرة ومملحة ومضاف إليها وجه جولي كريستي، عن مسرحية صموئيل بيكيت الشهيرة «في انتظار غودو».

طبعاً غريغوري، مثل غودو، لا يأتي. إنه مجرد خيالٍ في عقل امرأة، تماماً مثل ذلك الرجل الذي أحب لوحة على الجدار، وظل يبحث عن صاحبتها. لكن المفاجأة في «انتظار غريغوري» أنه لا يأتي في حين أن المفاجأة في امرأة اللوحة... أنها تنزل منها في نهاية الأمر إلى الواقع وتحب عاشقها.

فالإثارة دائماً في غير المتوقع أو في تصعيد مشهد ما إلى أقصى ما يتحول من دون السقوط في الإسفاف. إذاً، تحميل أي وصف أو موقف أو حالة أكثر مما يمكن أن تتحمل يتحول فوراً إلى مبالغة مطاطة.

ماذا تستطيع أن تضيف مثلاً إلى هذه الجملة: «كانت الحقول أمثولته والطبيعة كتابه»؟

الحقيقة أنني لم أعد أذكر اسم الكاتب ولا عنوان الكتاب، لكن جملة من هذا النوع أكثر أهمية من أي كتاب لا يحمل جملة في روعتها وقيمتها. لذلك اختار بعض الكتاب الانصراف فقط إلى صوغ الأقوال المأثورة من دون وضعها في إطار كتابي كامل، مثل لاروشفوكو. إن كل كاتب أو سينمائي أو موسيقي يبحث عن لحظة التصعيد هذه، اللحظة التي يعاكس فيها العادي من أجل الوصول إلى الخالق. ففي فيلم «العراب» مثلاً، لا يعمد زعيم «المافيا» إلى قتل الرجل نفسه، بل يرسل إليه من يذبح حصانه المفضل، لأن قتل الرجال في مسلك المافيا أمر عادي أو يومي. ولو كان «أحدب نوتردام» رجلاً عادياً لما توصل إلى أن يصير بطلاً عند هيغو، لكننا أيضاً لم نحفظ منه سوى مشهد واحد، أو بالأحرى أن الرواية كلها تقوم على مشهد واحد يتكرر، هو مشهد الاعتراف لا أمام الكاهن بل أمام الحبيبة المستحيلة.

غير أن المحظور دائماً هو الاعتماد على المخالفة أو المعاكسة أساساً في الأدب أو في السينما. وعندها يسقط صاحب العمل في التفاهة، بحيث لا يعود يستحق الذكر إلا كمثال... على الإخفاق.

obeikandl.com

أف!

إنه يلاحقني إلى كل مكان، في المترو في باريس، في الفندق في الكويت، في المسرح في لندن، في المطعم في نيويورك. في كل مكان، تقريباً كل مكان.

أحياناً أراه، أحياناً أسمعه. إن له طريقة رهيبة في تعقّب الناس، وله في كل فندق عميل يعطيه الغرفة المجاورة لك، أو الغرفة التي فوق غرفتك. أما كيف يسبقني إلى محطة المترو فإنني لا أدري. فقط أستعيذ بالله وأعزي نفسي بأنني لست ضحيته الوحيدة. إنه ثقيل عام وليس وقفاً على أحد، ولا حكراً على أحد. تدخل إلى المطعم فتسمعه يحكي بصوت عال، كأنما بقية الناس نمل من حوله. وإذا خاطب نادلاً فعل ذلك بلغة الأباطرة، وكأنه اعتاد أن يكون الناس عبيداً لديه. وإذا تحدث وكان في الغرفة المجاورة لك راح يسعل ويكح ويغور في الكحكحة حتى يشق عليك الجدار. وهو لا يأتي بهذه الحركات إلا وفق توقيت معين، فيحرص أن يؤخر نومك في المساء، وأن يبكر في يقظتك نقزة فنقزة وعطسة فعطسة وينهي هذه السمفونية عادة بأن يشد عنق دورة المياه؛ لكي يوحي لك من أي طينة هو.

وحين تقابله في المترو يروح يحملق بك، وكأنه يعرفك من زمان. ومن بين جميع الأمكنة يختار أن يقف أمامك وحدك؛ لكي تتنسم الروائح العطرة المتصاعدة من معطفه. وإياك أن تهرب في المحطة المقبلة، فهو نازل أيضاً هناك.

obeikandl.com

وهو يأتي إلى الفنادق أحياناً ومعه مطرقة. ويختار دائماً الغرفة التي فوقك. وما إن تلقي رأسك إلى الوسادة، حتى يبدأ بالدق على الجدار، وعلى أعصابك، وعلى «ما هي خطيئتي يا ربّ!» وإذا حدث، وكنت تقف في صفّ طويل أمام دار السينما اختار هو أن يصفّر!

هو يصفر عادة في أذنك، ويختار معظم الوقت أغاني عبد العزيز محمود أو ألحانه.

وفي المسرح يجلس دائماً أمامك، وعلى رأسه قبعة! والمرة الوحيدة التي لا يكون فيها أمامك تكون... زوجته وقد خرجت لتوّها من عند المزين. والمزيّن عادة ضدك هو أيضاً، ومع زبائنه، فيتوصل أن يجعل من امرأة شبه صلعاء سيدة كثة الشعر، فقط طوال فترة المسرحية.

وإذا حدث وجاء مع زوجته من دون إرسالها إلى المزيّن فإياك أن تتنفس الصعداء، فهو سيستبدل بذلك معانقتها طوال الوقت؛ لكي يهمس تعليقاته على المسرحية، أي يصبح السدّ أمامك صوتاً وصورة معاً.

إنه يلاحقني إلى كل مكان. ويحاشرني بصورة خاصة في المطارات، حيث يتأفف بصوت عال أمام نافذة التذاكر، ثم في صالة الانتظار، ثم على باب الطائرة. أما كيف أعرفه، فلأنه يضع دائماً خاتماً في بنصره، وهو في حجم إبهام. وحين يسعدك الله ولا تراه، لابد على الأقل أن تسمعه. إنه يتذمر من الطعام، ومن الشراب، ومن ثياب المضيفة، ولا يبتهج إلا إذا هزت الطائرة وارتج الآخرون.

obeikandl.com

وهو يحرص دائماً على أن يحمل آلة كاتبة في الرحلات الطويلة، حيث عندما يشفق الله عليك وتنام يبدأ هو بالعمل...! ألم تقرأ الإعلانات القائلة: نظل نعمل حين ينام الآخرون.

وهو طبعاً شديد الملاحظة. فإذا فككت ربطة عنقك تعباً تدخل وشدها لك... ثم ضحك. وإذا غفوت في القطار وقرر النزول قبلك دق عليك باب العربة صائحاً: «ميلانو! إنها ميلانو!»

يا أخي، مالي ولميلانو؟ أنا تعب ونائم ومسافر إلى باريس وتحية للسيدة أختك وأخت ميلانو. يا أخي، اتركني أنام!

ويخيل إليك أنه نزل في ميلانو. وتشعر بالسعادة والارتياح. وتصل إلى باريس متعباً منهكاً، فتحمل حقائبك وتذهب إلى الفندق. وتستلقي على السرير وتحمل بيدك كتاباً، وإذا به هو في الغرفة العليا، يدق مسماراً في الجدار؛ لكي يعلق لوحة بنفسه، أو لافتة كتب عليها «ممنوع الإزعاج».

obeikandl.com

obeikandl.com

درس في النقطة

المبالغة في إهمال اللغة كالمبالغة في الحرص عليها: كلتاهما مضحكة.

هذه تقتلها حباً، وتلك تقتلها جهلاً. أما اللغة الحقيقية، لغة الإنسان، فهي عند العقلاء؛ أي لا الذين يجعلون من اللغة أحجية منفرة، ولا الذين يرمونها في سلال الجهل.

والتآمر العفوي على اللغة كثير هذه الأيام، أو متكاثر، ومن الفريقين. كأنما توارد خواطر بين الاثنين، أو تواطؤ ضد أولئك الذين لا يزالون يرون في الحرف متعة وفرحاً وقدسية. وأذكر أن الأستاذ سعيد فريحة -رحمه الله- كان يعيد كتابة السطر الواحد عشرين مرة أحياناً، ويوكل إلى خبير في اللغة مسألة تصحيح «الجعبة» وحدها فيما بعد، وبرغم ذلك كله كان يجن جنونه، ويطبق الأرض بالسماء إذا اكتشف أن فاصلة سقطت، أو حرفاً وضع في غير مكانه. وقد كان ذلك الساخر الكبير يضحك طويلاً عندما يسمع النكتة الشهيرة عنه بأنه يبدأ جعبته بكلمة «فركول»، أي فاصلة بالفرنسية، لكثرة ما كان هاجسه كبيراً بروعة اللغة وعظمتها... وبساطتها.

وقد ظلت النقطة نقطة، والفاصلة فاصلة في الصحافة إلى أن خطر للأستاذ إحسان عبد القدوس في الخمسينيات أن يدخل على اللغة العربية لغة التنقيط. أو لغة النقطتين. وبما أن تقليد إحسان كان

موضة تلك الأيام، فقد امتلأت الصحف نقاطاً. لا نقطة نقطة، بل نقطتين نقطتين. ليس فوق بعضهما بعضاً كما هو الأمر في سائر اللغات، بل نقطة وإلى جانبها أختها. ولو كنت أرسم لكي أفسر ما أريد، كما فعل سانت أكزبوري في «الأمير الصغير» لكتبت هكذا..

كان إحسان طبعاً يعرف لماذا يرش قبل كل كلمة.. وبعد كل كلمة.. وما بين هذه وتلك.. وأما الذين قلدوه، فإنهم بالتأكيد لم يعرفوا الفرق بين.. أو. أو أكثر.

لقد حلّت الـ.. محل أول السطر ومحل آخر السطر ومحل الفقرة وصارت الدنيا كلها.. بـ.. فإذا أردت علامة استفهام وضعت.. وإذا شئت علامة تعجب وضعت.. وإذا اضطرك الأمر إلى أكثر كان لابد لك من حوالي... ... ... على وجه التقريب.

طبعاً يجوز لإحسان مالا يجوز لغيره، وهو عندما كان ينحشر الدق معه ـ أو مع بطله ـ يمد يده إلى جبينه ويروح يرش الصفحة كلها.....

.....

.....

وفي النهاية يختمها طبعاً ـ أي يختم هذه النقاط ـ بكلمة «أحبك» فتعرف ـ حفظك الله ـ معنى الأسطر السابقة وبداية الفصل الثاني!

وقد مضت سنوات طويلة على هذه القاعدة التي أطلقها أو أدرجها الأستاذ عبد القدوس، لكن اللغة تشهد هذه الأيام تجديدات كثيرة على يد أناس، لا هم في حجم إحسان، ولا في شهرته، ولا هم في حجم أي

obeikandl.com

كاتب آخر. وهذه التجديدات الرائعة ليست في الكلمات، ولا حتى في النقاط، ولا في الفواصل، إنها في استخدام المعقوفين، أو القوسين، أو المزدوجين، أو الهلال، أو ما شئت من العلامات الفارقة التي لها ضرورة وقاعدة وموجب في كل لغة... إلا فيما يكتب حديثاً عندنا.

أحد الكتاب مثلاً يذكر كلمة الشعر، ويضعها بين معقوفين. من هذا النوع [ ] لماذا؟ ماذا حدث للشعر؟ ماذا يقصد صاحبنا غير ما نعرفه عن كلمة شعر؟ لا ندري! لكن لابد أن خياله يفوق خيالنا بكثير ومعرفته تفوق معرفتنا، وإلا لماذا هذان الـ[ ]؟ وكاتب آخر يضع أمام كل ثالث كلمة من كل ثالث جملة قوسين من هذا النوع ( ) لماذا؟ حقاً لا أدري. وكاتب آخر يبدو أنه عصبي قليلاً؛ لأنه يكثر من المربعات الفارغة، ثم لا يلبث أن يملأها بعلامات الاستفهام هكذا [؟؟؟] وحين تفرغ ماكينة جمع الأحرف من علامات الاستفهام يلجأ إلى علامات التعجب، أو الانبهار، أو الزعيق!

طبعاً، أنا من القراء البسطاء والسذج، فعندما أرى [؟؟؟] لا أفهم شيئاً سوى ما رأيته. أي أنني، مع الاعتذار، لا أستطيع أن أرى تجديداً في الشعر، والفكر، والأدب لمجرد أن صاحبنا وضع كم علامة استفهام ضمن مربع فارغ، أو ثلاثي مفرغ إذا شئت. اللغة كلمة في مكانها، أو فاصلة في مكانها، أو يا سيدي، ثلاثي أحسن استخدامه عند الضرورة، أما أن يعتبر تجديداً، أو خلقاً، أو أسلوباً هذا الاستهلاك المجاني لآلات الكمبيوتر الحديثة، فلا.

obeikandl.com

إن ألف [ ] مضافاً إلى ألف ( ) إلى ست مئة!!! في غير موضعها، لا تشكل كلمة واحدة، رائعة أو غير رائعة. لا تشكل عنواناً، ولا خاتمة، ولا لازمة. لا تشكل شيئاً. إنها مجرد مصادفات شكلية تثقل على اللغة، وتسيء إليها. ولابد للمرء أن يوجه نداء حاداً إلى السادة الذين يعتقدون أن هذه العلامات قد وضعت جزافاً في آلات الكمبيوتر، أو أولئك الذين يعتقدون أن استخدامها يزيد من أهمية النصوص.

إن شيئاً واحداً يمكن أن يضيف إلى الكلمة هو الكلمة نفسها. والعلامات تزينها وتوضحها وتبرزها، إذا كان الذي يكتبها أستاذاً ومجتهداً مثل سعيد فريحة، لا إذا كان متكلاً على ثراء الكمبيوتر.

ولكن يبدو أن زمن المجتهدين قد مضى في الصحافة الحديثة. وأولئك الذين يرشون المعقوفات والأقواس لا يزالون أكثر رأفة بنا على الأقل من الذين يرشون الكلام الفارغ ويسطّحون الفكر، ويعاملون الكلمة كالبطاطا... المسلوقة طبعاً!.

obeikandl.com

شمّام هوا قطّاف ورد!

كنت أعتقد أن المشي متعة أو رياضة، لكنني قرأت أمس أنه فن من فنون الحياة. إنه كسل متحرك، لا كسل استرخاء. هو بالأحرى استرخاء مفيد. رياضة ذهنية هادئة، ورياضة جسمانية معتدلة، وأحياناً تضيف على هذه، وتلك بهجة النظر إذا كنت في قرية، أو حديقة، أو غابة، أو ملاصق لهذه الطبيعة الرائعة بأي شكل من الأشكال.

وقد كان عليّ أن أقرأ هنري ثورو وما كتبه في القرن التاسع عشر؛ لكي أفهم ماذا يعني تعبير "شمّام هوا قطاف ورد" الذي نشأنا، وربينا على سماعه. إذ ليس في الكون تعبير من دون سبب كما أنه ليست هناك زهرة من دون حكمة. وعندما تصل إلينا تلك التعابير تكون قد فقدت أسبابها وأصبحت قولاً شائعاً يردده الناس من دون السؤال عنه. ويروي ثورو أنه في العصور الوسطى تعارفت الناس على كلمة جديدة لا علاقة لها باللغة لوصف أولئك الذين كانوا يقرعون الأبواب بحجة المشاركة في الحروب، أما في الحقيقة، فكانوا يفعلون ذلك للعيش. وتذكرت أننا كنا نعطي الذين بلا عمل، لسبب أو لآخر، لقب «شمام هوا قطاف ورد». يا لها من متعة. تصوّر هذه المهنة الجميلة: رجل يهيم في الحقول، فإذا قرر التوقف، توقف أمام وردة وقطفها! وسواء أخذها إلى من يحب، أم رماها في نهاية الحقل، فالوردة واحدة. حسناً، ماذا تفعل يا صديقي؟ والله لا شيء تقريباً، أستفيق

صباحاً، فأذهب على المرج، أتفقد العصافير أولاً عند شجرة "البرزق"، ثم أطل على الساقية؛ كي أتفقد الرذاذ المخلوط بالضباب، وبعدها أذهب إلى النهر، فأتأمله. أتأمل، أتأمل، أتأمل، وحين أشعر بالتعب أقطف لنفسي شيئاً من الثمار، ثم أعود متعباً على البيت، فأستريح!

بكلام آخر، صاحبنا موظف في «جنة عدن». ولكن من دون متاعب، أو مشكلات سيدنا آدم. يصوّره مثلاً موظفاً في شركة الكهرباء، أو في شركة صرافة يبدل للناس مليون ليرة في اليوم من عملة إلى أخرى (بضم الألف) وهو جالس إلى... كنبة. ولست أدري بالمناسبة ما هي المواصفات التي تطلب من موظفي الصرافة. هل يُسألون عن الشهادات والخبرة، أم يطلب إليهم فحص طبي لامتحان أعصابهم؟ لكن على الأرجح أن موظفي الصرافة يصيبهم ما يصيب طبّاخي الحلوى، أي ردة فعل معاكسة.

ثمة أنواع كثيرة من المشي، في أي حال، وليست كلها في المروج والتأمل. والمدن التي نسكنها خاليات من أية مروج. أما الحدائق العامة، فوقف على التماثيل والبط، غير أن المشي يظل الرياضة الذهنية المثلى، تمشي فتقرأ ملصقات عن الجديد حولك، تمشي فتقرأ ملصقات عن القضايا السياسية، تمشي فتتوقف عند واجهة فتشعر أنك امتلكت، ولو لم تمتلك، وتمشي فترى وجوهاً خلف وجوه وقامات وأشكالاً، وسحنات، وملامح، وفروقات، فتسبّح باسم ربك الذي خلق.

إن المشي هو أفضل صيغة للتعاطي مع الآخرين، وأفضل وسيلة للاقتراب من الذات: تقترب من الآخرين من دون أن تقربهم وتقارب ذاتك من دون أن تعزلها، بل إن ثورو يقول ضاحكاً: إن الساقين هبة؛ لكي نمشي عليهما، لا لكي نضع واحدة فوق الأخرى. وعندما طلب أحد الزوار من خادمة ووردسورث أن تذهب به إلى مكتبته، ومكتبه قالت له: «هذه هي مكتبته، أما مكتبه، ففي الهواء الطلق».

ثمة اتفاق على أن أهم شروط المشي هو أن تكون أنت وجسدك في مكان واحد، ومن ثورو أيضاً ذلك القول الشائع: لقد قطعت جسدياً أكثر من ميل، لكن ذاتي لا تزال في مكانها. ولكن من أين لنا غابات كتلك التي كان يقطعها الكاتب كل يوم ضاحكاً ساخراً من الحدادين، وأصحاب المحلات، وأصحاب البيوت الذين يجلسون أمام أمكنتهم طوال النهار ساقاً فوق ساق؟

الرومان كانوا يقولون: إن الدنيا خلقت للمشي، للفسحة. وهناك أمكنة معينة للاستراحة. وإذا كانت البحيرات هي استراحات الأنهر، فالقرى هي استراحات الطرق. القرى أجسام، والطرق أذرع، وسيقان.

و«فرسان المشي» يختارون عادة الغابات والحدائق. أما «الطرق العادية، فقد وضعت للخيول والناس الذاهبين في عمل ما». البعض يمشي في الطرقات، والبعض الآخر يمشي في الطبيعة، في الجمال. وأجمل المناظر في الأفق هي تلك التي يملكها النظر وحده، غير أننا

لم نعد نملك الطبيعة، لم نعد نملك الوقت الكافي لها. إنه وقف على «قطافي الورد» الذين لا يزالون يجرؤون على اختراق متعة الكسل فيما يتناقل الآخرون إلى المتع المغلقة، أو المجردة.

وإلى صديقي الكبير الذي دفع إليّ بكتاب برتراند راسل «متعة الكسل» أقول: هل رأيت الآن ماذا فعلت بي؟ هذا المقال أعلاه.

obeikandl.com

ضرب العمر

قيل لي أن أنتظر في جناح الوزير، فالرئيس نفسه لا يزال مع زعيم المعارضة البريطانية المستر نيل كينوك، وبالفعل كنت قد رأيت المستر كينوك على باب الجناح. وكان ينتظر هناك، وحيداً لم يتعرف إليه أحد، وبارزاً هادئاً مثل كل الإنكليز، حكاماً كانوا أم على شفير الحكم.

دلفت إلى جناح الوزير المطل على «الهايدبارك» فرأيته واقفاً عند النافذة يتأمل الأشجار العارية الممتدة تحته. والبحيرة أيضاً. والطرقات في قلب هذه الحديقة الهائلة. ورحّب بي، وأجلسني على أحد المقاعد، ثم عاد إلى النافذة؛ ليختلي بنفسه. يتأمل. ثم يتأمل ويحدثني. وعندما مرّ الوقت بنهمٍ خلف النافذة، أصيب هو بالضجر. وأصبت أنا باليأس...

وبين كل نصف ساعة ونصفها الآخر كان يطل علينا من باب خلفي رئيس التشريفات، ويفرك يديه، ويحني كتفه الأيسر، ثم يفرك يديه مجدداً، بين الخجل والتسويف والاعتذار: لحظات ويكون الرئيس معكم، أو بالأحرى نكون نحن مع سعادته.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. وكان موعدي مع الرئيس في الثامنة من ذلك الصباح. ولم أكن قد طلبت منه موعداً، أو عرفت أنه في لندن أو سمعت باسمه من قبل، لكن أحد الأصدقاء قرر أنه

يريد أن يعمل معي «ضرب العمر»: يجب أن تقابله. يجب أن يحدثك عن التقدم المريع في جزيرته. يجب أن يحدثك عن الأهمية السياسية للبحر الكاريبي، ودبّر صديقنا الموعد.

وصباح اليوم التالي كنت أفيق مع ديوك لندن؛ لكي أكون عند الرئيس الموعود. وكان صديقنا المشترك في الانتظار، أولاً لكي يؤمن أنه عمل معي «ضرب العمر» وثانياً لكي يؤكد للرئيس الكاريباتاني أنه عثر له على صحافي يريد منه مقابلة.

حلّت علينا الظهيرة، ونحن في جناح الوزير. ولم يعد أحدنا يكلف نفسه عناء الحديث مع الآخر. ولا عاد رئيس التشريفات يحني كتفه الأيسر أمامنا. وخفت أن أمشي، فيزعل صديقي، وخشيت أن أبقى فيزعل صديقه، أي أنا. وسلمت أمري لله. ثم سمعت وقع حوافر خيول، فالتفت الوزير إليّ بعد صمت طويل، وقال متسائلاً: من هؤلاء؟ وقمت إلى النافذة، فرأيت على الطريق تلك الخوذات الذهبية اللماعة والسترات الحمراء والخيول الرمادية المطهمة التي نراها في الصور. فقلت له: إنه الحرس الملكي يعود إلى ثكنته من القصر.

– ها ها ها... وأين هو القصر؟

قلت: إنه في القاطع الآخر من الحديقة. لكنني تذكرت فجأة أن الجماعة في زيارة رسمية، وأن الرئيس الموعود ووزيره، ومرافقيه الذين لم يعرفوا نيل كينوك، برغم أنه الشعر الأحمر الوحيد بين سياسيي العالم هذه الأيام، مدعوون إلى العشاء في قصر باكنغهام وفقاً للتقاليد عندما تكون الزيارة رسمية، فهل الوزير العزيز يستحمرني أم أنه يتظاهر بالغباء؟

obeikandl.com

وعاد يسألني والخيل تدق بحوافرها معزوفة العودة إلى الإسطبل:

- ولماذا لا تبقى هذه الخيول في القصر؟

يا له من سؤال ذكي! لم أعرف طبعاً بماذا أرد، لكن الوزير عاد فأنقذني عندما رفع مستوى الحديث مجدداً:

- وهل الملكة تحكم هنا؟

لا حول ولا قوة. بعد خمس ساعات من الانتظار ها هو السيد الوزير يدير مقابلة صحافية معي، ورحت أبحث عن مخرج، فقلت له:

- وماذا عن جزيرتكم السعيدة، وعن أقراط الموز وسهول الكاكاو؟

والتفت فجأة نحوي ورفع سبابته في وجهي: هس. أرجوك... هس.

تساءلت: ماذا أكون فعلت، ما هي الجريمة التي ارتكبتها في الحديث عن أقراط الموز؟ لكن الوزير كان قد سارع إلى القول إنه عندما يكون الرئيس على رأس الوفد، فهو وحده يتكلم في الشؤون الوطنية كالكاكاو، والموز، وغيرهما.

قلت: حسناً، لكن ها نحن هنا منذ الثامنة، وفي الطريق منذ السابعة، وقد استيقظنا في السادسة؛ لكي نكون على الموعد، لكن سعادته لم يطل علينا حتى الآن.

وعاد الوزير إلى النافذة. وشاهد برجاً طويلاً أثار فضوله، فسألني: ما هذا؟

قلت: هذا؟ إنه برج إيفل!

obeikandi.com

قال: ولكن برج إيفل في باريس، ونحن في لندن.

وقلت له مهنئاً: كيف عرفت؟ كيف عرفت؟ وكنت أقصد طبعاً كيف عرف أننا في لندن، وليس في باريس، ربما من الهايدبارك، ربما من مشهد الخيل، ربما أيضاً من الدعوات إلى قصر باكنغهام، من يدري في هذه الحالات المعقدة.

صارت الأولى. الأولى بتوقيت بيغ بن، وليس بأي توقيت آخر: طن! طنة واحدة فقط، والتفت إليّ الرجل، وقال في دهشة: إنها لساعة ضخمة، هل هي قريبة من هنا؟

وكان ضيق الساعات الخمس قد فعل فعله، فقلت: ليس تماماً. إنها في الشانزيليزيه!

ورفع رأسه عن النافذة في عجب مرة أخرى، وقال:

و«الشانزيليزيه هل هي بعيدة من هنا؟».

حملت أوراقي، وذهبت. وعلى إحداها كتبت رسالة شكر للصديق المشترك!

obeikandl.com

ماء وملح

وصلت إلى نيويورك في الخريف الماضي، وأنا أحمل معي ألماً شديداً في الأسنان، وأرغمت نفسي على الصبر حتى اليوم التالي لعل وعسى، وفي اليوم التالي انخرطت فوراً في مشاغل الأمم المتحدة، فلم أنتبه إلى الضرس الموجعة، إلا عندما أتى المساء، ولم تظهر نجوم الليل كما يعدنا عبد الوهاب!

ولم يطل ليلي، ولكن لم أنم تلك الليلة. وفي الصباح فتحت الهواتف على كل صديق لي في المدينة أسأل عن أفضل الأطباء، وأعطاني أحدهم اسم طبيب عربي وعنوانه، فطلبت منه موعداً عاجلاً، وذهبت إليه بعد الظهر.

وفتحت لي الباب ممرضة (حسناء، لكي تكمل الجملة) ودخلت بي إلى كرسي طويل وقالت: «تمدد هنا». تمددت. ثم جاء الطبيب من فوق رأسي، فنظرت إليه فلم أجد فيه ملامح عربية. بل عدم المؤاخذة، كانت ملامحه يابانية.

وقلت في نفسي: يا ولد هذه نيويورك، ربما، ربما الوالدة من اليابان. ثم تطلع إليّ الطبيب العزيز، وأمسك فكي، ثم أدارني بحنكي صوبه، وراح يهز رأسه يميناً وشمالاً وطلوعاً (نزولاً فيما بعد) وانتظرت أن يقول لي شيئاً بالعربية أو الإنكليزية، أو يا سيدي، بالنيويوركية، لكن الأخ فاجأني بأنه يتحدث الصينية بطلاقة. فهز رأسه من جديد، ووضع يديه حول خصره وقال هزّاً:

– آه، تشن سن واو هي!

قلت متسائلاً: نعم؟

قال:

– آه، سنتو مام يوكي تانغ!

وعاد إلى الوراء وراح يفكر، ثم هجم علي من جديد، وجعلني أفتح فمي، وعاد يصرخ ما معناه:

– اوم سوم تيوانغ تاكاوانغ.

وانتفضت من مقعدي. ما بقا بدها، لقد بدا أن الأخ يكبر كلامه.

تيوانغ تاكاوانغ كمان!

أين أنا؟ وماذا جاء بي إلى هنا؟ وهل خدرت قبل الضرس أم بعده أم أنني لم أخدّر بعد؟ وحاولت أن أعترض فلم أستطع. لقد كنت في كابوس، أو هكذا خيل إليَّ. وبعد جهد معرق، استطعت أن أصرخ بأعلى صوتي:

– ماوتسي تونغ. تشان كاي تشك. ايغ رولز، سيسامي برونز. سي ويدز!

وهذا كل ما أعرفه من اللغة الصينية المؤلفة من خمسة آلاف حرف. وفيما أنا أستغيث دخل علينا، بلباس أبيض، شاب بدا هذه المرة أنه غير صيني، ونظر إلي في شفقة واضحة، وقال:

obeikandl.com

- الأخ سمير!

وانحنيت انحناءة قوية، وقلت: تشوم سوم. ثم تذكرت أن الرجل حدثني بالعربية، فقلت: أجل. أجل. أنا هو. وحضرتك؟

قال: «أنا الدكتور هاشم!»

ورحت أشد على يديه مهنئاً نفسي، وأخذت أستعيد بعض الوعي، فسألته: ماذا أتى بي إلى هنا؟

قال: «بسيطة. بسيطة». ثم شرح لي أن عيادته ملاصقة لعيادة الدكتور الصيني، وأنني لست أول من يتعرض لهذا العذاب الصيني.

وأخذني الدكتور هاشم برفق إلى عيادته. ثم بدأت أفعال الأمر التي يتقبلها المرء من أطباء الأسنان، ويرفضها من غيرهم: «افتح»، «أغلق»، «ارتفع قليلاً»، «انزل قليلاً». «بس. خليك». «أيوه». «شكراً».

وراح الدكتور هاشم، وهو بالمناسبة شاب لامع، ينظر في هذه المغارة، ويعد، ثم يتمتم أشياء لا أفهمها. وفيما هو يفعل ذلك نظرت أنا إلى الجدران فرأيتها مغطاة بالشهادات التي يحملها من أوروبا وأميركا، فازددت اطمئناناً. وأخيراً قال:

- شغلتك طويلة، ضرسك في حاجة إلى نزع.

قلت: لكنني الآن لا أملك الوقت.

قال: «بسيطة من هلّق لوقتها، تمخمض بماء وملح!».

obeikandl.com

وقلت في نفسي: ما هذا الطبيب المتخرج في كبرى جامعات العالم، ويعطيني نصيحة جدتي: ماء وملح! ولم أقل شيئاً، لكنني في صباح اليوم التالي ذهبت إلى طبيب أميركي آخر، فقال لي:

- شغلتك طويلة. ضرسك في حاجة إلى نزع العصب!

وقلت له: إنني لا أملك الوقت، فقال: «من الآن لوقتها عليك بالماء والملح».

وتركت نيويورك، وعدت إلى لندن، وذهبت إلى عيادة طبيبي، رمزي قربان، وقلت له: ما رأيك في الموضوع؟

قال: «بدك الحقيقة، من هلَّق لوقتها، ليس لك سوى الماء والملح!».

obeikandl.com

بوف

ذات يوم كنت ذاهباً لإجراء مقابلة مع رئيس تحرير الـ«لوموند» المسيو أندريه فونتين. وكانت معي رفيقتنا في «المستقبل» نايلة نصر، وهي ضحكة في زي فتاة. وإذا سألتها من أين الطريق، ضحكت، وإذا قلت لها صباح الخير ضحكت، وإذا تأخرت وعاتبتك على ذلك، فقعت من الضحك.

ومع هذا المسلسل من الضحك، ذهبنا إلى مبنى الـ"لوموند" في بولفار الإيطاليين قرب الأوبرا. وخلال الطريق رحت أمارس الأستذة على هذه الفتاة الصابرة، وأحدثها عن الفرق الهائل لدى الفرنسيين بين لغة الشارع ولغة الكتاب. لقد استعمر الفرنسيون العالم بلغة ديكارت، لكن ما إن تأتي إلى باريس، وفي ظنك أنك لم تسمع سوى اللغة الأكاديمية، حتى تمتلئ أذناك بعبارات من نوع «بوف» أو «باف» أو «شي با موا» (Bouf. Baf. Ché pas moi).

وينكت الفرنسيون كثيراً على بعض الأفارقة؛ لأنهم يتحدثون الفرنسية على طريقة «موا بارتير، توا ريستيه» (moi partir, toi rester). لكن الحقيقة أن شبيبة باريس لا علاقة لها بلغة فاليري، لا في الملهى ولا في المقهى، ولا في الشارع. أما في الجامعة، فإني لست أدري، ولكن يبدو أن المسألة ليست جديدة، وعندما أثرنا الموضوع أمام المسيو فونتين

أخبرنا أن راسين كتب في العام 1650 أنه صعب عليه كثيراً أن يفهم أهالي ليون وفالانس «أما في باريس، فقد أصبحت في حاجة إلى مترجم... مثلي مثل أي قادم من موسكو».

وقد توحدت اللغة الفرنسية بعد ظهور الطباعة. لكن أهل الشارع حافظوا على 13 لهجة مختلفة كانت تتألف منها هذه اللغة سابقاً، وبينها طبعاً «باف» و «بوف» و«شي با موا». ويقال: إن الكاردينال ريشيليو لم يؤسس الأكاديمية الفرنسية إلا لكي ينقذ فرنسا من هذا التدهور اللغوي. فقد أنبأه سكرتيره المسيو فرانسوا دو بواسوربير بذعر شديد أنه في صالونات باريس الأدبية التي تسيطر عليها السيدات، لا يقال «قدمين» مثلاً بل «العزيزتين الموجعتين» ولا يقال مطر عن المطر، بل يقال «العنصر الثالث الهاطل».

«ياللهول! ياللهول!» قال وزير الخارجية الرهيب ودعا الصالونات كلها إلى أن تكون في خدمة الدولة تحت اسم الأكاديمية الفرنسية. وسوف يتوجب على السادة أعضائها منذ ذلك الوقت المحافظة على اللغة حرفاً حرفاً... بعيداً طبعاً من أعين السيدات. إذ من بين 41 مقعداً خصصت للأكاديمية كان هناك 40 مقعداً حقيقياً يشغلها رجال، وكان هناك مقعد خال واحد تملأه امرأة في حال اضطرت فرنسا إلى حشر إحدى عظيماتها تحت سقف الأكاديمية، كمثل المدام دو سيفينيه أو جورج صاند أو كوليت.

لكن الأكاديمية التي ميزت بين الرجال والنساء ميزت أيضاً بين الرجال والرجال لزمن طويل. وقد قبلت في عضويتها كورناي وراسين، ليس بسبب عظمتهما، بل لأنهما ألقيا قصائد حارة في ذكرى ميلاد

الملك. واستبعدت موليير؛ لأنه ممثل، أما ابن الوزير كولبير، فقد ولد، وفي فمه عضوية كاملة في الأكاديمية. ولائحة الكتاب الذين استبعدتهم الأكاديمية أكثر بكثير من لائحة أولئك الذين ضمتهم إليها، وكان بينهم ديكارت، وباسكال، وديدرو، وبومارشيه، وروسو، وبلزاك، وستاندال، وفلوبير، وزولا، وبروست، وجيد، وكامو، وسارتر، وأنويّ، وأندريه مالرو.

ولكن تصور أن هذه الدقة التي تستبعد مالرو، وستاندال، وبروست ما أن تنزل إلى الشارع هي نفسها حتى تقبل بـ«بوف» و«باف» و«شي با» على أنها كل الحديث ومعالم الحوار. وفيما كنت غارقاً في الشرح لزميلتنا نايلة وفي الاستماع إلى تعليقاتها وكلها ـ بسبب الإقامة الباريسية الطويلة من «بوف» و«باف» و«شي با» ـ وفيما نستعد لقطع بولفار الإيطاليين إلى الشارع الصغير الذي تقوم فيه إحدى كبرى صحف العالم، حدث فجأة اصطدام أمامنا. وتطلعنا، وإذا نحن، والحمد لله على بعد شعرة واحدة من السيارتين المصطدمتين. وكانت إحداهما شاحنة رمادية يقودها شاب أزرق الثياب والسجائر والملامح، وأخرى صغيرة يقودها ما شاء الله «خواجا بريمو». ولم يكن الحق على أحد سوى الزحام وأعصاب الفرنسيين التي تثور إذا كان الطقس رمادياً، وتثور إذا كان غائماً وتغور إذا كان مشمساً. لكن السائق الأزرق قرر أن يتعشى سائق البريمو قبل أن يتغداه هذا، فنزل من شاحنته نزول «صخر حطه السيل من علِ» وصرخ:

– «بوف»!

وخاف السائق المرتب أن يتغداه صاحبنا قبل أن يتعشاه هو فجمع نفسه وجرأته وصرخ:

- «باه»!

و«بوف» من هذا و«باه» من ذاك إلى أن راق الاثنان واكتشفا أن سيارتيهما لم تصابا بضرر. وساد هدوء، وعاد الاثنان إلى مقعديهما. وقلت لنايلة في خبث:

- ما رأيك أن أشعلها من جديد؟

قالت: «كيف؟» قلت: مهلاً.

ثم فتحت نافذة سيارتي، وتطلعت في سائق الشاحنة، وأشرت إلى السيارة الأخرى وهززت رأسي بأسى، وقلت:

- «بوف»!

وما إن صرخت «بوف» حتى نزل السائق الأزرق إلى صاحبه ووضع يده حول خصره، وراح من جديد: «بوف» من هنا و«باف» من هناك. ولم ينته المشكل إلا حين فرط الزحام وعبرنا أخيراً إلى عالم الـ«لوموند» لنصغي إلى واحد من أكثر الفرنسيين أناقة في اللغة. ولا نعرف كيف تدرب فونتين على هذه الأناقة، ولكن يذكر المرء أن ستاندال كان يتمرن على البلاغة بقراءة قانون نابليون، تماماً كما يتدرب الملاكمون بضرب الأكياس المحشوة بالتبن.

obeikandl.com

التنّين الجديد

كنت في الثامنة عشرة من العمر. لا، عفواً، كنت في السابعة عشرة. فالعبارة السابقة تبدأ بها «الأجنحة المتكسرة» وأنا أحب الاقتداء لا التقليد. إذاً كنت في السابعة عشرة من العمر (آه على السابعة عشرة من العمر). وكان العشاق في تلك الأيام يلتقون عند العين. تصور «العين» وضوء القمر متدافعاً نحو السماء الزرقاء قبيل الغياب. والعصافير تأوي إلى قصور السنديان والحور، وصوت الهمس ورجع السكون. وأنت. وهي تتدبر حيلة بريئة أو كذبة طاهرة كي تأتيك. فإذا نجحت وأتت خفضت رأسها إلى الأرض، وإذا حدثتها تظاهرت بأنها تشيح بابتسامتها عنك.

لقد كان عيباً أن تقر بأنها آتية لكي تلقاك.

وكان ذلك طبعاً قبل زمن «الأوتوماتيك» و«الباتيسري سويس» ناهيك، حفظك الله بـ«الفوكيتس» و«الكافيه دو باري» و«التوانتي وان».

عد يا سيدي، عد إلى «العين»!

كنت في السابعة عشرة من العمر. وذات مساء صيفي، وبعد محاولات كثيرة تقرر أخيراً أن نلتقي عند «العين». وخوفاً من العيون، عيون الذين لا يعرفون العشق، ويتذمرون من الربيع، ويحسدون حتى الجياع، اتفقنا على أن يكون اللقاء قبل العتم، ولكن بعد إياب المسربين

obeikandl.com

من الصبايا والشباب. وبما أن بنات القرى يشبهن اليمام ونشبه نحن صبيانها، الماعز، فقد اختبأت وراء صخرة رملية تطل على الطريق. ولكن بدلاً من أن تطل هي، أطلت مجموعة من الصبية، واختار زعيمهم الجلوس تحت تلك الصخرة بالذات، فجلست هناك محبوس الأنفاس معلقاً بحبال الرمل، فسوف تكون فضيحة إن أطلت: لأن الصبية عادة مثل إذاعات الـ«إف.إم» يعملون تحت الجسور. وفي الوقت نفسه كانت مأساة أن تأتي، ولا أحدثها بعد كل هذا الانتظار. وفيما أنا أفكر في هذا الوضع المعلق راح زعيم الصبيان يحدثهم عن بطولاته في الليل، قائلاً: إنه لا يخشى الضباع والذئاب وبنات آوى، لكن كل ما يخاف منه هو الأشباح. وفوراً رحت أقيس قامتي، فوجدت أن لا بأس. وهكذا رفعت ذراعي في الهواء ونزلت على الصبية المساكين صارخاً مثل الهنود الحمر في الأفلام الإيطالية الصنع، فأخذوا يعدون تاركين «العين» لامرئ قيس العصر.

وبقيت تلك الحادثة معي. وأتذكرها كلما حدثني نصري عن الأشباح، وكأنه يحدثني عن رفيق له. كل كتبه فيها أشباح، وكل الرسوم التي يشاهدها مليئة بالضباع والدببة، والذئب لم يعد ذئباً كما كان في حكايته الشهيرة مع ليلى، أو مع «شابيرون روج» إذا شئت. وهناك الآن جمعيات تدافع عن ابن آوى، وتمنع ارتداء الثعالب فراء على الأكتاف. لقد تغيّر كل شيء، الفرح والرعب معاً. البطل والبطل المضاد. فبدلاً من «العين» يمكن الآن الالتقاء عند «ماكدونالد». تصور هذا الفرح المغلف بكراتي الهامبرغر والبطاطا المقلية بالشحم. وبدلاً من الذئاب

والأشباح هناك الآن «ترانسفورمر» و«سبايدر مان». للكبار والصغار معاً هناك «غولدفنغر» و«جيمس بوند» بكل أشكاله ومعالمه وآلاته وحقائبه المليئة برقاق الديناميت. إن شخصية المرعب الآن لم تعد شبحاً أبيض يستطيع التسلل من ثقب الباب. بل إن أكثر المرعبين بساطة يصر على تدمير العالم أجمع في أبسط الحالات. ولم يعد هناك هنود حمر؛ لأن الذين هربوا منهم في الأفلام الأميركية قضوا في الأفلام الإيطالية، كذلك لم يعد هناك ألمان؛ لأن أفلام الحرب قد فقدت رهجتها ولذا فإن «المرعب» الآن يريد القضاء على الجميع دفعة واحدة من دون تمييز، كما كان يحصل أيام هوليوود الذهبية.

هناك بحث عن البطل في كل زمان، وأعتق الأساطيرالمعروفة عبر العصور هي أسطورة البطل. إنه الرمز الذي اكتشفه كارل غوستاف يونغ في «اللاوعي الجماعي» ذلك الجبار الذي ينتصر على الشر، متمثلاً بالتنين أو الوحوش. وليست هناك شعوب أو قبائل أو أجناس يخلو أدبها أو حياتها من البطل والبطل المضاد. لكن الجديد في العصور المتحركة، كما يقول لنا كلود موریاك، هو أن الوحوش قد غيّرت أشكالها، وأصبحت أكثر حداثة، إذ أن الإنسان المعاصر أعطاها شكل مخاوفه المعاصرة.

إن التنين لم يعد مرعباً. لكن التنين الجديد هو القنبلة، وهو الخيال لدى المخرجين ومعاونيهم. فالسينما هي الميثولوجيا الحديثة، كما يقول موریاك. إنها «الفانتازيا» التي تقبض على أحلامنا، وكوابيسنا، ثم تدعونا إلى التفرج عليها. لقد حل كل شيء محل كل

شيء آخر. ولست أشك في أن الأشباح ولدت في الزمان القديم؛ لأنه لم تكن هناك كهرباء، ولأن الظلمة تخلق الأفكار، والرؤى، وتفتح الباب أمام الخوف. أما وقد اخترع لنا أديسون الضوء بكبسة زر، فقد صارت الأشباح فولكلوراً يتسلى به الأطفال، وتجذب السياح إلى القصور الخيالية القديمة في أسكوتلنده، حيث تئن الأبواب العتيقة من الوحدة وتصرّ النوافذ من الهجران.

إذاً، كيف يستطيع العاشقون اليوم أن يخيفوا أولئك الذين يعطلون عليهم اللقاءات وأشياء العشية؟ وماذا يقال للصبية عند «العيون»؟ وهل تخفض ابنة الرابعة عشرة رأسها ما بدا لها القادم عبر الوهاد، والتلال، وأحراج الصنوبر، حتى إذا قطعها كلها خاف أن يلقي تحية المساء، وخاف الصبية أيضاً، فراح يخيفهم بحكايات الأشباح؟

حتى الخوف أيضاً أصبح أكثر بشاعة هذه الأيام.

obeikandl.com

بلاغ من النثر

الجميع يعتبرون محمود درويش شاعراً. أنا أعتبره كلمة. لم أرتكب في حياتي هذا التمييز، هذه العنصرية بين النثر والشعر. الشعر كلمة في اللحن، النثر كلمة النغم. الشعر ندى، النثر فجر.

ومحمود درويش كلمة من حرفين، نثر وشعر. وهذا الحوار الدائر هذه الأيام بينه وبين سميح القاسم، هو في الحقيقة حوار بين الذات والذات. ظاهره رسائل متبادلة على صفحات الصحف. أما حقيقته، فدعوة من محمود درويش إلى الحوار مع محمود درويش. دعوة من العذاب للمثول في حضرة الألم. وبطاقة مفتوحة للسيد المنفي لكي يقول رأيه في المسألة.

أكاد أقول إن محمود درويش يبحث عن ذريعة للكتابة في هذا الزمن الجدب، فكان أن افتعل هذه المراسلة مع الظل الآخر للمنفى، ومع ذلك الذي صمد في منفى الداخل. ألا يقول لنا هذا الطفل الشاعر، الذي يشعر مثل الناي، وينثر مثل الشجر «إن المنفى ليس دائماً في المنفى ليس دائماً في الوطن».

يقول أشياء كثيرة. يقول غالباً أشياء ساحرة وخارقة وخارج السطحيات المطلوبة من العموم. لكنني أتوقف عند جملة فاضحة مرفوضة في الشكل وفي الأساس. هو، محمود درويش، يقول

بالحرف «... فما يصلح فضحه من داخل، في القصيدة، من أسرار الضعف البشري، لا يجوز ائتمان النثر عليه، النثر بيان عام يتعاطى مع سؤال عام»!.

هذه خرافة.

طبعاً يحق لمحمود درويش التباهي بالشعر، فهو يمتلكه حق امتلاك، وهو ينثر غار الشعر في الكتب بلا حساب، وهو من دون جدل نهر من أعذب الشعر وأعمقه وأصدقه. ولكن أي شعر أجمل من هذا النثر : «من أين جاءنا سحر القوة لنتابع العزف، مئة سنة أخرى على وتر بلا عود؟». وأي شعر أعمق من القول: «المسافات الموصلة إلى وحشة النفس» وأي شعر أعذب من القول: «يصير في وسع ورقة مريضة تسقط من شجرة أن تحرك الإيقاع الساكن... ويصير في وسع فتاة مجهولة تنتظر سيارة الباص أن تفتح باب القصيدة على مصراعيه، ليطل على عجوز يجلس على مقعد الحديقة، أو على أنقاض المخيم، ليرى إلى أين أوصلته أمه حين دربته على المشي منذ سبعين عاماً»!.

طبعاً هذا الناثر أعلاه هو محمود درويش، إنه يعتذر لنا عن كونه يعيش في باريس. فالمقعد في الحديقة لن يلبث إلا أن يطل على أنقاض المخيم.

والمنفي ليس دائماً في المنفى. لقد كان هذا الشعر المتساقط من شجر الزيتون والطالع من زرقة المتوسط يعتقد أن المنفى شكل هندسي رسمه تشيكوف. ثلوج ومنبسط جليدي، والشعراء المنفيون

يتذكرون ماروشكا ويبكون، سيبيريا أو ضفاف الفولغا. ولكن ها هو يكتشف أن المنفى يمكن أن يكون مختبئاً تحت معاطف ديور، وفي المقاهي التي علَّمت الناس الثرثرة عن الحب والحرية والتبغ. إنه يكتشف، مذهولاً، أن المنفى يلاحق المنفيين مثل الوطن: واحد من الداخل، وآخر من الخارج، لكن كلاهما في الذات. وهذه الذات عند الشاعر، ذات شعرية طبعاً، لذلك يبكي محمود أيضاً تلك المرات «التي جاءنا فيها الشعر، ونحن نلعب النرد، فضاع».

ثم يتعالى الشاعر مرة أخرى في كبرياء زائفة: «أما النثر، فلا نكتبه إلا لأننا التزمنا ذلك»!! مضحك هذا الكلام. إنه يريد أن يعتذر؛ منا عن التزامه النثر، لأنه في الحقيقة ملتزم الشعر. الحقيقة أنه يعتذر لأن الشعر ضاق به فجاء رحاب النثر. لم يجد شاعرنا خلف منبر الدفاع عن الشعر والحنين إليه سوى... النثر. «تقول السكين للجرح: قف لا تسل دماً، فماذا يقول الجرح؟ يقول: عذراً يا سيدتي السكين، لم أقصد إهانتك».

هكذا يريد محمود درويش النثر أن يكون دون الشعر، وأن يكون دفاعه أيضاً. إنه يدجِّن لنا الكلمات والقوالب وغلافات الكتب. وفي لحظة سأم أو ضجر أو منفى ـ أو الكثير منه ـ ينسى الشاعر أن الكلمة واحدة. وأنها، في الشعر، لا تهطل دائماً، ولا تسقط تماماً، بل تظل معلقة في سماء اللغة والبوح، متدلية مثل ثريا في سماء صافية، تراها ولا تصل إليها، تطلبها ولا تصل إليك. الشعر هو القصيدة المستحيلة، المقطع الذي لم يكتب بعد، الكلمات المحصنة ضد جاذبية الإلهام، الكلمات التي تأتيك مثل الريح، من كل مكان، ومن اللامكان من اللاشيء من اللازمن، الكلمة التي تكتب نفسها، الكلمة التي تكتبك.

الكلمة. لكن الكلمة تتكرر.

في الشعر وفي النثر تتكرر، بلا سبب، بلا وجود، بلا مبرر، مثل الحساسين تتكرر، مثل البلابل، مثل البحار، مثل المدار والأطفال والنرجس، مثل المسافة الفاصلة بين الأنا والأنا، بين الذات ونفسها، مثل الأوطان، مثل المنافي، مثل الشعراء.

النثر ليس «بياناً عاماً». يكون كذلك فقط، حين تقبض عليه الأيدي الجافة والعقول المجوّفة. الماس أيضاً يكون في بعض الأعناق مثل أجراس الماعز. الشعر يكتب هو أيضاً للطلاء والمساحيق. النثر أداة تعبير مثله مثل الشعر مثل الموسيقا. تلقاه حيث تضعه ويعطيك ما تعطيه، ويكون في غنى الشعر إذا ما جرّبه شاعر مثلك. إنه ليس «بياناً عاماً» إلا بمقدار ما استخدم الشعر أيضاً كبيانات عامة وملصقات وأهازيج ونثريات انتخابية. الشعر ليس بريئاً يا عزيزي محمود، فلا تحاول في لحظة القنوط من هذا العصر أن تدفع النثر وحيداً إلى قفص الاتهام. وإني آمل ألا يضيق عليك منفاك كما تضيق الأوطان على أصحابها في هذه الأيام. فالمنفى يجعلنا نكفر بأشياء كثيرة، أتمنى، من أجل نثرك. ألا تضع بينها النثر.

obeikandl.com

لماذا تكتب؟

يحدث هذا غالباً.

يحدث أن تبحث عن موضوع فيهرب منك، عن عنوان فتراه في كتاب آخر، عن سطر، مجرد سطر، فيعصى عليك كما عصى الدمع أبا فراس.

لكن لابد أن تكتب شيئاً ما. مضحكاً، محزناً لا فرق، الأفضل أن يكون مسلياً مثل بزر البطيخ. الأنسب أن تتجنب التكرار.

أدب؟

لا.

قبل أسبوع كتبنا في الأدب.

شيء مضحك.

الأفضل أن تكون مضحكاً. تمسك القلم وتستعد. تضع الورقة أمامك. لقد تم كل شيء: ورقة، وقلم، ومحبرة. لا يزال هناك أنت. أنت لم تأت بعد.

أجل أنت. لقد قلت لك ذلك، أنت.

ماذا؟ لا، ليس ممكناً. التأجيل مستحيل. ماذا يقول عنا الناس؟

obeikandl.com

الصفحات البيضاء ممنوعة في المجلات والصحف. كيف؟ لا أدري. دبر نفسك. حاول. حاول مرة أخرى. ماذا؟ لا. لا تكتب سياسة، حيث ينتظر الناس شيئاً آخر. شعر. لا. ليس شعراً. لم أقل شعراً. شيء بين الاثنين. حكاية مثلاً، آه، ليست لديك حكايات. حسناً، شيء من الوجدانيات. ماذا قلت؟ مزاج. الواجب لا يعترف بالمزاج. من أين آتيك بشجرة وبحيرة وعصافير لكي تكتب. آه.. وشمس أيضاً. لا، ليس عندي شمس هنا. إني آسف حقاً. الشمس تشرق أيضاً. لا، هل يذكّرك هذا بشيء. هامنغواي؟ لا يا بسيط. بل آفا غاردنر. آه. آفا. نكتب إذاً عن أجمل امرأة في العالم. لا، لا. أقصد عن آفا اليوم. آه، تقصد أن تكتب عن أفتح امرأة في العالم. كم كانت جميلة. من، آفا؟ لا، الشمس. أقصد الشمس، أما آفا. حسناً. ما بها آفا. لاشيء. لاشيء. فقط إنها لم تعد أجمل امرأة في العالم. إذن اكتب عن جنيفر جونز. شقيقة كاري. هل تذكر فيلم شقيقة كاري؟ أجل، أجل، لكن ما بها جنيفر جونز. لاشيء لاشيء. لكني رأيتها أمس تقدم جوائز الأوسكار، وهي على عكاز. لماذا يهرم الجمال دائماً بطريقة مأساوية؟ حسناً، هذا موضوع، فاكتب. لكني كتبت ذلك قبل اليوم. لابد من شيء جديد. فكّر. عد إلى كتبك واستوحِ منها. لكنني عدت إلى كتبي. لقد حفظت غيباً، كتبي. وليس من الممكن أن أعود بموضوع كل مرة أصعد فيها إلى رف. الكتب تدلنا، لكنها لا تمسك بأيدينا. حسناً. هذا موضوع. الكتب. أجل، لكنها أيضاً مصابة بالضجر لكثرة ما كتبت، وما

قُرئت. وما نُسيت. ماذا أفعل، إنك تحيرني. تقول لي هذا الجدار هو الجدار. أنا أعرف أنه عندما أرى جداراً، إما أن أقفز فوقه، وإما أن أقف أمامه. آه، الآن فهمت. تقصد الطريق المسدودة. لكنني سوف أجرب النافذة. إنني أكتب عادة عن الناس، والناس تمر بالنوافذ، والأطفال، والباعة، والثقلاء، والسهارى، لاشيء، لاشيء للكتابة. الكلمة لا يمكن أن تطلع من الضجر. الكلمة مثل الوردة. استح يا صبي. هذا فعل ماض. كانت الكلمة مثل الوردة، الآن صارت «بوليسترَ». «نايلون». فبرك يفبرك فبركة. وحياتك يا أستاذ. كيلو كلام للمعلم. بترجاك تقّل البخور. رشة ملح من فضلك. كتّر البهار. ما تنسى الكمّون. أوعَ الكمّون. نزلّي نتفي من هون ونتفي من هون. محشي؟ أي طبعاً للمحشي. حكي بحكي. لا، الكويتيون وجدوا تعبيراً أجمل لمثل هذا الحكي، «حشي بحشي» يقولون. أما الكلام، فيسمونه قولاً. وأنت لماذا تتزنطر؟ لماذا تريد أن تكون كل كلمة في مكانها، وكل كلمة في موضعها، وكل حرف له قيمته؟ مع السوق سوق. حبر على ورق. كله حبر على ورق. كله صابون. ولك شو بدك تحل قضية الشرق الأوسط؟ كلهن كلمتين، اكتبهن خلصنا. يعني ضروري المظرطة. ساعة قال فلان ساعة كتب فلان. وكل مقال تقرالو عشر كتب. انقبر اكتب شو ما كان. حاجتك أوعَ هالفاصلة ودخيلك هالعنوان. ونقطة عالسطر ولاه، فلقتني بنقطة عالسطر. وفتاح قوسين وسكّر المزدوجين. فلقتنا. دايماً حامل السلم بالعرض. دايماً، كأنو ماحدا غيرك كتب. انقبر تعلّم.

ترلام ترلام ترلام. خربت عمرت ماتهتم. حاج تتفلسف علينا وتحطلنا أسامي ما حدا سامع فيها. ع البساطة البساطة يا عيني عالبطاطا. الطشت قلي. الدح السح آنبو. الواد طالع لأبو. انقبر تعلم. يقلعلك ولفاليري تبعك.

obeikandl.com

كلام للسادة البنفسج!

قالت القصبة للبنفسجة:

انظري إليّ باسقة تنفخ بي الريح.

قالت البنفسجة: الريح تنفخ بك الريح.

قالت القصبة: مني تصنع الزمارات.

قالت البنفسجة: بي تتلى المزامير.

قالت القصبة: ترفعني السواقي على ما دوني.

قالت البنفسجة: تمنحني الأرض ألوان الحياة.

وجمالاً تجعلني مثل التواضع.

ولكي تحميني كالعين تمنح العلو للقصب.

قالت القصبة: التواضع سلاح الضعيف.

قالت البنفسجة: العجرفة سلاح الأغبياء.

قالت القصبة: عالياً أرفع العصافير.

قالت البنفسجة: من ألواني تصنع التيجان.

قالت القصبة: أهذا أنت حقاً يا بنفسجة؟

obeikandl.com

منذ متى تكابرين؟

قالت البنفسجة: منذ خيل للقصب أنه يصنع العاصفة.

ومذ قيل له إن الزمارات تخيف كالصهيل.

ومذ ظن القصب أن له صوتاً

فراح يغني!

عندها قلت في نفسي

إنه من أجل الحور، والصنوبر، والسرو

لابد من يهمس في أذن القصب

إنه فارغ من هنا، فارغ من هناك.

ولكن كيف لي أن أطاول أذنك يا عزيزتي القصبة، لو لم تسقطي إليّ؟

❀❀❀

تقول فراشات نيسان

للفراشات التي ستحلق قريباً

لا تصدقن الرحيق

إنه كذبة النسائم الجميلة

وخذن الرداء

من البنفسج

obeikandi.com

إنه صوت الفرح في السكون

يهدلون كالحمام

يخافون كالطيور

ومثل السنونو

أو مثل البنفسج

يعرفون أن الربيع آت

فيسبقونه

إنه الربيع،

أكاد أسمعه في خرير أودية الأندلس

إنه الربيع،

أعرفه كلما استلقيت فوق حشائش تباغونيا

كلما تنشقت سهول كوردوبا

كلما سمعت الضفادع تنق،

والبنفسج يضحك عليها البنفسج

obeikandl.com

نحن في إفريقيا

نستدر المطر

بالصلاة.

وتطوف علينا وبنا الصحراء

جيلاً بعد جيل وكثباباً فكثبانا

ونقرع الطبول في وجه الصواعق

نحن في إفريقيا تزرعنا الأرض على حفافي الأدغال

وعلى ضفاف الأنهر الشاسعة كالبحار

ويلفنا الليل والهمس والصدى

ونمتشق الأنهر

في وجه آلهة الجوع

نحن في إفريقيا نروض الهررة الكاسرة

ونضع النسور في الأقفاص

ونرسل الصقور خلف الطرائد

نحن في إفريقيا

نعتلي الأشجار

مثل براعم الأغصان

obeikandl.com

ندجّن الكواسر

ونلهو بقرون البابون

نحن في إفريقيا عمالقة، غالباً ما نغرق حتى آذاننا

في حب زهرة بنفسج صغيرة.

obeikandl.com

obeikandl.com

نجمة المساء

أنا أحب فاتن حمامة.

أعرف طبعاً أنني مذ أحببتها يافعاً للمرة الأولى، عرفت الشاشة المصرية وجوهاً كثيرة أخرى، لكنني لا أزال، عاماً بعد آخر، أحب فاتن حمامة، وكلما تقدمت السن بها، وبنا ازددنا حماسة لها، وازددنا إخلاصاً لتلك الصورة البريئة التي رافقت مخيلاتنا شباباً، ولذلك الصوت الدافئ يرنّ في صالات ساحة البرج راوياً في حزن نحاسي حكاية الترعة، والشقاء، والصراع مع باشوات النيل.

طبعاً أعرف أنه منذ ذلك الوقت صارت هناك نجوم كثيرة مثل نبيلة عبيد ونادية الجندي وماجدة الخطيب... وغيرهن كمان. ولكنني لا أزال أحب فاتن. والبركة في الجميع، لكن الداعي لكم بطول العمر إنسان لا يتطور، ولا يتقدم، ولا يماشي العصر، ولايزال يحب أم كلثوم و«يا وابور قلي رايح على فين». وآخر حداثة قبل بها كانت: «حبك نار» لعبد الحليم. ولأسباب شخصية جداً في تلك الأيام التي كان فيها الحب ناراً وآهاً وغناءً وبعدك نار قربك نار.

هذا لا يعني أن المرء يريد للدنيا أن تتوقف، أو لأطفال اليوم أن يخرجوا من دور السينما، وهم يقولون لماذا بكى «عمو حسين»، ويعنون بذلك حسين رياض، أو لشباب اليوم أن يلجأ إلى التنهد عشقاً حيياً

مع فاتن في حين أنها نفسها تمثل الآن أدوار الذين تخطوا عمر الحب وخلّعت نوافذهم شرعات الهوى، لكن إذا كانت الفنون ذوقاً شخصياً وقضية خاصة، فالداعي ـ ولا مؤاخذة ـ يحب فاتن.

أنا أعرف أن السينما تتجدد، وأعرف أنه حتى «الموجة الجديدة» التي طلعت في الستينيات أصبحت قديمة الآن. ولقد قرأت كثيراً عن السينما الواقعية، وشاهدت مذكرات شمس البارودي. وقرأت أكثر من مرة عن أن هذه خليفة فاتن، وأن تلك أم كلثوم جديدة، لكنني ويا للأسف لا أزال متحيزاً لفاتن و«ليه يا بنفسج» ولعادل خيري يطأ الخشبة، فتتحول قدمه الصغيرة إلى أس عظيم للمسرح المصري الذي طالما تهززت خشبته طرباً لعبقريات كثيرة، لا كان الريحاني أولها، ولا عادل إمام آخرها.

هناك شخصيات دخلت عالم الكلاسيكية في مصر، وهناك شخصيات لم تدخله. وشروط الكلاسيكية ليست بالضرورة تلك المسحة الرائعة من الكبر التي لا تزال تملأ وجه فاتن. ولاهي بالضرورة عينان عربيتان كمثل عينيها، ولا صوت فيه رجع النيل كصوتها، بل إنها مجموعة متداخلة من العناصر، بينها طبعاً عنصر الزمن، والمرحلة، والعصر، تجعل من سيدة واحدة سيدة دائمة على شاشة تتعدد فوقها الوجوه، والملامح، وأنواع الجمال.

لقد كانت فاتن مثال الرومانسية بأشكالها الجميلة. كانت هي المرأة المغلوبة، وهي العاشقة الفرحة. وهي البنت الطيبة. وهي المراهقة الحالمة، وهي نموذج الفتاة العربية التي لا تأتي الأمور إليها بسهولة،

obeikandi.com

ولا تحلم إلا عبر النافذة، ومن فوق الأسوار، ولا تصل إلا بعد عذاب طويل إلى النهايات السعيدة. ثم كان في حياتها الخاصة أيضاً شيء من دراماتيكية السينما، فهناك أولاً زواج «سندريللا» من عز الدين ذو الفقار الذي تتركه إلى شاب وسيم في وادي الملوك، ثم يتبخر هذا الفتى الصعب، ويتركها بدوره؛ لكي ينقل نفسه من الأسود والأبيض على شاشات القاهرة إلى ألوان هوليوود الكثيرة. أما هي، فتذهب حزينة إلى الاعتزال؛ لكي تعود، بعد عذاب طويل، مثل النهايات السعيدة إلى مكانها في السينما.

كلما استطعت، أشاهد فيلماً لفاتن، قديماً أو جديداً، لا فرق، وأحضر أفلامها القديمة كما أسمع «يا وابور قلي»، أو «علموه كيف يجفو..» أو «ليه يا بنفسج». فأنا ضد هذا التوغل الجديد في الواقعية. ولا أزال أؤمن بأن النجم يجب أن يكون نجماً، وأن الفتى الأول يجب أن يشبه كلارك غيبل، لا أن يكون بغلاً مثل إليوت كولد. وأن ثلاثين كاميرا وأربع «كلاركات» وخمسين «أكشين» لا يمكن أن تصنع لوحة واحدة من تلك اللوحات الريفية التي تبدو فيها فاتن، وقد لفت شعرها بالمنديل الصعيدي المطرز، وكأنها خارجة للتوّ من يوميات توفيق الحكيم.

والدنيا حرة في أن تعبر بنا، ونحن في أمكنتنا: قيمنا واحدة، ومتعنا واحدة. وكلما تبلور بنا الحسن الفني ازددنا قناعة بأن نقاء فاتن ظلّ بلا بديل، مثل تلك الآه التي كانت تحوّلها حنجرة أم كلثوم إلى صوت تسوق به الجموع وتدجنها، وتثير حتى في القلوب الفارغة المتوحشة شجناً، وخدراً، وارتقاء بالإنسان إلى حالة الطرب.

obeikandl.com

لقد قرأت حديثاً أن فاتن على وشك أن تقدم مسلسلاً جديداً من الإذاعة. وفي مثل هذه الحالات تتصحر أوروبا. تتصحر كلما افتقدنا عشية مع تلك الأصوات التي كانت جزءاً من ربيع العمر، أو صبيحة مع الأهل. فجأة، هكذا يتصحر هذا المسرح العظيم هنا، وريث شكسبير وأمين سره وتتصحر دور السينما التي تحشى هذه الأيام بفضلات هذا العصر التافه، وتبحث في إبرة الراديو عن صوت فاتن، يرد إليك بعض ما فقدت، ويرد إلى الفن في مصر الكثير من الاعتبار.

(2/5/1987)

obeikandl.com

في بلاد شكسبير

حل علينا العام العاشر، ونحن في بلاد الإنكليز. أو لعلها بلاد شكسبير كما كنا نسمع في غابر الزمان. ولكن كيف تكون هذه الجزر البريطانية التي هي بلاد الغال، والإيرلنديين، والأسكوتلنديين والإنكليز، بلاد رجل واحد؟

هذا أمر تعرفه بالممارسة في بلاد الشتاء الطويل. فأنت تكتشف مع الزمن أن شكسبير مثل ملح المائدة، يمكن أن يليق بأي طعام. فإذا كنت تكتب عن الدراما، وتريد دعماً أو سعفاً تمد يدك، وتطاول شيئاً من شكسبير. وإذا أردت أن تقدم لمقال ساخر تفتح كتاباً لشكسبير، وتأخذ مقطعاً منه، وإذا أردت أن تصور غلواء الحب فشكسبير، البخل شكسبير، الحقد شكسبير، الأنانية شكسبير، شهوة الحكم شكسبير، الهزل شكسبير، شايلوك اليهودي شكسبير. وقبل أسبوعين كنت أشاهد فيلماً قديماً لسيدني بواتييه عنوانه «احذر من جاء إلى العشاء» فما إن انتهيت منه حتى رحت أحاول أن أتذكر أين شاهدت شيئاً من هذا القبيل؟ وما لبثت أن تذكرت «عطيل» التي كتبها العزيز وليم منذ قرون سحيقة، أي قبل مئات السنين من الحديث عن التمييز العنصري، ومن صدور كتب جيمس مالدوين.

ليس في العالم رجل آخر أعطى اسمه لبلد أو إمبراطورية كما فعل هو. لقد كان لفرنسا عدة شعراء في عدة قرون. وكان لإيطاليا عصر النهضة بأكمله. وإمبراطورية البرتغال أعطت تجاراً وبحارة وسياحاً لا

obeikandl.com

شعراء. وإسبانيا وزعت ميراث الأندلس على الكثير من اللمحات الفنية حتى ضاعت. أما إنكلترا، التي منها ولدت بريطانيا العظمى، التي منها ولدت الأمة الأنكلوسكسونية في أطراف العالم، فإنها مرتبطة باسم رجل واحد من بلدة صغيرة على نهر الأفون.

لذلك، ببساطة، اسمها بلاد شكسبير! ليست بلاد نيلسون. ليست بلاد كرومويل. ليست بلاد ريتشارد الثالث. إنها بلاد رشة الملح الدهرية التي اسمها شكسبير، الرجل الذي نقلته مخيلته الهائلة إلى أنحاء أوروبا، واستطاع دفقه الشعري أن يسع الكثير من حكمة الكون. وذات مرحلة شكك الكثيرون في أن يكون وليم شكسبير رجلاً واحداً، فقيل إنه أكثر، لكن الحقيقة أنه كان رجلاً واحداً، ولحية واحدة لا أكثر. وقد حاولت فرنسا في القرن الماضي أن تدفع بشهرة فيكتور هيغو عبر القناة باعتبارها هزيمة لشكسبير، ورداً على واترلو، لكن هيغو امتلك عظمة الشعر وظل يفتقر إلى عظمة الفكر.

وقد قيل لأحد الكتاب المحدثين ذات مرة: إن الإنكليز شعب غير عاطفي وغير رومانسي، فكان جوابه: إن كل مسرحية لشكسبير تحمل من العاطفة ثلاثة أضعاف ما تحمله ثلاث مسرحيات لتشيكوف. ذلك أن شكسبير هو رد الإنكليز على كل شيء، وهو جاهز، وشائع، ومعروف، وغير قابل للنقاش، هو ليس بيرون أو بلايك، ليس ييتس، ليس إليوت. ليس عنواناً في عصر، أو فرداً في عصر مثل بقية شعراء الإنكليزية. إنه الشاعر المعاصر لكل عصر. إنه في مكتبتك مثل القاموس، إذ لابد لك أن تعود إليه مهما كانت قراءاتك في هذه

الأيام. وقد قرأت أخيراً حديثاً للناقد جبرا إبراهيم جبرا يقول فيه: إنه أمضى عشرين عاماً في نقل بعض أعمال شكسبير إلى العربية، فلم أستغرب. الغرابة هي في المقدرة على نقل أعمال شكسبير إلى أي لغة. فهو، برغم كونيته الفكرية، وبرغم مناخه الشعري العالمي، إقليمي التعبير. ثمة انكلزة وكثيرة لشكسبير. وقد لا يكون شكسبير متأنقاً مثل بقية شعراء عصره، كما يقول الأستاذ جبرا، لكنه يظل ذروة الأناقة في الشعر وذروة الصياغة أيضاً. ولذلك لا يفهمه المرء إلا عبر السنين. وكلما تلفّتّ إلى شيء جديد في هذه البلاد عرفت لماذا يسمونها بلاد شكسبير. لقد أعطت إنكلترا اللغة الإنكليزية إلى بريطانيا كلها كما فرضت كاستيليا لغتها على إسبانيا، كما فرضت البروفانس قاموسها على فرنسا. وثمة رجل واحد فرض لغته على إنكلترا كلها. كان يدعى: وليم شكسبير.

obeikandl.com

obeikandl.com

جمع مؤنث سالم

استضفت، مرغماً، قبل أسابيع «النزلة الصدرية». ولم تأتِ هذه اللعينة الثقيلة الظل منفردة، بل رافقتها بالتكافل والتعاضد اللوزتان، كما رافقتها تقاسيم في الجيوب الأنفية.

وفي هذه الحال لابد من طبيب، كما قال ذات مرة العزيز فهد بلان، حين أنشد «جسَّ الطبيب لي نبضي». وجاء الطبيب، ومعه عدته وعداده وقلمان، واحد رديء الخط للوصفات وآخر أجمل من خطوط آل عنداري... للفواتير.

وبعدما تأمل الرجل في حالتي قرر أن يتأمل من جديد. ووضع يداً على خده ويداً أخرى (بضم الألف طبعاً) على خد الزمن، كما تقول الأغنية المصرية القديمة. وطالت حالة التأمل هذه فدب بي الهلع، فقلت: خير يا دكتور.

قال: وهو لا يزال يتأمل :عندنا مشكلة بسيطة!

قلت: خير.

قال: لدي دواء ناجع أصفه دائماً للنزلات الصدرية، لكن مشكلته أنه يزيد في التهاب الجيوب الأنفية.

قلت: وماذا عن غيره؟

obeikandl.com

قال: هناك دواء آخر سريع النتائج.

ولم أدعه يكمل في حالة اليأس التي تنتابني، فصرخت: عجّل، ما هو؟

قال بكل هدوء: لكن، ويا للأسف!

قلت: ما به الأسف يا دكتور؟

قال: المشكلة أنه يساعد ضد الرشح، لكنه يؤذي المعدة. هكذا نكون في شيء، ونصير في آخر.

قلت، وأنا أكح وأعطس وأكوم محارم «الكلينكس»: والحل؟

ولم يجب، بل راح يتأمل. ومدّ يده إلى حقيبته فاعتقدت أنه سوف يتناول منها مسحوقاً سحرياً، لكنه مد يده، وتناول بدلاً من ذلك قطعة خشبية صغيرة وضعها في فمي، وقال لي:

– قل: آه. وأجبت، لكننا قلنا آه أكثر من مرة.

قال: كمان مرة آه.

وتأوهت آهاً للخشبة الصغيرة وآهاً للجيوب الأنفية وآهاً للنزلة الصدرية، لكن الرجل وضع يده على ركبتيه، واستوى إلى الوراء وتأمل.

وقلت: خير يا دكتور.

قال: معقدة بعض الشيء!

قلت: ما هي؟

قال: معك أيضاً التهاب في اللوزتين.

obeikandl.com

قلت: يعني؟

قال: هناك دواء يفيد اللوزتين، لكنه قد يعيق شفاء الرئتين.

قلت: أليس هناك دواء يفيد من دون أن يعيق؟

قال: دعني أفكر.

وأخذ يفكر. يفكر، وهو يعلق النربيش الفاحص في عنقه. ويفكر وهو يمد يده إلى حقيبته. ويفكر، وهو يتطلع بي. وبعد تفكير طويل قال: هل عندك حساسية ضد شيء؟

قلت: عندي حساسية ضد المثنى.

ولم يفهم طبعاً، فشرحت له: اللوزتان مثلاً. الرئتان مثلاً.

ولم يضحك بل أجاب: إني أسألك عن حساسية ضد الدواء.

قلت: أبداً والحمد لله.

قال: إذن سنصف لك شيئاً من البنيسلين.

قلت: هل تقصد البنيسلين الذي اخترعه فلامينغ؟

قال باقتضاب: نعم.

قلت: وهل يحتاج وصف البنيسلين إلى كل هذا التفكير؟

قال: لا، لكنني كنت أفكر في حلول أخرى!

ومد يده إلى حقيبته من جديد، وأخرج منها ورقة، وقلماً وترك النربيش يتدلى من عنقه، ثم كتب عليها ثلاثة أشياء ودفعها إليّ.

obeikandl.com

وقلت له، وأنا أطويها: هل هذه الأدوية التي يجب أن أتناولها؟

فقال: لا. هذه أسماء الأطباء الاختصاصيين الذين يجب أن تقابلهم.

قلت: وأنت يا دكتور؟

قال :أنا مهمتي أن أحيلك على اختصاصي.

قلت: وما هي مهمة الاختصاصي؟

قال: أن يصف لك الدواء الصالح.

وذهبنا. من اختصاصي إلى اختصاصي. وكان كل واحد يتردد في وصف دواء ما، خوفاً من أن يكون مضراً في ناحية أخرى. وتذكرت أيام «الأطباء» المغاربة الذين كانوا يجوبون القرى على بغالهم، وهم ينادون «دوا للحبة. دوا للربة. دوا لل ما بتجيب ولاد». وكانوا يوزعون العقاقير بلا حساب، ومن دون أن يخافوامن أي مضاعفات، فقد كانت كلها مصنوعة من ماء البصل المغلي في أي حال.

obeikandl.com

زمن الحزن على البندقية

أقصد أن ثمة خطأ ما فيك أنت أيضاً.

إذ لا يمكن أن تصبح كل هذه المدن الجميلة مجرد ركام قائم في أشكال هندسية فقط؛ لأنك لم تعد تحبها، أو لأنك تقدمت قليلاً في رحلة العمر، بينما هذه المدن أصبحت محشوة الآن بالذين يبدأون رحلاتهم في العمر لتوهم.

أقصد أن البندقية لا تزال جميلة كما تركتها قبل سنين وسعيدة كما تركتها قبل أن تيأس من البحث عن السعادة. بل أقصد أن الطوفان الذي أتاها قبل أعوام لم يغير فيها شيئاً. الذي تغير هو أنت.

حتى العجوز الذي يصفّر ألحاناً ملائكية عند تلك الزاوية الحجرية الضيقة لا يزال ينفث من صدره موسيقا وشجى، أما أنت، فقد ضاق صدرك حتى بأنفاسك.

أقصد أنه لا يمكن أن تلقي اللوم على البندقية لمجرد أن مياه الخور قد اتسخت قليلاً، ثم تقف في ساحة «السان مارك» وحيداً مثل غبي، وتعلن أنه من الأفضل أن نرمي البندقية كلها في المياه؛ لكي نحل مشكلة التلوث الطبيعي والوقاحة البشرية.

وفي أي حال، فإن هذه المدينة لم تكن دائماً حاشدة بالنبلاء وحدهم. أعني النبلاء من الفنانين والرسامين، وأولئك الذين جسّدوا للعين حجاراً يعجز عنها الحلم الهادئ. ومع هذا، فإنك لو أعلنت

obeikandl.com

رغبتك في صراحة، أي تلك الرغبة في إغراق هذه البندقية السخيفة من أجل تلك البندقية العظيمة، فسوف يصفق الجميع إجلالاً لرأيك، وطبعاً لحرية الرأي كذلك.

أقصد أنه لم يبق شيء من تلك المدينة التي قرأت عنها في التاريخ، من هذه القصور التي تسلطت على بعض أوروبا نحو قرنين. وعلى تلك الأرصفة المائية، حيث كانت ترسو مراكب الفرسان لا ترسو الآن سوى قوارب السياح الذين يتكاثرون بصوت عال، حتى تبدو لك المدينة، مثل إستديو سينمائي أو مثل أوبرا فاقعة يغني البطل فيها لآخر المساحيق النسائية.

أقصد أن الاقتراح بإغراق البندقية ليس جديداً. لقد كان دائماً نوعاً من الحلم والهاجس عند الذين أحبوا هذه العروس المتزاوجة مع المحيط، بحيث إنهم رأوا عظمتها دائماً في نهاية العرس: يبتلع المحيط عروسه، وتكتمل الأسطورة التي كتبت بالرخام.

فاغنر الذي مات في المدينة، كان يتمنى لو أخذها معه. وشيلي كانت له رؤية مشابهة.

إن البندقية كانت دائماً أجمل في الرؤيا منها في الواقع. ومثل جميع الإمارات الاستعمارية كان لها دائماً تاريخها القذر، لكن الأشياء التي تركها أناس ذلك التاريخ جعلت منها دائماً أيضاً مدينة حلم غير مكتمل. كانت طاقة ومحركاً في القارة الأوروبية، ولكن بالطبع لم تكن هذه الطاقة تبعث دائماً على الإعجاب. إذ غالباً ما كانت متوحشة،

obeikandi.com

قاسية، غير متسامحة، وربما كانت دائماً انتهازية. وإذا كان اسم البندقية قد ظل لفترة طويلة مرادفاً للاستقرار والأمن، فقد كان مرادفاً أيضاً للأوتوقراطية والاستبداد. وهناك أيضاً القصص المعيبة في تاريخها، إنها لم تشترك فقط في الحملات الصليبية، بل إن رجالها، عندما أخفقوا في الوصول إلى القدس في الحملة الرابعة... اكتفوا بنهب بيزنطة.

وبعضهم يقول: إن إمبراطورية أهل البندقية وثروتهم قامتا على عملية النهب تلك. ومع ذلك، فإن هذه العروس المتزاوجة بالمحيط ظلت تسحر العالم. لم تكن هناك دولة مثلها. دولة بحرية بكل معنى الكلمة، تجمع الشرق والغرب، ما لبثت أن أصبحت سوق أوروبا ومتحفها وبحيرتها الضائعة بين الطين والمياه.

على أنها اليوم مثل صدفة بحرية فارغة تعبئ نفسها بالسياح والحمالين وبحارة القوافل الطويلة من القوارب التي لاتصل إلى مكان، ولا أفق لها سوى ضفاف الريالتو. لقد تنبه العالم لها، أو كاد، عندما أغرقها المد الرهيب في العام 1966، وتذكرت هي أيضاً إلى أي مدى كانت سريعة العطب، إلا أن هذا كان كل شيء. بعض الشفقة على الرخام ـ شفقة دولية بالطبع ـ ثم انسحبت البندقية من عناوين الصحف عائدة إلى خانتها الصغيرة في الإعلانات.

والواقع أن رجلاً واحداً جردها من كل شيء. فعندما اكتشف فاسكو دي غاما طريقاً بديلة إلى الشرق الأقصى ألغى احتكار أهل البندقية. ثم جردتها سلسلة من الحروب من قوتها تدريجياً إلى أن

حسمت قوات نابليون المسألة تماماً في العام 1797. ماتت جمهورية البندقية، ومنذ ذلك التاريخ عبثاً حاول الربابنة إعادة المجد إلى سابق وهجه. لا التوجه إلى البر البريطاني أفادهم، ولا الانفصال عنه، يوم رفعوا علم القديس مارك طوال عام كامل في منتصف القرن الماضي. لقد كان من الصعب إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

لكن الشعر والمتاحف والخور لم تستطع أن تنقذ الجمهورية، أو عاصمتها. لم تعد البندقية في العصر. لقد كانت فكرة رومانسية مصنوعة للقرون الوسطى وإذا استمرت في التقهقر تحولت إلى موضوع جيد للشفقة والاحتيال. هناك عشرون جمعية «لإنقاذ» البندقية. وهناك عشرون قرضاً لإنقاذها، لكن هناك من يقول: إن هذه القروض استخدمت لدعم الليرة الإيطالي، أو نهبت، أو لا تزال نائمة في البنك المركزي. وهناك القناة الجديدة التي لم تكتمل والمشاريع التي لم تر طريقها إلى النور.

وهناك البندقية الحزينة. تلك التي تغني من تحت الأنهار، ومن خلف النوافذ المزينة بالورد، وتلك التي يغنيها أزنافور: ما أكبر الحزن أيتها المدينة في زمن الحب الذي نوّدع.

أقصد أن ثمة اثنين على خطأ. أنت والمدينة. كلاكما يتغير فيهرب إلى الماضي. زمن الابتسامة والحب الذي كان يتخذ شكل كل الأشياء وجميع الكلمات، لكن هذه المدينة وحيدة مثلك وكل الناس، وأسراب الحمام الأليف في ساحة السان مارك لا تعني شيئاً. تتذكر وتكرر تلك الجملة العظيمة: تفتقد مخلوقاً واحداً، فإذا العالم من دون بشر!

غداً تتعرّف إلى ريتشارد

خريف العام 1975، واشنطن.

الجو غير صاف تماماً في دار السفارة اللبنانية. والناس يبتسم بعضهم لبعض في حفل الاستقبال هذا المساء من دون أن تبتسم حقاً. والمجاملات التي يمارسها الديبلوماسيون عادة، يبذلون اليوم جهداً أكبر من أجل ممارستها. فالأخبار من بيروت محزنة ومخيفة، واللبنانيون يسارعون كالعادة إلى الانقسام بوصفه حلا عاجلاً. لكن تلك المظلة الوقائية العامة لا تزال قائمة. وهناك وجوم، لكن هناك أيضاً الابتسامات التي ترسل عادة في حفلات الكوكتيل. وإنهم يتبادلون التحيات والأحاديث استعداداً لأن ينسى بعضهم بعضاً لحظة يغادرون القاعة.

وسط تلك الفوضى تقترب مني سيدة حائرة العمر، وحائرة الجمال، وتربت على كتفي:

– لقد قيل لي: إنك من العائلة!

ولم تترك لي مجال الرد. وراحت تقدم إلي نفسها، وتاريخ فرعها الذي هاجر في أوائل القرن، إلى بروكلين، وبعدها إلى بوسطن، ثم استقرّ به المقام هنا. أما هي، فإنها من الجيل الثالث في هذا الفرع. ثم انشغلت عني بحديث مع آخرين فيما رحت أبحث عن ناس أعرفهم ويعرفونني. وكان في إمكانك أن تتعرف بوضوح إلى الوجوه المقيمة، وتلك المهاجرة.

obeikandl.com

فاللبنانيون الزائرون كانوا كالحي الوجوه تتعذر عليهم حتى الابتسامات المجانية، وكان يراقب بعضهم بعضاً بحذر ومرارة. أما المهاجرون فكانوا يتضاحكون، وكانوا يتذكرون بين فترة وأخرى، فيعلنون أنهم حزانى بسبب الأخبار الآتية من الوطن الأم.

وقبل أن تنفك الحفلة، وينصرف المدعوون إلى منازلهم عادت السيدة إليّ من جديد:

– لماذا لا تزورنا، وتتعرف إلى العائلة؟ نحن هنا على مقربة من واشنطن. لابدّ أن تأتي. الجميع سوف يسرون بك و... آه. ريتشارد سوف يسرّ بمعرفتك. لابد أن تتعرف إلى ريتشارد. إنه ولدنا البكر، وهو حالياً في برينستون، لكنه سوف يأتي لتمضية عطلة الأسبوع معنا. آه، لا شك أنك ستعجب بريتشارد!

أيضاً، لم تترك لي مجالاً للاعتراض. ولا حتى للقبول. واتفقت مع نفسها على أن ترسل إليّ السيارة صباح السبت. ابنها الأصغر مايك يأتي ويأخذني. و«تنام عندنا ليلة السبت، ومساء الأحد يعيدك مايك إلى هنا». آه قبل أن ننسى، إن زوجها أيرلندي الأصل، لكن هو أيضاً يحب أقرباء العائلة ويرحب بهم بل إنه، احزر ماذا، إنه يستطيب الكبّة نيئة أو أقراصاً بالفرن. ويعرف كيف يجبل التبولة بنفسه.

ولم تدعني أجيب. وانصرفت من الحفلة مثل الإعصار التشارلي. وبقيت وحدي أفكر: ترى ما مدى القربى التي تجمعني بهذه السيدة؟ وهل يكفي أن يحمل جدي وجدها اسماً واحداً لكي أمضي عطلة

الأسبوع المقبل في فرجينيا؟ إنه الاغتراب. والمغتربون حملوا معهم، أو ورثوا كل عادات القرى. وفي الماضي كان القرويون يستضيفون الزائرين؛ لأنه لم تكن هناك فنادق. أما الآن نحن في بلاد «الهيلتون» و«الشيراتون» و«الإنتركونتيننتال» ومع ذلك تصافح أمراً منذ ربع ساعة، وبعدها هو الضيف، وأنت رب المنزل.

وخطر لي أن أتصل وأعتذر، لكنني اكتشفت أنني لا أحمل رقم الهاتف. وقلت في نفسي: إذن، أفتش في الدليل. لكنني تذكرت سريعاً أن رقم الهاتف ليس باسمها، وإنما باسم زوجها الأيرلندي، وأن ربع سكان أميركا هم من الأيرلنديين نتيجة مجاعة البطاطا الشهيرة التي جعلت الأيرلنديين يهاجرون إلى العالم الجديد... إلا جدة ديغول التي استقربت الرحلة إلى فرنسا!

صباح السبت كان «مايك» ينتظرني في بهو الفندق الذي أنزل فيه. وكنت أسأل نفسي: كيف سأتعرف إلى مايك؟ ولكن ما إن وطئت البهو حتى اقترب مني شاب طويل الشعر، طويل الذقن، طويل القميص، وقال لي، وهو يضربني على كتفي تحبباً:

- سام؟

وتطلعت خلفي أبحث عن سام، لكنني تنبهت فوراً إلى أمركة الأسماء، فقلت صاغراً طائعاً: نعم، أنا هو. ومد يده يصافحني، ويطحن يدي قائلاً: أنا مايك! قلت، تشرفنا يا عزيزي مايك، ثم سرت طائعاً أمامه نحو سيارته.

obeikandl.com

وترددت قليلاً. ثم سألته: هل أنت أكيد أنها سيارتك؟ ولم يعجبه السؤال، وفتح باب السيارة، فدلفت سريعاً إليها. وبعدها لم أعد أذكر شيئاً. إذ بعد دقائق، والأرجح بعد ثوان، كنا أمام منزل السيدة قريبتي في فرجينيا. فالسيارة كانت من النوع الأسود الذي يستخدمه بطل مسلسل «نايت رايدر»، كما أن مايك على الأرجح لا يعترف بالإشارات الضوئية، ولا بالجسور، ولا بالمفارق، ولا بإشارات التوقف، ولا طبعاً بسيارات الآخرين.

ولا أعرف كيف يرحب الأيرلنديون عادة بضيوفهم. لكن زوج السيدة قريبتنا تلقفني من الباب بعبارات الترحيب والتأهيل. ولاحظ أنني أصفر اللون قليلاً، فطلب إلى مايك أن يأتيني بكوب من الماء. وسألني إن كنت أشكو من شيء، فقلت: لا أدري، وربما هو دوار البر أو لعله فارق الوقت في هذه «الكونكورد» الأرضية التي حملتنا إلى هنا.

أمضينا النهار في عرض الصور التي ورثتها السيدة قريبتي أباً عن جد. ملف كامل عن جدودها وعماتها وخالاتها ورسائل من أوائل القرن مكتوبة بالحبر البنفسجي تبدأ كلها بتعابير التبجيل التركية.

وبين فترة وأخرى كانت تنظر إلى ساعتها، ثم تقول، بعد قليل يصل ريتشارد. لابد أن تتعرف إلى ريتشارد. آه، إنني واثقة من أن ريتشارد سيحوز إعجابك.

ثم فرشت لنا الغداء متأخرة بعض الشيء. وكان الطعام عبارة عن صينية من الكبة وأقراص الكبة النيئة، وأخيراً كبة مع اللبن. وكان الزوج الأيرلندي يقدم الأطباق بكل شهية، وكأنه دليل سياحي. وبين

obeikandl.com

طبق وآخر كان يمتدح موهبة قريبتي التي لم تولد في لبنان، ولكن مع ذلك، مع ذلك... خذ وتذوق! وكان مايك يتأفف من الطعام والوصف معاً. وكان يخطر له أحياناً أن يمد ساقيه فوق الطاولة؛ لكي لا يكون "تقليدياً" مثل الآخرين، لكنه غير رأيه لحسن الحظ.

وفيما كنا نهم بالقيام عن المائدة؛ لكي نغسل الصحون وفقاً لتقاليد الضيافة الأميركية، دخل ريتشارد. وهب الوالدان وقوفاً وتحيات.. وغمرته أمه كأنه عائد من الحرب، أما والده فربت على كتفيه بحرارة، واكتفى بالقول: أوه، ديك! وهو اسم التحبب لريتشارد.

وسئل ديك إن كان يريد شيئاً من الكبة، فأجاب أنه تناول في الطريق قرصاً من الهمبرغر، واكتفى به. وقدمتني والدته إليه ببضع كلمات، ثم راحت تقدمه إلي: برنستون والجامعة والعلاقات المرتفعة والأساتذة المبهورون بريتشارد ومشاريع ريتشارد للمستقبل، ربما سياسة، ربما يصبح عضواً في مجلس الشيوخ، ربما أكثر، من يدري!

وكان ريتشارد يضحك من مغالاة أمه، أما والده، فكان ينفخ في غليونه، ويوافق على كل شيء، بكل ما أوتي من هزة الرأس.

وقرابة العصر تطلع إلي ريتشارد وقال: هل شاهدت في عمرك أوراق الخريف هنا؟ قلت: لا! قال: إن أجمل المشاهد التي يمكن للمرء أن يراها هي احمرار ورق القيقب في مثل هذا الفصل، وثمة غابة قريبة من هنا، فهلم بنا.

obeikandl.com

لم أتردد لحظة واحدة. إذ منذ سنين، وأنا أسمع، أو أقرأ عن ورق الـ«مابيل» أو القيقب، وهو شجر ضخم يدر العسل على الناس، ويجعل من الخريف فصلاً ملوناً مثل الفنتازيا. كذلك كنت أبحث عن أي ذريعة تنقذني من العزيز مايك الذي كان قد أخذ يصفّر، ويدندن، ويتراقص، ويفسد علينا الجلسة بكل ما أوتي من مواهب.

كانت سيارة ريتشارد بعكس سيارة مايك تماماً. سيارة قديمة كلاسيكية لا أثر فيها لأدوات السرعة والقفز فوق السيارات الأخرى، وكان ريتشارد أيضاً من النوع الهادئ، وكان حديثنا طبعاً الحرب في لبنان. وبرنستون والسياسة في واشنطن والوقت يمر. وبعد نصف ساعة تقريباً دخلنا في واد حرجي وراحت رؤوس الأشجار يلتف بعضها على بعض فوق الطريق، ووسط تلك الكثافة من الورق الزهري اللون الذي بدا يميل إلى الاصفرار، كانت تتساقط ورقة هنا أو ورقة هناك، وفجأة لم يعد هناك سوى الطريق والشجر، الكثير من الشجر. وكان سنجاب يقطع علينا أحياناً صوت الصمت الذي يلف المكان، إذ يبدو أنه حتى الطيور لا تحتمل هذا التجمع الخريفي. وأوقف ريتشارد سيارته قرب مقعد خشبي مخصص للمتنزهين، وقال: ما رأيك أن نتوقف هنا؟

ونزلت من السيارة؛ لأجرب للمرة الأولى شعور الغابات. كانت الشمس تناور؛ لكي تطل من بين الأوراق، فتصلنا شمساً باردة باهتة. وتطلعت حولي فلم أجد من آثار الإنسان الحديث سوى تنكة كولا فارغة علاها الصدأ، وما خلا ذلك كان شجراً خلف شجر، حتى

الحصى لم تعد تبان في هذا الوادي. وأحياناً كانت تهب نسمة، فيهب معها صوت يشبه هدير الشلالات، لكننا لا نلبث أن نكتشف أن الأمر حفيف لا خرير. وكنت أشعر بالرهبة، حين سألني ريتشارد فجأة، ومن دون مقدمات:

- هل تذكر تشارلز مانسون؟

- تشارلز مانسون، أجل، قلت لريتشارد، هل تقصد مانسون صاحب المجزرة الشهيرة في هوليوود. ثم دب في ركبتي رعب لا مثيل له.

ها إنني ألاحظ للمرة الأولى أن ريتشارد يشبه تشارلز مانسون شبهاً غريباً... الشعر المجدول والذقن المرخية قليلاً والخدان الغائران بل وحتى ـ يا إلهي ـ حتى العينين الغائرتين أيضاً.

ولماذا لم يختر هذا القريب العزيز أن يسألني عن تشارلز مانسون إلا بعدما أصبحنا وسط هذه الغابة البعيدة، وبعدما أوشكت الشمس على الغياب؟!

وغاب صوتي في ساقي. وأخيراً استجمعت ما استطعت لكي أغير الحديث، فقلت لريتشارد:

إنني لن أنسى هذه النزهة أبداً، ولكن يا للأسف أنا على موعد في المدينة، فأرجو أن نعود.

نعود؟ قال ريتشارد ساخراً، إذا ذهبت من دون أن ترى الغياب هنا فستبدو، وكأنك لم تأت قط. لابد أن ننتظر الغياب.

obeikandl.com

ووقعت في حيرة، وتزايد ارتباكي، وازدادت مخاوفي: لماذا يصر على أن نبقى حتى الغياب؟ وهل أصر بدوري، أم أن ذلك سيثير شكوكه؟ ورحت أتطلع به من طرف عيني، وأتذكر مذابح مانسون. واصطكت ركبتاي من جديد وغاب حلقي في أمعائي، وصرت أتكلم مثل الحواة.

وعدت أكرر على ريتشارد أنني تذكرت فجأة أن موعدي مهم. ورحت أتأمل أن تمر بنا سيارة شرطة، أو سيارة عاشق، أو سيارة مسطول. يحب رؤية الخريف على أشجار القيقب، ولكن لم يمر بنا سوى السنجاب.

وتطلع بي ريتشارد من جديد وقال: ما بك، تبدو غير مرتاح! قلت: لا أدري، ولكنني شعرت فجأة بتعب شديد... ثم هناك موعدي في المدينة كما قلت لك.

قال: حسناً، هيا بنا نعدْ. وكدت لا أصدق. وقفزت إلى السيارة، ثم صعد هو وقادها بكل هدوء. ورحت أمتدح له طريقة مايك في القيادة لعله يقتدي به ولو قليلاً، غير أنه ظل على هدوئه.

وانتقل الصمت من الغابة إليه. ورحت أسلي نفسي أعد الأشجار واحدة واحدة، ونحن نخرج من الغابة.

آه، أخيراً، ها هو الطريق العام والسيارات. شعرت وكأنني خرجت من كابوس. وحين عاد بعض صوتي إليّ، تطلعت إلى ريتشارد، وقلت له: ديك... لماذا سألتني عن تشارلز مانسون؟

obeikandl.com

وضحك ديك وقال: ألم تلاحظ؟

قلت: ألاحظ ماذا؟

قال: لقد تم اختياري للقيام بدوره على مسرح برنستون، ولذلك أرخيت شعري مثله، وكذلك ذقني.

أما أنا فأرخيت نفسي، ورحت أغني... مثل مايك طبعاً!

opeikandl.com

obeikandl.com

الكون، وفقاً لنصري

يذهب نصري إلى سريره ذهاب الشمس إلى بحر البنفسج. وعندما ينتصف الليل عليهما، غالباً ما يفيق؛ لكي يخفف شيئاً من حمله المائي الصغير، فيهب من الفراش باكياً، بين اليقظة والغفلة، ثم يعدو إلى غابته عَدْواً. لكنه لا ينسى أبداً ـ وسط تكاثر الأشياء على نومه، وحلمه، ويقظته، واختلاط هذا بتلك ـ لا ينسى أبداً أن يتأبط «رينبو» ويضمه إلى صدره، وحين يعود إلى السرير، يهمس شيئاً في أذن «رينبو» ويضعه قرب وسادته، وينام ملء الكون.

وإذ أسمع بكاء نصري أرمي الصحيفة من يدي، وأهرع إليه متسائلاً فأجده، وقد احتمى «برينبو»، وأكمل طريقه إلى أداء حاجته لا يلوي على شيء. وأعود إلى صحيفتي، فإذا أنا في عالم «رامبو»، عالم الكبار، هذا العالم المليء بالعناوين المرعبة، والأقلام الرديئة، وفلاسفة الخراب.

أما «رينبو»، اللعبة القطنية الملونة التي تنام إلى جانب نصري في الليل، فهي «قوس قزح» خفيف الظل، عريض الابتسامة، يحاكيه فلا يناقش، ويتلو عليه بعناية فائقة ما سمعه في الروضة خلال النهار، ويحلم معه بالحدائق والجنادب ومعانقة الشجر. كل ليلة، تقريباً، كل ليلة، يتكرر المشهد نفسه بين عالم نصري و«رينبو» وبين القراءة في عالم «رامبو» والصحف التي تحيط بي مثل الأسلاك.

ومن الصعب أن اشرح لنصري كم أنا فرح له، فالكون، بالنسبة إليه، هو هذا الفرح. وباستثناء «توماس» القطار الحزين الذي جعلوا له وجهاً مثل «العم طوم»، لا مشكلات في عالم نصري. فـ«رينبو» يضحك دائماً، ودائماً يهز ساقيه الملونتين بشيء من الطرب. و«سوبرمان» الأزرق لا يعجز عن شيء أبداً. فهو يتسلق المباني العالية، ويمسك بخناق الأشرار، ويقود السيارات السريعة، ويقطع الغابات والأحلام... كما يقطع علينا المحادثات إذا خطرت لنصري خاطرة، و«سوبرمان» في يده.

إن «سوبرمان» نصري يفعل كل شيء: إنه خيّال خياله الصغير! أما أنا، فما زلت غارقاً في القراءات التي تتحدث عن سقوط «السوبرمان» الذي ابتدعه نيتشه وانتقل منه إلى فاغنر وبليك وجبران. غير أن نصري يرميه بكل بساطة أمامي ويسألني أن أطلب شيئاً منه، ولا يكف عن السؤال إلا عندما أطلب من «سوبرمانه» أن يأتي لي بشيء عن الكنبة، فعندها يستدير و«يطيران» معاً من الغرفة فيما يتولى نصري عن «سوبرمانه» إرسال الأزيز تأكيداً لعظمته في التحليق.

يتداخل عالم نصري مع عالمي في شيء من الغبطة. وإذا أغمره ضارعاً إلى الله أن يكبر في الفرح، وأتمنى له عالماً غير مليء بكل هذه الرداءة، وهذا اليأس، وهذا النفاق. أما هو، فعندما يأتي؛ لكي يوقظني في الصباح يدوس على عناوين الصحف من دون أن يدري. وعندما أقوم بصورة عفوية إلى الراديو؛ لكي أنشر في البيت موجز أنباء الصباح، يشدني من يدي؛ لكي يريني كيف يجلس «رينبو» من دون وجل

obeikandl.com

مع «سوبرمان». وفيما يتحدث المذيع ككتلة من الصقيع عن الفلتان الدولي، فلتان التعسف، وفلتان الظلم، وفلتان التفاهة، يقطع نصري عليّ الإصغاء لكي يثغو علينا حكاية «توماس». إنها لمسألة في غاية الأهمية، ولا تستطيع الانتظار، فقد وصل «توماس» إلى حافة النهر، ولا جسر هناك. ويترتب عليّ أنا أن أفعل شيئاً ما، لكنني أحيل نصري على «سوبرمان» فيهرع راضياً، طامعاً، إليه ثم يخبر «رينبو» عما حدث.

ويتركني مجدداً في عالم «رامبو» فيما يمضي في بناء الكون كما يطيب له، متكلاً أحياناً على مساعدة «والت ديزني». ويقبلنا ثم يذهب إلى الروضة، فيما أنصرف إلى قراءة المزيد من الصحف. فمن لا يقرأ حبراً كثيراً لا يكتب حبراً كثيراً. وأكتشف أن الألوان في عالمي ليست واضحة كما هي على ساقي «رينبو» حيث الأخضر أخضر والأزرق أزرق والرمادي لا وجود له. ففي عالم «رامبو» للأخضر أكثر من ظل، وللأزرق ثلاثون ظلاً، والأبيض ليس أبيض تماماً. يجب أن تقول «تقريباً» عن كل شيء. فالجزم قد يصيب أحياناً بعمى الألوان.

الأمور مختلفة في عالم نصري، وكلما أيقظني من صحيفتي إنما يعلن الفارق بين عالمين. رامبو ورينبو. فالكون عنده لا يزال قوس قزح، ويولد من لقاء عاجل بين الصحو والمطر، بين بهاء الشمس وعتمة الضباب.

obeikandl.com

obeikandl.com

اسمع يا نصري!

إنه يومك الأول في المدرسة.

خطوتك الأولى على عتبة عالم يكاد يكون أكبر بعداً من هذا العالم، اسمه العلم.

وقد تفرجنا عليك من بعيد، تربط حقيبتك الصغيرة إلى كتفيك، وتفرجنا على دهشتك، وأنت تتفرس في أترابك، وتتلمس بأجفانك اليوم الأول من الفصل الأول من العام الأول في زمن لا نهاية له، ولا قعر، ولا سقف، ولا قرار، اسمه العلم.

إنه فرسك في الحياة، وهو أيضاً الحواجز، وهو أيضاً الوصول!

إنه محيط من المياه العذبة على طرف الصحراء. كلما ارتويت، طلبت. إنه لهذا العصر ما كانته الخميرة للذين اكتشفوا الرغيف.

فالعلم في عصرك هو القوت الآخر. إنه الرغيف الوحيد الذي ليس من عجن الأرض. وأنت يا بني، من جيل نهاية القرن، ولدت والناس تتمشى في الفضاء، والعلم يعلق المرايا فوق قشرة الأرض؛ لكي يضيء ليل القطب، وألعابك سفن فضائية.

نحن، كانت ألعابنا بلابل من الخشب وطاحونة الوادي، وقصب السواقي التي تزمر فيها الرياح.

obeikandl.com

تفـرجنا عليك، يحـرسك الله، وأنت حـائر، هل المدرسـة ملعب، أم دنيا؟ هل هي هذه الجدران العارية، أم هي الآفاق التي خلفها؟

أما نحن، فكنا وراءك، نتطلع إلى العـالم من فوق كتفـيك، نراه من تحتهـما، أو من فوقهـما. لقد أصبحت، مذ أطللت، نهاية أفقنا فجراً وغسقاً، وغروباً.

أنت، لك العالم. وأمامك العلم. عليك بهما.

obeikandl.com

اسمع يا نصري!

في الخارج، على طرف النافذة، عام آخر يسافر إلى الخارج! وثمة أصوات اختلطت عليها أفراح الأعوام الآتية، وأحزان ما مضى، فراحت تغلف حيرتها بالصراخ. فإن ما مضى قد مضى كما قالت الكتب. وها هي الناس تضع كل شيء في أكياس الأعياد، وتضع الأعياد على العتبة. فالسنون ليست سوى نشرة الطقس تقرأها الناس، فتعرف مناخها ومزاجها، وتسمي كل دورة كاملة حول الذات، عيداً. تماماً مثل فراشات الضوء التي نضحك عليها. ومثل الهوام الحائم حول النور! كم يضحك النور من الفراشات المحتفلة بالضوء.

في الخارج، عند النافذة، تمر الأساطير والحكايات والأيام. كلها غبار في الهواء. كل شيء يمر، وكأنه دعابة الزمن، كل شيء، وكأنه مزحة الحياة. وفي مر السنين يتساوى الطير، وابن آوى، وهذا العبقري الذي يرتاد الأجواء والفضاء، لكنه لا يشعر بالسعادة حين يتكئ على كرسي في باحة المنزل.

كل عام، وأنت بخير يا بني،

وسواء مللت هذه الرتابة أم لا، فإنني سأكتب لك، بإذن الله، كل عام! وأيضاً لكي أكرر على مسامعك أشياء رتيبة عن الحب والجمال. وكيف أن السنين، ذاهبة أم آتية، بهجتها هي أنت، وأننا أصبحنا نمسح أحزان الحياة بابتسامة شقيقتك ماريا، وهي تتعبأ حياة، وتعطينا بأطراف أصابعها الندية حلاوة الحياة.

obeikandl.com

لقد توزع حبنا الآن مثل حبة القمح، فصار سنبلة، وظلت كل حبة قمح هي الرابط بين الزرع والنشوة، بين المطر والربيع، وسوف تظل هي العلاقة بين الربيع والحصاد. وحين يسألوننا عما إذا كنا نحبك أكثر من ماريا، أم نحب ماريا أكثر منك، فأقول لهم: إن هذا الحب أعظم من أن أستطيع تمييزه، وأروع من أن أستطيع تفسيره، فإنكما مثل الشمس ندور حولكما، وأعناقنا مشرئبة إليكما.

كل عام، وأنت بخير.

كل عام من كل عام. وكل ذروة من كل عام. وإنني أدعو لك يا بني، بالجذور. ليس ثمة ما هو أغلى من الجذور. سوف ترى غداً أن من أجلها تقوم حروب الأرض، وبسببها يصير صبيان الشوارع أبطالاً، ومن أجل رائحتها تكتب الملاحم. إنها الحقيقة الوحيدة التي تلد الأساطير في كل زمن، في كل العصور. والناس يا بني، تنشد إلى الأرض، وتغني لها، سواء أكانت في البوادي، أم في الصحارى، أم في السهول. وإن أكثر أماكن الأرض دفئاً عند أهل الإسكيمو هي تلك الأكواخ المصنوعة من صفائح الجليد

كل عام، وأنت بخير.

لقد سألني أحب الناس بماذا سوف أنصحك هذا العام؟ فقلت: إنني سوف أنصحك أيضاً، وأيضاً بقلم ودفاتر. ومع أنني أتطلع هذه الليلة بالورقة البيضاء، فأحار كيف أملأها؟ فأتطلع في أوراقي

obeikandl.com

الماضية فأراها مجرد أوراق على الطريق، وورقاً على الورق. ومع أنني مهزوم وأعزل. فإنني لا أريد لك في هذه الحياة سوى أن تكتب. وإذ أحلم لك، فأنا أحلم بأن تتخطاني بزمان، وبأن أكون نقطة انطلاقك لأمثالك.

وإذ أريد لك شيئاً، فإنما أريد لك أن تأخذ القلم جدياً أكثر مما أخذته أنا، وأن تعرف أهمية الورقة أكثر مما عرفتها، وأن تتيقن باكراً بأن أجمل شيء في الدنيا، كتاب.

فإنه تعالى حين أراد أن يهدي هذا المخلوق الضئيل دفع به دفعاً إلى الجنة، لكنه اختار الجحيم، إنما جعل له الكتاب جسراً إلى خالق السماوات والأرض.

لا تصغ إلى الذين يحذرونك من صناعة الكلمة، اللهم إذا ما وهبك إياها الله.

لا تأبه للذين يقولون لك إنها صناعة الفقر، وإنها حقل اليأس، فالحقيقة أنها قوافي الرجاء.

ولا تستمع إلى أولئك الذين يعظونك بأن الأرض مطحنة الضعفاء، وأنه عالم لم يخلق للكتاب، فالحقيقة أن الله يخلق لكل كاتب رجاء.

إنك تملك غير ما يملكون. سواء ملكت، أم لم تملك! إنك تملك أن تبشر بالعدل، وأن تدعو إلى العفو، وأن تقاتل من أجل الحق، وأن تدافع عن صعاليك الأرض، ومساكينها. إنك تملك أن تعبر، تملك أن ترى إذا ما رأيت، وتملك أن تشارك الناس بكل لحن تسمع، وبكل قافية تمطر عليك.

كل عام، وأنت بخير يا نصري.

obeikandl.com

ما كل ثروة ثروة في الأرض، وما كل قصيدة قصيدة، وما كل موسيقي موزار، وما كل كاتب كاتباً. وإني أدعو لك إذا كتبت ألا تجعل الكتابة مثل حرفة تعيش بها ومنها، بل أن تظل هواية أزلية تمنحها كل عبقرية ممكنة، وتمنحك كل مكانة في غد الأدب وتاريخه. فالذين يكتبون في الحياة كثيرون، لكن هناك ملتون واحد عبر العصور. وهيغو واحد. ومتنبي واحد. وبعض الكتابة تجارة، مثل السمسم والكمون، أما بعضها الآخر، فلا تفسير لتلك الرعشة التي يتركها فيك، ولا نعت، ولا صفة. فإن ثمة معلومات أكثر في كتاب الطهو، أو في كتاب القاموس المصور، لكن عشرة رفوف من كتب الطهو، أو مئة، أو ألف لا تشكل سطراً واحداً في «عطيل». وإن ألف جيش لا تدافع عن مُثُل الإنسان المطلقة مثل «ماكبث»، وكم كان سيظل الكون مشوهاً من دون عبقرية «البؤساء» أو «الفردوس المفقود»!

إنها العبقرية الوحيدة التي لا تخضع، يا نصري، لعالم المقارنات، ولا لعوامل الزمن. فالقطار الحديث يحل محل القديم، والسيارة السريعة تحل مكان السيارة البطيئة، والبناء الجديد يحل محل البناء المتداعي. لكن الوادي الجميل مثل الوادي الجميل الآخر، والشلال الدافق مثل الشلال الآخر، و«الفردوس المفقود» مثل «الإلياذة» و«الإلياذة» مثل «هملت» و«هملت» مثل «أزهار الشر». إن هذه الأشياء العظيمة لا يفصل بينها التفاوت، بل التشابه وليس الحداثة، بل مكانتها في العتق والاستمرارية. إنها مثل أعمال الطبيعة، بعضها تلال، وبعضها وهاد، وكلها في نهاية الأمر بدعة من بدع الكون.

كل عام، وأنت بخير يا بني،

إن أجمل ما في الحياة صديق وكتاب ووطن، وإني آمل أن يمن الله بها عليك ثلاثاً.

سمير عطا الله مع ابنه نصري

obeikandl.com